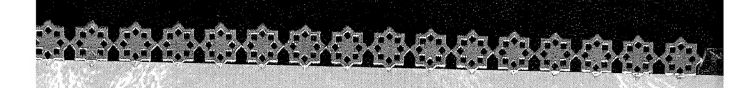
الموسوعة الشاملة
في
تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار



الجزء السابع والثلاثون

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

مشاريع ما بعد الحملة السابعة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء السادس والثلاثون

دمشق ١٤٢٠ / ١٩٩٩

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

١ — استرداد الأرض المقدسة لبييردوبوا

٢ — من كتاب الأسرار لمارينوسانوتو

١

استرداد الأرض المقدسة

تأليف بيير دوبوا

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

كان للحـروب الصليبية أبعدالأثار على أوربا الغربيـة بشكل خاص، وقـد فتحت هذه الحروب آفـاق المعـارف العقليـة والجغـرافيـة أمـام الاوربيين، وأخرجتهم من الواقع الإقليمي الضيق، إلى الانفتاح العالمي، ومن ظلام العصـور الوسطى إلى نور المعـرفـة، والاستعـداد إلى دخـول عصـور النهضـة، ومن الصراع بين الامبراطورية والبـابوية إلى قيـام مشـاريع الدول القـومية وتراجع البـابوية، وقـاد هذا كله نحـو تأسيس الجامعـات وانتشار الثقـافـة، وظهور عـدد كبير جـداً من الفلاسفـة و المحامين و المفكريـن السياسيين الذين تأثروا كثيراً بمعطيـات الحضارة العـربيـة، عن طريق الترجمة و الاحتكاك المبـاشر، وعن طـريق الذين هاجروا من اسبانيا وسواها إلى فرنسا نتيجة لحروب الاستغلاب ومحاكم التفتيش.

وترافق هذا مع النشـاط الهائل للدول الإيطاليـة، وبوادر مشـاريعهـا الاستعمارية الاقتصـادية، التي تجلت باحتـلال القسطنطينيـة، واقطاع الطليـان أحياء خـاصـة في مـدن الشام، ذات امتيـازات واعفـاءات، أي مايشبه المستعمرات و المستوطنات، وكـانت أوربا قد تفوقت بحريا على كل مـاسـواها، واستحـوذت على البحر المتـوسط، بعـد الاستيـلاء على جزيرة صقلية وبعض شواطىء المغرب، وذلك بالاضـافة إلى ما كان بيد الفرنجة من شواطىء الشام.

وتزامن هذا كله مع ظهور المغول كقوة فاعلة في المشرق العربي، ومع هذا كله، ظلت الوحـدة التي تأسست أيام نور الدين بين مصر والشـام تؤتي أفضل الثمار، فبجيـوش الوحـدة تحقق النصر في دميـاط ثم في

المنصورة، وبعدها في عين جالوت وحررت أنطاكية ثم طرابلس، وأخيراً عكا عام ١٢٩١م، وهنا بدأت العقول الأوربية تحاول استيعاب الدروس المستفادة من قرني الحروب الصليبية، وظلت الأصوات عالية تنادي بحملة صليبية جديدة، لكن الآن حلت العقلانية في التخطيط محل الانفعال و التحريض والإثارة، وشرع بعض رجال الفكر من علمانيين وكهنة في تقديم دراسات ومذكرات من أجل عمل صليبي أوربي موحد، وفي سبيل تحويل احتلال الأرض في الشام إلى احتلال دائم، ولتحويل العرب إلى الكاثوليكية أوافنائهم، واهتمت هذه الدراسات بمصر، وآمنت أن الطريق إلى القدس لابد وأن يمر عبر مصر، وأراد الأوربيون احتلال مصر، لكن بحملات جانبية، بعد اخفاق الحملات الجبهوية، وكثيرة هي الكتابات الأوربية التي خرجت إلى النور في مطلع القرن الرابع عشر حول هذا الموضوع، وأبرزها وأهمها جميعاً كتابي«استرداد الأرض المقدسة» للمحامي الفرنسي بيير دوبوا، وكتاب «الأسرار للصليبيين الحقيقيين لمساعدتهم على استرداد الأرض المقدسة» للايطالي مارينو سانوتو.

ففي الوقت الذي جرى فيه تصنيف هذين الكتابين، كان جوانفيل قد كتب كتابه عن حياة لويس التاسع، ولأهمية مطلع القرن الرابع عشر، هناك مدخل دراسي واسع حول هذا الموضوع في مطلع كتاب«الاسترداد» لدوبوا، ونجد في هذه الدراسة وفي نصي الكتابين، صورة عقلية الغرب الأوربي، هذه العقلية التي استمرت على المنهج ذاته حتى القرن العشرين، وتساور المرء الشكوك حول تغييرها في القرن المقبل.

والمناداة بدمج المنظمات العسكرية، وبالقيام بأعمال تبشيرية منظمة وبالاهتمام بالعربية، وبالعمل على تحويل المسلمين عن دينهم، التي نجدها في الكتابين هي الأمور التي طبقتها أوربا تحت عناوين التبشير

والاستشراق والاستعمار، وهي الأفكار التي على أساسها قامت الحركة الصهيونية، ولنتذكر دوماً أن الغرب هو الذي أوجد إسرائيل، وما برح يمدها بأسباب الحياة.

ومهما تحدثت عن محتوى هذين الكتابين في هذه التوطئة، سيكون ذلك قاصراً لا يفي بالغرض، والذي يفي بالغرض هو قراءة النصين بتمعن، ومن ثم استعراض ما وقع منذ القرن الرابع عشر حتى الآن، وليس غرضي هنا كربلاوياً فيه النحيب والشكوى من الاستعمار ومن الغرب، بل الغرض المعرفة، والقول بأن حوادث التاريخ هي حوادث صراعات بين الشعوب، والمسألة ليست مسألة عدل وظلم، لكنها قضية قوي وضعيف، ودائماً مصدر القوة الوحدة، ومصدر الضعف التمزق، فقد أخفقت كل مشاريع أوربا مجتمعة قبل القرن الرابع عشر، بفضل وحدة مصر والشام ، هذه الوحدة التي شكلت المكافىء لكل أوربا، وشكلت المرجعية العلمية والشرعية، فقد كانت الخلافة العباسية في القاهرة تشكل رمز الشرعية، وعمل الأزهر وشغل دور المرجعية العلمية، وسبيل الحفاظ — الآن — على مصالح الأمة العربية ومعها الشعوب الاسلامية، مرتبط بإعادة بعث هذه الوحدة وهذه المرجعية، فإذا اتحدت مصر والشام أمكن للعرب أن يتلاقوا، ولقاء العرب وتوحيد إرادتهم هو السبيل الوحيد أمام المسلمين في قرن مقبل، القول الفصل فيه، والانتماء إلى الثقافات، فالثقافة الآن هي التي تحدد الهوية، وكانت مصر والشام قد اتحدتا أيام نور الدين لغايات جهادية عربية اسلامية، وبالفعل حققت هذه الوحدة العديد من المعجزات، والجهاد في سبيل البقاء العربي، وفي سبيل تحرير الأرض، وفي سبيل رفع الضيم عن المسلمين، وفي سبيل إنسانية أفضل وأكثر سعادة، وأقل سفكاً للدماء، يستدعي الحال الآن بإلحاح كبير، إعادة الوحدة مابين الشام — كل الشام — وأرض الكنانة.

ويثير الكتـــابان عــــدة أمـــور تتعلق بشكل رئيسي بطائفتـي الداوية والاسبتارية وبالشؤون العسكرية، ولهذا عزمت على أن ألحق بموسوعتنا ثلاث دراسات حديثة : عن الحروب الصليبية المتأخرة، أي حتى معركة وادي المخازن، وعـن فن الحرب حتى تحرير عكا، وعن طائفتي الداوية والاسبتارية.

والله المعين والموفق إلى السداد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سهيل زكار

دمشق ٤ — ربيع الأول ١٤٢٠هـ / ١٧ — حزيران ١٩٩٩ م

مدخل

ترجمة مختصرة لبيير دوبوا

معلوماتنا عن حياة بيير دوبوا Pierre Dubois وأعماله قليلة جداً، فلم يترك لنا مجلد مراسلات شخصية أو رسمية، مثلما فعل بيرودیلافينا Vigna الذي كان سكرتيراً ومستشاراً لفردريك الثاني، وما من أحد سواه من بين الأسرة الرسمية للملك فيليب الجميل، بقي تقريباً من دون ذكر داخل كتلة مواد الوثائق، التي مكنت هولتزمان بأن ينشر مجلداً حول وليم أوف نوغاريت Nogaret ، وقد جرى نشر أوراقه الكثيرة في الغالب مجهولة بين منتجات قلمه المتنوعة التي بقيت لنا، وظهر اسمه بمثابة كاتب معروف في عمل واحد فقط، أما ملاحظات أعماله القليلة المتفرقة فقد ظهرت في مدونات رسمية جرى تمحيصها بشكل جيد من قبل س.ف لانغلويس Langlois ، والاحتمال ضعيف بوجود المزيد من المواد الهامة لم يتم اكتشافها، ولهذا يتوجب أن نضيف هذه المعلومات القليلة إلى ما أخبرنا به عن نفسه في أوراقه وما يمكن أن نستخلصه مصادفة من خلال البيانات المقدمة هناك.

ونعرف من هذا كله بأنه قد ولد في شمال فرنسا، وربما في، أو على مقربة من كوتانسيز Coutances في نورماندي، وهذا واضح من أسلوبه الكتابي والأدبي، ومن معرفته بأعيان تلك المنطقة من أمثال: هنري دي ري Rie فيزكونت كين Caen، ورتشارد لينيفو Leneveu ومن حقيقة أن سكان كوتانسيز الذين كانوا أبناء منطقته قد عبروا عن ثقتهم به مرتين لتمثيلهم في مجلس الأعيان العام Estates General ، ويرجح أنه كان من أصل برجوازي، ويدلل على هذا اختياره لمهنته، وانعدام أية إشارة في كتاباته إلى أنه من أصل

نبيل أو فلاحي، ولقد أخبرنا أنه في أيام تلمذته في باريس استمع إلى محاضرات ألقاها توماس الأكويني وسيغر دي برابنت Brabant ، وكان توماس يحاضر في باريس في ١٢٦٩ — ١٢٧٢، وسيغر في حوالي ١٢٦٦ إلى ١٢٧٦ ، وبناء عليه يمكننا القول بأن تاريخ ميلاده كان فيما بين ١٢٥٠ و١٢٥٥ حين جرى تنظيم جامعة باريس أممياً، ويحتمل أن دوبوا اصطنع لنفسه معارف خلال أيام دراسته مع عدد من أبناء منطقته النورمانديين، الذين صاروا فيها بعد أصدقائه في المحكمة، وتشيرمعارفه بالقانون المدني الروماني إلى أنه لابد قد درس هذا الموضوع في مكان آخر غير باريس، ولعل ذلك كان في أورلين، لأن باريس لم يكن فيها كلية قانون كافية.

ومن الممكن أن نفترض، أنه بعدما أكمل دراسته، بدأ بممارسة مهنته في كوتانسيز، والحقبة المؤكد معرفتها في حياته، والتالية لهذه هي الفاجعة التي نزلت بفيليب الثالث في حملته ضد أرغون سنة ١٢٨٥، وقد توفي الملك لإصابته بالمرض في أثناء تراجعه، وكان دوبوا الآن ناضجاً بما فيه الكفاية، وصاحب خبرة كي يعمل بالمسائل العامة، ويبدو أن هذه الحادثة قد تركت تأثيراً عظيماً عليه، هذا وتوفر صداقته مع هنري دي ري، والأعيان الآخرين في بلاط فيليب الرابع توضيحاً لمعرفته بقضايا الدولة، وتمكن من التعمق في أحوال المملكة، في الخمس عشرة سنة التالية، التي أصبح فيها ثرياً تماماً، واحتل منصب المحامي الملكي في منطقة مسقط رأسه، وكانت نتائج هذه الخبرات والتأملات جهوده البكر في الحصول على الانتباه الشعبي لأفكاره الإصلاحية، حيث وجه سنة ١٣٠٠ مذكرةً إلى فيليب الرابع تحت العنوان الصارخ التالي:«خطة مختصرة ودقيقة من أجل الحملة السعيدة، ولاختصار الحروب، ومقاضاة ملك فرنسا»، ولانمتلك أي دليل على أن مقترحاته كان لها أي تأثير على السياسة الملكية.

ومهما كان نوع الاستقبال الذي تلقتـه هذه المذكرة لعام ١٣٠٠ (هناك نسخـة خطيـة منها وحيـدة تعـود إلى القـرن الخامس عشر) فإن شهيتـه للشهـرة العـامـة قـد شحــذت، وقـد أعطاه تفجـر الصراع بين فيليب وبونيفيس الثـامن الفـرصـة، فقـد أرسل في اليـوم الذي تقـدم على نشر مرسوم Ausculta Fili بشكل رسمي، مـذكرة مختصرة إلى صـديقه في باريس رتشـارد لينيفو، بعنوان «منـاقشات لاتقبل الجدل»، ولم تعـد هذه المذكرة موجودة، وأمكننا التعـرف إلى محتوياتها من خلال ملخص دقيق قـدمه دوبوا نفسـه، في كتـابه «استرداد الأرض المقدسـة» (الفصل الحادي عشر)، ولا يوجد دليل على أن هذه المذكرة قد وصلت إلى الملك، ووجه في ١٥ شبـاط ١٣٠٢ فيليب دعـوة لاجتماع الأعيــان، وكـان هذا أول مجلس أعيـان عام نمتلك عنـه سجلاً أصيـلاً، وتأكـدت سمته الوطنيـة بضمه — للمرة الأولى — ممثلين من الدرجة الثالثة، كان بينهم المحامي النورماندي الطموح بيير دوبوا، فقد اختير ليمثل بلدته كوتانسيز.

وقـام واحـد من الأذكيـاء في حـاشيـة فيليب بتقـديم نص مكثف لـ Ausculta Fili مع افتتاحية Deum Time ، واقتبس اصطلاحات مسيئة لفيليب، وعـرض الادعـاء البـابوي وقدمـه بلغـة أكثـر إثارة من الأصل، وتوقف دوبوا عند واحد من المقـاطع المتناقضة بسبب التزييف، وقام بسرعـة بكتابة رد بعنوان: «تقدير لمعـايير ينبغي تبنيها»، ولا نمتلك بينة بأن هذا الرد قد جرى توزيعه بين الأعيان، لكن أن يكون قد وصل إلى علم البلاط، فهـذا مبرهن عليه من خـلال حقيقة أنه قد عثـر عليه، مع بعض المناشير الأخـرى التي كتبها دوبوا، داخل مجموعـة من الردود الجدلية القـاسية، جـرى نسخها لصـالح الوثائق الملكية بتـوجيه من بيير دي ايتامبز Etampes ، حافظ الوثائق من سنة ١٣٠٧ حتى ١٣٢٤.

ولانعـرف شيئاً عن نشاطات دوبوا كعضـو في مجلس الأعيان، فقـد كان في ذلك الحين «محامي القضـايا الملكية في وكـالة كوتانسيـز والمحامي

الرسمي عن الجماعة في تلك المنطقة»، ومن المعقول أن نفترض أنه كان له دوره في إثارة أعضاء منطقته للقيام بتبني قرارات لصالح «الأهداف الملكية»، وهناك بينة حول هذ ا الاسهام قد ظهرت سنة ١٣٠٤، داخل منشور آخر، جاء هذه المرة بصيغة وطنية هي:«التماس الشعب الفرنسي إلى الملك ضد البابا بونيفيس الثامن»، ويشير استخدامه للغة الشعبية إلى جهد التماس موجه بشكل خاص إلى الأعيان من المرتبة الثالثة.

ولم يوقف تعليق مجلس الأعيان العام نشاطاته، فقد ذكر دوبوا في (الفصل ١١٧) من كتاب الاسترداد، أنه عهد في كانون الثاني ١٣٠٤ إلى جين دي لى فوريت برسالة عنوانها:«حول تقصير الحروب والتكتيكات المتعلقة بها»، كان من المفترض تسليمها إلى فيليب، عندما كان ذلك الملك في طولوز، وتحتوي اقتراحاً من أجل غلبة الامبراطورية الإغريقية من قبل شارل أوف فاليوس Valois ، بمساعدة الملك الفرنسي ، وخطة مفصلة حول السياسة العسكرية المتوجب اتباعها، وهذه الرسالة، رسالة سنة ١٣٠٤ قد فقدت، ولعلها صياغة جديدة لمذكرة«الخطة المختصرة» لسنة ١٣٠٠.

وكتابه الرئيسي هو«استرداد الأرض المقدسة»، وقد كتب في وقت ما فيما بين تكريس كليمنت الخامس، ووفاة إدوارد الأول، وكان كليمنت قد توج بابا في الخامس من حزيران سنة ١٣٠٥، ومات ادوارد يوم ٧ تموز ١٣٠٧، ولن نكون مخطئين كثيراً إذا ما قلنا بأن سنة ١٣٠٦ كانت السنة التي ألف فيها كتاب الاسترداد، فقد توجه في مطلع الكتاب بالخطاب إلى ادوارد الأول، ووصف المؤلف هنا نفسه بقوله:«المحامي المتواضع لقضاياه(ادوارد) اللاهوتية في تلك الدوقية»(أكوتين)، ويبدو أن التعارض بين مركزه كمحامي لفيليب وخدمته لصالح ادوارد، لم يسبب له مصاعب كبيرة .على الرغم من العداوة المريرة التي كانت قائمة آنذاك بينه وبين فيليب، وبحكم كون ادوارد دوقاً لأكوتين فقد

كان من أتباع فيليب، ومما لاشك فيه، أنه في وقت ما بعد إبرام الصلح في سنة ١٢٩٩ بين ادوارد وبين فيليب، عمل دوبوا مستشاراً لادوارد في بعض من قضاياه الكثيرة التي أثارت صراعاً فيما بين القضاء المدني والقضاء اللاهوتي في أكوتين، ويبدو أن استخدامه من قبل ادوارد كان في مناسبات كثيرة، وقام س . ف لانغلويس بالتحري الدقيق لوثائق المالك الغسكونية لادوارد الأول، فلم يعثر على أي ذكر لدوبوا كعامل ملكي في أكوتين، هذا ولم تكن الخدمة المزدوجة فريدة في بابها بأي حال من الأحوال، فقد قام محامون آخرون من ذلك العصر بمثل هذه الأعمال ومن هؤلاء كان غليوم دي بريول Breuil .

وبعد ظهور«الاسترداد»بقي قلمنا الكاتب للمناشير بدون نشاط لمدة عامين، ويبدو أنه كان قد عاد إلى نورماندي، ليمارس مهنته وليرعى مصالح جماعته المحلية، وقد ورد ذكره في رسائل ملكية تاريخها شهر أيار عام ١٣٠٧، فيها تخلى فيليب، بناء على طلب بيير دوبوا، محاميه الملكي في وكالة كوتانسيز عن بعض الاستحقاقات العائدة له عند كهنة تلك البلدة، وسعى رينان إلى التعرف على وجوده مع بطرس دي بوسكو Bosco ، الذي ورد ذكره بتاريخ ١٣ شباط لعام ١٣٠٧ ، فوق ألواح من الشمع حول الحسابات الملكية، لقيامه بشراء منازل للفريق الملكي، أثناء زيارة فيليب لنورماندي، وهذا أمر مشكوك به كثيراً، فواحد بمكانة دوبوا في ذلك الحين، كان من الصعب توجيه الدعوة إليه للعمل بمثل هذا العمل المتواضع.

ومنحه الهجوم على الداوية فرصة جديدة، فقد جرى اختياره مع واحد فريزي ثانية ليمثل منطقته في مجلس عام للأعيان، عقد في تور في سنة ١٣٠٨ ، وجاء وصفه في وثيقة انتخابه:«محامي للقضايا اللاهوتية الملكية في وكالة كوتانسيز»، وقد أنتج في ذلك العام خمس رسائل، في اثنتين منهن حملة مختصرة على الداوية، وكانت إحداهن عامية، أما الثالثة

فكانت نسخة جديدة من الاسترداد، وهي مفقودة الآن، وكانت قد قدمت إلى الملك في شينون Chinon في ٢٣ أيار ١٣٠٨ ، بعد تعليق المجلس، وجاءت معرفتنا بها من خلال إشارات قام بها دوبوا في مذكرات تالية، ووجهت هذه بشكل رسمي إلى البابا، مثلما جرى توجيه النسخة الأصيلة من الاسترداد إلى الملك ادوارد الأول، وجاء صلب الموضوع هو نفسه إلى أبعد الحدود، والخلاف هنا عن النص الأصيل هو اقتراح تقدم به من أجل تمتين المنظمات العسكرية وتعيين ملك قبرص في القيادة.

وكان الدافع لكتابة الرسالة الرابعة لعام ١٣٠٨، ذات عنوان«مشكلة الأرض المقدسة»، هو أحداث ألمانيا، فقد جرى اغتيال الامبراطور ألبيرت الأول في ١ — أيار، وانتهز كاتبنا المتشوق للشهرة الفرصة ليقترح على فيليب الرابع أن يطلب من البابا تعيينه امبراطوراً، وقد أباح دوبوا هنا واحدة من انعدام التزامه المتكرر، وتغييره لمواقفه، فقد كان معروفاً أنه خلال النزاع بين ألبيرت صاحب النمسا وأدولف صاحب ناسو Nassau من أجل العرش، قد راج اقتراح بأن يتولى البابا بونيفيس الثامن عملية تعيين الامبراطور، وكان دوبوا قد أنكر آنذاك امتلاك البابا لمثل هذه السلطة، لكن الآن، عندما بدت الظروف وهي تقدم فرصة لزيادة حجم مملكة الملك الفرنسي مع سمعته، اقترح أن يقوم كليمنت الخامس باستخدام السلطة نفسها التي رفضها في حالة بونيفيس الثامن، ويبدو أن دوبوا قد عدّ البابا فرداً عادياً بلا سلطة عندما كان إيطالياً معادياً لفرنسا، لكن عندما كان فرنسياً، له عواطف جيدة نحو الملك، فهنا عدّه دوبوا صاحب سلطات رسمية غير محدودة، ولم يقم فيليب بأي عمل جـدي في هذا المنحى، لكنه اتخذ خطوات لضمان انتخاب أخيه شارل أوف فاليوس.

وكان الانتاج الأخير لهذا العام رسالة وجهت إلى فيليب، اقترح فيها

إيجاد مملكة في الشرق الأدنى من أجل ابنه الثاني، فيليب الطويل، وتسوغ محتوياتها عدّها بمثابة ملحق «للاسترداد» ولهذا ترجمت وألحقت بترجمة المجلد الحالي.

وبعد هذا النشاط المثير لعام ١٣٠٨، أخلد دوبوا إلى الراحة لمدة خمس سنوات، فالمصادر لا تشير إلى أي أثر من النشاط الأدبي قام به من جانبه، لكن هل أنتج رسائل أخرى لم تبق لنا ولم يتم التعرف عليها؟ وهل شعر بالاحباط لأن جهوده لم تأت بأي استجابة من الملك؟ أم أن سياسات فيليب حققت ما يكفي من نجاحات حتى لم تبق هناك حاجة إضافية للتوجه نحو الرأي العام؟ ولقد استمر وليم نوغاريت No-garet في خضم المعركة ينشر منشوراً لتسويغه، لكن المحاكمة المخفقة لبونيفيس في سنة ١٣١٠ أخفقت في إثارة المحامي النورماندي لانتاج أي أثر أدبي، ولم يثر مجمع فينا، الذي حلّ منظمة الداوية أية ردات فعل من قلمه.

واستطاعت عين س . ف . لانغلويس الثاقبة، والخبيرة تماماً بالخصوصية الأدبية لدوبوا، التعرف إلى أنه مؤلف رسالة صغيرة، كتبها فيما بين تشرين أول ١٣١٣ وأيام الصوم الكبير في سنة ١٣١٤، بعنوان«مبارزات ومنازلات»، ولم تنظر الكنيسة قط بعين الرضا إلى المعارك الصورية، التي أحبتها قلوب الفرسان كثيراً، وكانت الملكية أيضاً تميل نحو التقطيب تجاهها لأن عدداً كبيراً من الرجال ومن الخيول هلكوا مما سبب صعوبات في الحفاظ على قوات فرسان إقطاعية كافية، وقبل القيام بالصليبية المقترحة، قام كليمنت الخامس في ١٤ — أيلول سنة ١٣١٣ بإصدار مرسوم Passiones Miserabiles ، الذي أدان بشدة المبارزات والمنازلات، وفي تشرين الأول قام النائب البابوي في فرنسا بشكل رسمي بتحريم جميع المبارزات مع التهديد بإنزال عقوبة الحرمان الكنسي والتكفير، وجاء الاعتراض من النبلاء الذين احترموا

المؤسسـة القـديمـة التي كـان يمكنهم من خـلالها إظهـار براعتهم وشجـاعتهم، ومـن حشـد الموظفين الصغـار، الذين كـانت المبـارزات بالنسبة إليهم مصدراً للدخل، وكذلـك من العامة الذين وجدوا في مثل هذه المشاهد خروجاً مرحباً به على رتابة حياتهم، وجاءت مذكرة دوبوا مجرد طلب غير رسمي إلى البـابـا حتى يعلق المرسـوم، وأمـام مختلف الاعتراضـات من الأسرة المالكة جـرى تعليـق المرسـوم، ومن ثم ألغي أخيراً.

وعبر دوبوا في بعض رسـائله عن الخوف من الأعـداء الـذين من الممكن قيامهم بازعاجه بسبب الأفكار التي نشرها، وبهذا أعطى مسوغاً لإبقاء اسمه مجهولاً، ويبدو أنه توفر القليل من الأساس الفعلي لمثل هذا الخوف، وعـاش دوبوا بعد سيـده الذي ابتغى برغبـة شـديدة خدمتـه، لكن لم تكن هناك محاولة للنيل منه، وكـان الذين تعرضوا لثقل عـاصفة النقد الشديد هم بعض موظفي فيليب ومستشاريه، وخاصة انغراند دي مـاريني Enguerrand de Marigni ، الذي كـان وزير مـاله، فهـذا أيضاً كان ممن تحمل عاصفـة النقد التي ثارت بعد وفاة الملك، وازدادت الكراهية الشديدة لماريني بإثارة النورمان لتـدبر انتخاب ابن عمه نيقولا ليكون بابا، وغيـاب نقد دوبوا فيـه بينة إضـافية على أن جهـوده لنصح فيليب لم تتلق اعترافاً رسمياً.

وأصبح دوبوا بعـد سنة ١٣١٤ شخصيـة مغيبـة في الظل، ومن المحتمل أنه تابع نشاطـه بمثابة محامي للتاج، إنما في منطقـة أرتوا، وجاء في سجـلات برلمان باريس لـدورة كـانون الأول ١٣١٩ اسم «المعلم بيير دوبوا» بين أصحـاب تقـارير التقصي، وجـرى تعـريفـه على أنه وكيل الكونتسة ماهوت صاحبـة أرتوا، ويبدو أنه قبل وفاة فيليب (٢٩ تشرين الثاني ١٣١٤) دخل دوبوا في خدمة الكونتسة، وقد أعدت في يوم فصح ١٣١٤ من أجل الشراء في باريـس لتسعـة أذرعـة من القماش من أجل

مستشـارها«المعلم بيير دوبوا»، وكان آخـر ظهور لدوبوا في التـاريخ — إذا كـان في الحقيقـة هو — في مـادة في وثائق باس — دي — كـاليس Pas - de - Calais ، حيث ورد ذكـره مع آخـرين شـاركـوا في التحقيق في بثيون Bethune في ٢٣ شباط سنة ١٣٢٠ ، وكـان قد وصل آنذاك إلى سن السبعين أو ما يقـارب ذلك، ولاشك أنه توفي بعد ذلك بوقت ليس طويل.

الاحتكام إلى الرأي العام

من الصعب الحديـث عن وجـود رأي عـام — حسب الاصطلاح الحديث — في العصـور الوسطى، ومع ذلك ثارت اهتمامـات الرأي العام بين آونة وأخرى إلى حيث لجأ المتنافسون من على الجانبين، وابتغوا الحصـول على شيء من التأييـد الشعبي، وجـرى بالضرورة توجيـه مثل هذا الاحتكام إلى جـزء صغير جداً من مجموع السكـان، وتكون السواد الأعظم من الناس من فـلاحين جهلة، الـذين لم يكن لهم وزن، حتى لو افترضنا أن أحـد الناس قـد امتلك الوسائل، في إثـارة هذا السواد نحـو موقف ما.

وكان الالتجـاء الجدي إلى الرأي العام يمكن توجيهـه نحو فئات من المرغوب نيل مساندتها لسبب أو لآخر، وذلك من أمثال أعضاء المجلس الاستشـاري الملكي، وأشخاص يفترض أن لهم نفـوذهم وتأثيرهـم على أعمالهم، وأعضاء من البلاط البابوي، أو أعيان من الهيئة اللاهوتية أدنى منزلة، ونزولاً من هؤلاء إلى مـؤيد يـدهم من الأدنى مكانة، ومع قيـام الطبقة البورجـوازية العليا وارتقائها إلى المكانة الهامةسيـاسياً واقتصادياً، صـار من الممكن إضافـة مجموعـة ثالثة، من الممكن الاحتكام إليهـا مع بعض الأمل بالنفع.

وفي غيـاب اجتماعـات مجالس منتظمـة تضم أعضـاء متمكنين من

الشعب، أخذ الاحتكام إلى الرأي العام شكل مذكرات ونشرات أو رسائل، تمت كتابتها أحياناً من قبل وكلاء جرى تعيينهم لهذه المهمة، وأحياناً من قبل متطوعين، وبالطبع لم تكن هناك وسائل تقنية للنسخ السريع، ولاخدمات للتوزيع، وحققت الأفكار التي حوتها المذكرات الانتشار بواسطة الفم في الغالب، أو بوضع المذكرة في مكان معروف، مثل أبواب الكنائس، ووصلنا عدد كبير من هذه المنشورات بنسخ خطية فريدة، تمّ حفظها في بعض دور الوثائق الرئيسة أو اللاهوتية، أو تم نسخها كلياً أو جزئياً من قبل بعض المؤرخين، الذين عدّوا القضية جديرة بالتدوين.

ومن الممكن القول بأن المنشورات من هذا النوع في العصور الوسطى تعود إلى ثلاث حقب، أو ربما أربع حقب متميزة، و جاءت الحقبة الأولى وولدت من خلال الصراع حول تقليد المناصب، التي بدأت مع محاولات البابا غريغوري السابع لاصلاح الكنيسة في ألمانيا، ولتأكيد الاستقلال اللاهوتي عن الاشراف الذي فرض من قبل الامبراطور هنري الرابع، واتسع الصراع وتطور إلى مشكلة تعلقت بادعاءات التنافس على السلطة بين القوى الروحية والقوى المادية، واستمر هذا الخلاف طويلاً بعد اختفاء الذين أثاروه على مسرح الأحداث، وأخيراً تم الوصول إلى تسوية في وفاق وورمز Worms (١٢٢٢) ، وظهر في أثناء الصراع عدد من المناشير، حاول فيها مؤيدو كلاً من الفئتين المتنازعتين الاستناد على نصوص مقتبسة من الكتابات المقدسة، ومن آباء الكنيسة، ومن تقاليد الكنيسة، ومن القوانين الكنسية، واكتشف مؤيدو الامبراطورية مخازن من الذخائر متوفرة في مناقشات القانون المدني الروماني، الذي كانت دراساته المنبعثة قد بدأت في المدارس، وكانت المناقشات من هذا المصدر قوية جداً إلى حد جعلت فيه من الكونتسة ماتيلدا صاحبة توسكانيا — وكانت من الحزب البابوي —

أداة في إيجاد مدرسة للدراسات القانونية حيث يمكن دراسة القانون الروماني من الوجهة الصحيحة، أي من وجهة النظر البابوية، وووجهت أعمال الاقتباس للقوانين أحياناً، بتهمة بأن القانون المنقول لم يكن أصيلاً، وغالباً ما تمّ تبادل هذا الاتهام من على الطرفين، وبدأ المفكرون من الناس يسألون:«أين يمكن إيجاد الحقيقة»؟ و«هل هناك حقيقة مطلقة» ؟.

وتغطي الحقبة الثانية الصراع فيما بين أباطرة أسرة هوهنزتوفن والبابوات، ولاسيما جهود الامبراطور فردريك الثاني للحفاظ على منصبه في وجه العداء المرير من جانب البابوين: غريغوري التاسع، وانوسنت الرابع، وكان فردريك الثاني كرجل دولة أكثر وضوحاً بالرؤية من كل من هنري الرابع أو هنري الخامس، وقد رأى أن خير سبيل أمامه هو نيل تأييد الملوك الأوربيين الآخرين، ومن أجل هذا بعث برسائل متوالية إلى الحكام وإلى مرؤوسيهم الرئيسيين، لكن ذلك كان بلا فائدة، وقد ترك لنا سكرتيره ومستشاره بيروديلا فينا — وكان معلماً في الأسلوب اللاتيني الرفيع — مجموعة من الرسائل اتخذت نماذج في تدريس الـ Ars dictominis ، وطبعاً قد تضمنوا إشارة إلى مشاكل فردريك، وكانت هذه المجموعة متوفرة في دار الوثائق الملكية، ومن المؤكد أنه كان بإمكان رجال الدعاية البارعين لدى فيليب استخراج إشارات نافعة من محتوياتها المقنعة، وهذا أمر لم يبرهن عليه بشكل قاطع، لكن يمكن للانسان أن يتعرف إلى توفر تطور واضح المعالم لأفكار الامبراطوريين الذين كانوا في خدمة فردريك، وذلك من خلال الذين كانوا في حاشية فيليب، ومن ثم إلى الوضع الدفاعي الذي اتخذه المدافعون عن لويس صاحب بافاريا في القرن الرابع عشر.

وتقع الحقبة الثالثة خلف النطاق الزمني لهذا المجلد، ذلك أنها بدأت مع تفجر الخلاف حول الانتخاب الامبراطوري في سنة ١٣١٤، وعندما

هزم لويس صاحب بافاريا خصمه في سنة ١٣٢٢، اتخذ البابا جون الثاني موقفاً أفاد أنه وحده امتلك الحق ليقرر الخلاف حول الانتخاب، ودعا لويس إلى عرض دعواه أمام مجلس الكرادلة في روما، ورفض لويس ذلك، وحرم كنسياً، وتعقد الصراع المتجدد بين الامبراطورية والبابوية بصراع البابا جون وخصومته مع الفرنسيسكيين الروحيين، الذين انضموا إلى صف لويس، وكانت عروض كلا الطرفين عالية الصوت، لكن عندما يقارن هذا مع الصراع الأبكر، نجد أن هذا كان معركة أقزام، والذي جعل هذا الصراع هاماً هو أنه دفع بجهود بعض الكتاب مثل : وليم أوف أوكهام Ockham وجين أوف جاندون Jandun، ومرسيليوس أوف بادوا Padua ، إلى توجيه ضرباتهم نحو أسس البابوية بالذات.

وأوضحت الدراسات المنشورة في مجال السياسات الفرنسية خلال حكم فيليب الرابع، أنه توفرت آنذاك حقبة واضحة رابعة للمنشورات، قد عادت من حيث التأريخ إلى ما بين الحقبتين الثانية والثالثة المشار إليها أعلاه، وقد كتبت الأعداد الكبيرة من المنشورات التي دبجها قلم وليم أوف نوغاريت وقلم بيير دوبوا، لغاية محددة هي كسب التأييد الشعبي لسياسات فيليب، وظهرت المحاججات التي التمست تأييد وعطف الطبقة الوسطى بشكل أكثر تعاظما وتكراراً مما كانت عليه في الحقب الأبكر، وسبب ذلك أن البرجوازية قد صعدت الآن إلى مكانة بات من المرغوب فيه كثيراً نيل تأييدها، وهذه حقيقة أدركها الملوك الوطنيون، ففي أيام الامبراطورية، حتى في أيام لويس صاحب بافاريا، كانت هناك دواعي أقل لمثل هذه التوجهات بالالتماسات، لأن الامبراطورية حافظت على التنظيم الاقطاعي الذي ترك فرصة صغيرة للطبقة الوسطى للقيام بدور سياسي من هذا القبيل، وعلى العكس كان فيليب الرابع بارعاً بما فيه الكفاية لإدراك أهميتها، وهكذا طور آلية

أعطى فيهـا أعضاء الطبقـة البورجـوازية قدراً من الاعتراف السيـاسي، مثلما حــدث بالنسبــة لمجلسي أعيــان سنـة ١٣٠٢ وسنة ١٣٠٨، فهنا حـوضر عليهم من قبل عملاء فيليب، ووزعت عليهم المنشـورات التي تؤيد القضية الملكية، وكان بيير دوبوا حاضراً في كلا المجلسين، وقد كان أيضاً قـد تولى كتابة بعض المنشورات، وظهرت الرسـالة التي نتولى الآن ترجمتها فيما بين اجتماعي المجلسين العامين.

خلفية تاريخية

ظهـر بيير دوبوا على مسرح الأحداث التـاريخيـة في لحظة حاسمـة في الصراع فيما بين البــابوية والدول الوطنيــة البطيئة الظهــور آنذاك، وفي الوقت الذي انحصر فيـه دور دوبوا في هذا الصراع في فـرنسا إلى أبعـد الحدود، كانت المشكلة نفسها أوسع بكثير، حيث تورط فيها بالفعل كل ملك وطني قد حـاول أن يحكم ممتلكاته بمثابة سلطـان متحرر من جميع أنواع التدخل من قبل سلطة خارجيـة، وحقق الوضع الجغرافي وحقائق أخـرى في انكلترا، درجة من الوحـدة الوطنية كـانت أبكر مما حصل في فرنسا، وقد كـانت مشكلة السيادة هذه قد انبعثت من قبل من وقت إلى آخـر، لكن نادراً مـا كـانت حـادة الشكل مثلما كـانت عليـه أثناء حكم ادوارد الأول (١٢٧٢— ١٣٠٧)، وبناء عليــه إن الصراع بين فيليب والبـابوية، الذي نشط دوبوا خـلاله، وكـان له دوره فيـه، هو وإن كـان متـواضعـاً، ينبغـي على هذا النظر إليـه بمثـابة جـزء من صـورة أكبر، وحـوت هذه الصـورة، أكثـر من الصراع حـول السيـادة، لقـد شملت الروح المتـوثبة وغير القـانعـة بالأشيـاء حسبما بدت مؤشراتها في القـرن الرابع عشر، وعمل دوبوا بـاهتمامـاته المتنوعـة بمثـابـة واحـد من أكثـر المتحدثين فصاحة حول هذه التوثبات وعدم الرضا والقناعة، ومن أجل فهم مناسب لأفكاره ولأهميتهم من الضروري تقـديم عرض وإن كـان مختصراً عن الخلفية المباشرة للعصر الذي عاش فيه وكتب.

ولقد وصلت الاسمية الحسنة التنظيم للحياة في العصور الوسطى ذروتها في القرن الثالث عشر، وشهد هذا القرن فرض الواجهة المدرسية التي حققت كمالها الأعظم في عمل القديس توماس الأكويني، وشهدت شارة انتصار البابوية في الصراع الطويل والمتداخل ضد خصمها الرئيسي، أي الامبراطورية الرومانية المقدسة، وكانت الجامعات في الشمال والجنوب تقوم ببلورة تنظيماتها الإدارية في أشكال استمرت بلا علامات تغيير لمدة قرون، ووصل الأدب الفردي للفروسية والملحمة، والرومانسية، إلى ذروته، وكان هناك نمط من الأدب الأقرب إلى العامية، وفي الغالب اسطوري سفيه، قد بدأ يحقق ظهوره.

واحتوى القرن الثالث عشر هذا نفسه في داخله بذور حركات تولت في النهاية تدمير كثير مما بدا أنه قوي التأسيس، فالحماسة التقوية التي دفعت بآلاف للقيام بالرحلة المرهقة لإنقاذ الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين، بدأت بالزوال، ليحل محلها السعي وراء المطامح التي بدأت بالظهور منذ أيام الحملة الصليبية الأولى، والوصول أخيراً إلى شعور بالخيبة بسبب اخفاق الحروب الصليبية، وصحيح أن الناس تابعوا الحديث والتخطيط لصليبيات جديدة، وهذا هو الموضوع الأساسي في مذكرة دوبوا الرئيسيسة، التي جاءت بمثابة نداء لصليبية جديدة، واحتوت على اقتراحات تفصيلية لبرنامج اصلاحي جديد يمكنه أن يضمن نجاحها، صحيح هذا لكن صحيح أيضاً أن النداءات من البابوات ومن القادة العلمانيين قد وقعت على آذان صماء، ذلك أن أوروبا الغربية كانت مهتمة أكثر بمسائل مادية، فقد ربحت المدن الايطالية مرابح هائلة من الاتصالات التجارية مع الشرق الأدنى، وقد ضمن لها موقعها الجغرافي احتكاراً فعلياً لهذه التجارة المربحة، وهناك دليل على رفض احتكارهم هذا من قبل الذين توجب عليهم دفع ما اختاره الايطاليون وطلبوه ثمناً لبضائعهم، من تعليقات دوبوا على

جشع التجار (الفصل ٦٧)، فهل ياترى اهتم التجار الايطاليون بأمر أن الذين زودوهم بالبضائع كانوا كفاراً؟ لا، ذلك أنه حتى الكافر التركي كان من الممكن أن يبرهن أحياناً على أنه حليف مفيد.

وكانت الآفاق العقلية لأوربا الغربية آخذة بالاتساع، وسيكون من الخطأ أن نعزو سبب ذلك كله إلى الحروب الصليبية، أو أن نعزو إليها النصيب الأوفى في عملية التغييرات التي كانت قائمة، ولقد كانت الحروب الصليبية حقيقة هامة في تحريك الأوربيين الغربيين، ونقلهم من الواقع المقاطعاتي الضيق، وكانوا قد تعلموا الدرس الثمين في أن ما كل ما علموه كان صحيحاً، ومن الأدلة على ذلك ماقاله ستيفن أوف بلوا، الذي كان من قادة الحملة الصليبية الأولى، حيث كتب إلى زوجته وقال وهو يشعر بشيء من اليأس: «إن ماقاله بعضهم حول استحالة تحمل حرارة الشمس في أرجاء سورية غير صحيح، لأن الشتاء هناك مشابه جداً لشتائنا في الغرب».

وكان الأفق الجغرافي آخذ أيضاً بالاتساع، فمع نهاية القرن كان ماركو بولو قد عاد من الشرق الأقصى، بعد غياب هناك امتد حوالي العشرين سنة، عاد وقد حمل معه حكايات عن ثروات للتمتع بها، وعن مناظر رائعة تستحق أن تشاهد، ولم يكن ماركوبولو وحده هو الذي قام بمثل هذه الرحلة الطويلة والمرعبة، فقد قام عدد كبير من الأفراد، بعضهم كان مجهولاً، وبعضهم الآخر كان مشهوراً، بالارتحال مثل ماركوبولو، وعدد قليل منهم تركوا لنا روايات مدونة حول مغامراتهم، وكانت البابوية تحلم حول إقامة حلف مع الخان الكبير، الذي ينبغي عليه تدمير المسلمين، لأنه كان حاكما عملاقاً، وجرى إرسال المزيد من البعثات إلى الشرق لتعميق المشروع، وتمّ بالفعل تأسيس رئاسة أساقفة في بكين سنة ١٣٠٧.

وهناك أدلة واضحة حول وجود شغف ثقافي، فقد كتب روجر

بيكون بشيء من الازدراء عن كتابات علماء كبار، قدموا إلى الانسانية طرائق جديدة للمعرفة، التي ادعى أنه كان شخصيا المعلم فيها، وجعل المترجمون في اسبانيا وفي جنوبي إيطاليا المعارف الاسلامية متوفرة إلى العالم الغربي، وكان خصوم المعارف الجديدة، من أمثال سيغردي برابنت، يثيرون المناقشات الحية في قاعات المحاضرات في باريس، ومراكز التعليم الأخرى.

أما في مجال الادارة الحكومية، فقد شرعت حقائق جديدة بالظهور، ربما كانت أقل بداهة، لكن لها أهمية قصوى بالنسبة للآفاق السياسية، فقد دخلت الامبراطورية المقدسة في مرحلة كسوف بعد وفاة فردريك الثاني في سنة ١٢٥٠، ثم انتعشت فيما بعد في ظل أسرة هابسبورغ، لكنها ظلت قائمة على القواعد الاقطاعية القديمة، وكانت أهم التغييرات قائمة وآخذة بالحدوث في المملكتين الاقطاعيتين القديمتين، أي في انكلترا وفرنسا، وعوضاً عن أن يكون الملك في أي منهما مجرد «الأول بين قرناء»، بدأ الملوك فيهما في تأكيد الحقوق والامتيازات الملكية، وكان هذا يختلف تماماً عن السيادة القديمة المعترف بها على الأتباع، وبدأ في انكلترا نظام جديد يتعلق بالقانون العام، تولت ممارسته المحاكم الملكية، وكان هذا الذي بدأ في أيام حكم هنري الأول (١١٠٠ — ١١٣٥) قد أخذ شكله النهائي في ظل حكم هنري الثاني (١١٥٤ — ١١٨٩)، وقد تقلص هذا في ظل سلوك رتشارد قلب الأسد، ثم في ظل أخيه الضعيف الملك جون، وتوقف ذلك كله بشكل فعلي بسبب ثورات البارونات أيام هنري الثالث (١٢١٦ — ١٢٧٢)، غير أن هذا النظام جرى توسيعه واتمامه من قبل ادوارد الأول (١٢٧٢ — ١٣٠٧)، الذي يدعى أحيانا باسم جستنيان الانكليزي، ومع سنة ١٣٠٠ كان الملك والشعب يحكمان معا من قبل القانون، وقد أصبحت انكلترا أمة.

وفي فـرنسـا سعدت أسرة كـابيـه بشكل منفـرد، وذلك منذ وصـول هيـوكـابيـه إلى العـرش في سنة ٩٨٧ حتى وفـاة لويس العـاشر في سنة ١٣١٦، فما من ملك فـرنسي قد مـات دون أن يترك وريثاً ذكـرا مباشراً ليخلفـه، وخـلال الحقبة نفسهـا أخـذ كل اقطاع فـرنسي هام، يدخل في وقت أو آخر، في الاملاك الملكية، ومع وصول فيليب الرابع إلى العرش في سنة ١٢٨٥، كـانت المناطق التـي حـافظت على استقـلالها الاقطاعي هي: كونتيـه فلاندرز، ودوقيات: بريتاني، وبيرغندي، وأكـوتين، وكانت دوقية أكوتين مملوكة من قبل ادوارد الأول ملك انكلترا.

وترافق تأسيس السلطة المركـزية الملكيـة مع قيـام الطبقـة الوسطى، التي وجـدت بشكل عام أن مصـالحها تتـوفر أكثـر بوجود ملك واحـد قوي، بدلاً من وجـود مجموعة متداخلة من السـادة الاقطاعيين، ووجد الملوك بدورهم في الطبقة الوسطى حليفاً راغباً وثميناً لجهودهم في سبيل تأسيس سيطرة على النبـلاء الاقطاعيين، أما في فـرنسا فقـد توفر اسهـام ملحـوظ قامت به الطبقـة الوسطى في سبيل هذه الغـاية، وتم هذا على أيدي طبقـة جـديدة من المحـامين المحترفين الذين تدربوا على القـانون المدني الروماني، في احـدى مالايقل عن سـت جامعات، وبدأ ظهـورهم كطبقة مع إعـادة التنظيمات القانونية التي تـولاها لويس التاسع، وازداد رواج القـانون الرومــاني، الذي دعمت أسســه بقـوة المطـالب الملكيـة، وانتشر إلى الشمال من بولونا Bologna ومن الجامعـات الايطـاليــة الأخـرى، وقـام بشكل تدريجي— لكـن لامفـر منه— بتــدمير النظام القضائي الاقطاعي القديم، وقدم الاختصاص الجديد فرصاً لمهن حياتية مــربحـة، وكـان من الممكن لمحــام قـدير، أن يـأمل حتى— كما فعل دوبوا— في أن يـدخل إلى الوسط المغــري لمستشــاري فيليب الـرابع المقربين، الذي كـان من بين أعضائه قانونيين لامعين من أمثـال ماريني، وبلازيان Plasian، ووليم أوف نوغاريت.

وكـان فردريك بربروسـا قـد استخدم علماء من مـدرسة الحقـوق في بولونا من أجل التوسع بسياسته الايطاليـة، وقدمت مدارس الحقوق في أورلين وفي أماكن أخـرى أدوات مماثلة إلى لويس التاسـع، الذي أضاف إلى إدارتي الوكيـل والنائب القـــديمتين ادارة جـــديدة هـي الـ en-quetuers، وقد حل هؤلاء محل الرهبان المتسولين كأداة للاشراف على الوكـــالتين القـديمتين، وكـــان هؤلاء الموظفين الجدد علمانيين من أصل برجوازي، أصبحـوا ليس قضاتاً فقط بل رجال دولة أيضاً، وسـاعدتهم معـرفتهم الدقيقـة بالقـانون المدني على تلفيق الأسلحـة للدولة الوطنيـة الصـاعدة، وقـد أصبحوا بشكل فعلي أيـام فيليب الرابع نبلاء للقـانون، وقد أشير إليهم بمثابة militites legum أو Militesregis، وكان هذا نوعـاً من نبالة الثـوب، وبحكم كونهم خـدماً مخلصين وأقويـاء للملكية عـارضوا حكم الدولة من قبـل كل من النبلاء الاقطاعيين أو الكنيسـة، ووقف ضـــدهم وتحزب رجـــال الشريعـــة الكنسيـــة، مع مفهـــومهم وتصورهم لدولة دينية ينبغي أن تكون ذات سلطة عليا.

وأسهمت الطبقـة الـوسطى بدور هام في المســائـل العسكرية، لأن الجيـوش الاقطاعية لم تعـد كافيـة لتلبية الحاجـات المتزايدة للملكيـات الوطنيـة، والتي كـانت منذ زمن طويل تتـزود بالدعم من قبل جيـوش مـرتزقة تشكلت بشكل رئيسي من غيرالنبـلاء، ومع أن جيوش المرتزقـة هذه دفع لها بشكل سيء، لكن تـوجب على كل حـال اطعـامهـا، وألقى الاستخدام المتـزايد لوحـدات مدفوع لها ثقـلاً عظيماً على كاهل خـزائن المال المختنقـــة لتلك الأيام، ولكي يـواجــه الملوك الطلب المتـــزايد على السيـــولـة النقـــدية لجأوا إلى زيـادة الضرائب، وجميع الأشكال الماليـــة المواثمـة، الأمر الذي قـادهم أحيـانا إلى صراعات مع الطبقـة الوسطى، المتكلة لثـروة قد فـرضت عليهـا الضرائب، وأحيانا مع الكنيسـة التي كانت أغنى مؤسسات العصور الوسطى.

ومع وجـود ملك أجنبي مثل ادوار الأول مسيطر على أكوتين بمثـابة تابع للملك الفرنسي، كـان لابد لسياسة التـوسع لفليب الرابع من إثارة صراع معـه، وفي سنـة ١٢٩٤ تفجـر الخلاف بالمصـالح هذا وتطور إلى حـرب مفتوحـة، وبحث كل فـريق عن حلفـاء، وعرض فيليب تقـديم العـون على سكوتلندا، وبذلك أرسـى أسـاس الروابـط بين سكوتلندا وفـرنسـا التي استمـرت حتى أيام مـاري ملكة السكوتلنديين في القـرن السـادس عشر، وبرهن أدولف أوف نـاسـو، حليـف ادوارد، أنه قليل النفع، وأعظم أهميـة منه كـان كونت فـلاندرز، الذي رأى في التحـالف الانكليزي فـرصة لصـد هجوم فـرنسي ممكن، واستمـرت الحرب لعدة سنوات، ومالبثت أن أنهكت المصـادر المالية للفـريقين المتصارعين، ولجأ الفـريقان وهما في حـالة يأس إلى فـرض الضرائب على رجـال الدين في ممالكهم المحترمـة، وجـرتهما هذه السياسـة الى صراع مع البـابا بونيفيس الثامن.

الخلاف مع بونيفيس الثامن

شعـر بونيفيس الثـامن عندمـا أصبح بابا، بعـد استقـالة سيليستين الخامس بأنه مـدعـو إلى إعـادة البـابوية إلى سـالف قـوتها ومجدها الذي تمتعت به في ظل حكم إنوسنت الثـالث، عندما عبر كل رأس متـوج في الغـرب المسيحي عن خضوعـه إلى ذلك البـابا القوي، وكـان بونيفيس، وهو مـا يزال كاردينالا، قـد اصطدم وتخاصم مع اثنين من الكرادلة من أسره كولونا Colonna ، وهما جيمس وبيتر، وكانا قـد أنكرا صحة انتخابه، وبناء عليـه جردا من منصبيهما وحـرما كنسيـا، وكان بونيفيس، مثله مثل أسلافه، يأمل بقيام حملة صليبية يتولاها العالم المسيحي المتحد، وعمل في سنة ١٢٩٥ في سبيـل إنهاء الحرب فيما بين اداورد وفيليب عن طريق إعلان هدنة، الأمـر الذي تجاهله الفريقـان، ولهذا أصدر بونيفيس مـرسـوم Clericis Laicos (شبـاط ١٢٩٦) حـرم فيـه على العلمانيين

فرض الضرائب على رجال الدين.

ومن حيث الواقع النظري كان الافرادمن اللاهوتيين مع ممتلكاتهم معفيين من المحاكمات العلمانية، ومن الضرائب، وفي الحقيقة سمح البابا في عدد كبير من المناسبات للسلطات العلمانية بفرض ضرائب على رجال الدين في أيام الطوارىء، وقيام التاج بجبايتها، وكانت هذه المبالغ بعيدة عن مقاصدهم الأصيلة، ولقد قام كل من ادوارد وفيليب بفرض ضرائب ثقيلة على رجال الدين المحليين دون الحصول على إذن بابوي، وقد وجد المحامون البارعون مع وزراء المال طرقاً لتمويه هذه الضرائب من أجل تجنب الصدام مع حرفية القانون.

وعدّ بونيفيس — الذي كان جيد المعرفة بشرعية القوانين — هذه الضرائب غير عادلة، وأنها تتولى سلب الكنيسة، وقرر إيقاف هذه الممارسة، ولم يحرم المرسوم جميع الضرائب من هذا النوع، لكنه وضع شرطاً أساسياً هو الحصول المسبق على الموافقة البابوية، وجرى تحريم فرض الضرائب غير الموافق عليها من قبل البابا، على رجال الدين، وأرفق ذلك بتهديد الحرمان الكنسي وبفرضه على كل من الدافع والجابي، وجرى بشكل محدد وواضح منع جميع الأساقفة ورجال الدين من دفع مثل هذا النوع من الضرائب، مهما كان اللون الذي تموهت به.

وكانت النتيجة واضحة، هل كانت الدولة الوطنية ذات سيادة؟ وهل يمكن للبابوية المنتصرة في صراعها مع الامبراطورية تحقيق نصر مماثل على الدولة الوطنية الناهضة؟ وكان الخيار أمام ادوارد وفيليب إما الانحناء لإرادة البابا بونيفيس العجوز المتصلب، أو الرفض ومواجهة قوة يمكنها الافتخار بتحقيقها سلسلة لا يمكن مقارنتها من الانتصارات في صراعات مماثلة، وكانت النتيجة من حيث المبدأ محصلة قديمة، لكن خصم البابوية لم يكن هذه المرة الامبراطورية الاقطاعية الضعيفة، بل كانت الدولة الوطنية الصاعدة، المدركة تماماً لشخصيتها،

ويقودها ملك كان يعمل في سبيل الوصول إلى مقاصد عليا، وله مستشارين بارعين، ورجال فيهم مضاء، لايمكنهم التردد في الوصول إلى غاياتهم، وعمل فيليب الرابع على حشد الرأي العام لتأييده، من خلال وساطة مجالس الأعيان العامة، والمجالس الأدنى مرتبة، ودعمت هذه الجهود بمناشير تطوعية كتبت في الغالب من قبل مجهولين، لابد أن دوبوا كان من بين أبرز الممثلين.

ورد إدوارد بسرعة، فعندما عرض رئيس أساقفة كانتبري مرسوم Clericis Laicos وطالب بتطبيقه، وأقنع رجال الدين برفض الضرائب المفروضة، أمر ادوارد مسؤول العدالة لديه بأن يرفع بشكل رسمي حماية القانون المدني عن رجال الدين، وتجاهل الملك تهديد رئيس الأساقفة له بالحرمان الكنسي، ولم يكتف بذلك، بل طلب من المخاترة لديه الاستيلاء على بعض الممتلكات الكنسية العائدة لرئيس أساقفة كانتربري، وعندما تشكى رجال الدين إلى المحاكم، جرى إخبارهم أنه بناء على الأمر الذي صدر عن المسؤول الأعلى عن العدالة، ليس لهم مكان في المحكمة ولايمكن الاستماع إليهم، وانحنى رجال الدين ورضخوا — مع استثناءات — إلى ما لابدّ منه، وربح ادوارد الجولة الأولى.

وكانت ردات فعل فيليب أيضاً فورية وقوية، فقد أمر المحامين لديه بوضع مشروع أمرين، يمنع أولهما جميع الأجانب من دخول فرنسا، وبذلك منع أي مندوبين من قبل بونيفيس، قد يرسلهم لفرض مرسومه، وحظر الثاني تصدير أي ذهب أو فضة أو خيول، أو مؤن، أو ذخائر حربية من دون الحصول على إذن حربي مكتوب، واستهدف الحظر على الأعتدة والمؤن إنكلترا، وسدد منع تصدير المعادن الثقيلة ضربة شديدة إلى الموارد المالية للبابوية، التي كانت فرنسا مصدراً هاماً لها.

وواجه بونيفيس حزب كولـونا القوي في روما، ووجدت انكلترا غير الصديقة في الخارج، أنه عملاً سياسيـاً غير مفيد القيام بتشجيع معارضة ملك فرنسا الحازمة، هذا الملك الذي كان مدعوماً من قبل عدد كبير من رجال الدين الفرنسيين، وبعد مراسـلات حادة مخفقة مع فيليب، أصدر البـابا مـرسـوم Inefabilis amor (٢٥— ايلول ١٢٩٦) اعترف فيـه بمشاعـر الصداقـة العظيمة نحـو فرنسـا، وأعلن أنه ليس لديه اعتراض على فـرض الضرائب على رجال الدين أثناء الطوارىء الوطنيـة، وذلك إذا مـا تم الحصـول على موافقتـه أولاً، وأعقب هذا تنازل آخـر ورد في مـرسـوم Romana mater (٧ شبـاط ١٢٩٧) الذي أبطل مـرسـوم Clericis laicos بالسماح بتقديم هبات تطوعيـة من قبل رجال الدين إلى الملك قبل الحصـول على الموافقـة البـابوية، وجـاء التنازل الأخير في مرسـوم Etsi de statu (٣١ تموز ١٢٩٧) الذي أعطى فيليب الحق في تقرير وجـود طوارىء وطنية تسوغ فـرض ضرائب على رجال الدين دون الحصـول على مـوافقة سلفيـة من البـابا، وجـاءت خطوة مصـالحة أخـرى بتطويـب الملك لويس التـاسع، جـد فيليب الرابع (١١— آب ١٢٩٧).

وبهذه التنازلات أصبح فيليب أكثر انفتاحـاً نحو الجهود التي تولاها بونيفيس للتـوسط في الحرب مع ادوارد، وحرص المتصـارعان على عـد الوسيط الحكم بينهما، أنه شخص بلا منصب وأنه هـو بينيديتـو كايتـاني Benedetto caetani وليس البـابا بونيفيس الثامن، ووضعـا أخيراً حداً للحرب بينهما وأنهياها في سنة ١٢٩٩.

وكـان كل شيء على السطح نقياً، لكن كـانت هناك عـاصفة هوجـاء تختمر وتتشكل، ذلك أن المشكلة الأساسية المتعلقة بالسيادة، وهي نقطة الخلاف الأولى بين فيليب وبونيفيس كـانـت مـاتزال معلقـة دونما حل، ولقد رحب فيليب بالكاردينالين كولـونا، اللذين نفاهما بونيفيس، ولقد

توليا نشر مختلف حكايات القذف والنيل من البابا، واحتجا ضد قانونية انتخابه، وطالبا بعنف بعقد مجمع كنسي للحكم عليه، وانتقم في الوقت نفسه فيليب لنفسه من كونت فلاندرز، بتأمين اعتقاله شخصياً عن طريق الخيانة، وبناء عليه أعلن أن الاقطاع يخص العرش (١٣٠٠)، وقام بعد ذلك بزيارة المنطقة المتملكة حديثاً للمرة الأولى، وازداد نهمه وارتفع شرهه لدى رؤية الثروات والأبهة التي عرضها البرجوازيون الفلمنك الأثرياء مع زوجاتهم، وقد وجد هناك مصدراً غير مستغل حتى الآن لتأمين الموارد للخزينة الملكية.

ومهما كانت الشكوك التي ساورت نفس بونيفيس بشأن قدرته على التعامل مع الملكين الحرونين، فقد استطاع ضبط الأمور والحصول على التهدئة. من خلال النجاح الكبير الذي تحقق في الاحتفالات الدينية التي تمت في سنة ١٣٠٠، وأعطى تدفق آلاف الحجاج على المدينة الخالدة لنيل المباركة البابوية، بونيفيس الانطباع بأنه يتمتع بالتأييد الجماعي للعالم الكاثوليكي، وكان لكميات الهبات الهائلة التي انصبت فوق المذابح الرومانية، الفضل بدعم الخزينة البابوية، وهكذا بات، إذا كان المتوجب وضع حد لقوى الملوك الوطنيين، فالآن حل الوقت الموائم.

ويبدو أن فيليب قد اعتمد على التعديلات المتنوعة لمرسوم Clericis Laicos، وبذلك تشجع ومن ثم لم تتوفر لديه نية في ايقاف سياسة بفرض الضرائب على رجال الدين، وعندما تشكى رجال الدين الفرنسيون إلى روما، قرر بونيفيس العمل، لكنه آثر أن يرسل في البداية رسالة انذار إلى الملك، وقد وقع اختياره على أن يكون حامل الرسالة غير المرحب بها، شخصية كانت هي الأسوأ سمعة، لقد اختار برنارد ساسيت Saisset ، أسقف بامير Pamiers ، وكان عدواً لدوداً لفيليب، وجرى في سنة ١٣٠١ اعتقال برنارد، وألقي به في السجن

بتهمة الخيانة.

وكان هذا بالنسبة لبونيفيس إهانة لايمكن التغاضي عنها، وقد أصدر في الرابع والخامس من كانون الأول ثلاثة مراسيم، وكان المرسوم الأول هو Salvatos mundi، وقد ألغى فيه التعديلات التي تناولت مرسوم Clericislaicor، وكان المرسوم الثاني وهو الأهم هو مرسوم Ausculta Fili ، وفيه تم التأكيد فيه بعبارات واضحة على أن سيادة البابا هي سيادة عالمية على جميع الملوك والممالك، وأطلق عبارة هرطقي على كل واحد يغامر بالرفض، وأضاف ثبتاً عدد فيه كثيراً من الاعتداءات التي اقترفها فيليب ضد الكنيسة، واستدعى المرسوم الثالث الأساقفة الفرنسيين إلى الاجتماع والتشاور في روما، لإيجاد الوسائل لاصلاح كل من ملك ومملكة فرنسا ووجهت الدعوة إلى فيليب للحضور.

وقابل فيليب هذا التحدي بمنع رجال الدين الفرنسيين من الذهاب إلى روما، وذلك عن طريق تحديد الحظر على توجيه الأموال إلى روما، ولكي يتصدى لمؤثرات اقتراح عقد المجمع الكنسي في روما، توجه نحو ارضاء العواطف الفرنسية بدعوة مجلس الاعيان العام إلى الاجتماع، وجرى توزيع مناشير هوجم فيها بونيفيس بين النواب، واستمع هؤلاء إلى خطب رنانة ألقاها عملاء فيليب، ويبدو أن جهوداً واعية قد بذلت لتجاوز مرسوم Deum Time المزيف، والقول بأنه أصيل، فقد تولى بيير فلوت Flotte ، الذي كان واحداً من كبار مستشاري فيليب، قراءة الوثيقة المزيفة إلى مجلس الأعيان.

وكانت محصلات مؤثرات هذه الجهود لصالح فيليب إلى أبعد الحدود، فقد تبنى النبلاء وأعيان الدرجة الثالثة قرارات حماسية أيدوا فيها القضية الملكية، ووجه رجال الدين رسالة إلى بونيفيس، لصالح فيليب، يرجون فيها البابا أن يقوم، في سبيل الصالح العام والوئام،

بسحب الدعوة للمؤتمر في روما، ثم كان أن نزلت مصيبة بفيليب من جهة غير متوقعة، فقد وصلت المكوس المالية التي فرضها على البورجوازية الفلمنكية إلى حد ما عاد من الممكن تحمله، ولذلك قام الفلمنكيون في صيف عام ١٣٠٢ بالثورة، ولكي يسحق هذه الثورة بعث فيليب بقوة مرعبة من الفرسان الاقطاعيين، ورفض رجال المدينة الشجعان الانهزام لدى اقتراب الفرسان، وسحبوا صف قتالهم الموجود عند كورتراي Courtrai إلى ما وراء المستنقع، وفي ١١ تموز حمل الفرسان وفقاً لعاداتهم على صف أهل المدينة،وغرقت خيولهم وغاصت في المستنقع، واضطر الفرسان إلى الترجل، وبهذا تمكن رجال المدينة بكل [illegible]اة من تمز[illegible] أعدائهم الغائصين بالوحل.

وك[illegible] هذه الهزيمة الماحقة، وهي أولى الهزائم التي تلقاها فيليب، بالفعل انتكاسة خطيرة، واحتاج فيليب إلى وقت طويل لتعويض الجيش المباد في كورتراي، وكان بيير فلوت،الذي كان أفضل مستشارية وأعظمهم قدرة بين القتلى، وبات هكذا السلم الصعب المعقود مع ادوارد الأول من الممكن خرقه في أي لحظة، وألقى بونيفيس قفاز التحدي، وبات جاهزاً للعمل في كل اتجاه لنيل المنافع.

واجتمع المجمع الكنسي الذي دعا بونيفيس إليه في ٣٠— تشرين أول لعام ١٣٠٢، وعلى الرغم من الحظر الذي فرضه فيليب، كان عدد كبير وهام من الأساقفة الفرنسيين بين الحضور، وصادق المجمع على اصدار مرسومين، أمر أولهما باصدار الحرمان الكنسي بحق كل واحد يقوم بالتدخل مع الأشخاص الذاهبين إلى روما أو الآيبين منها، وكان المرسوم الآخر هو مرسوم unam Sanctam الشهير وتاريخه ١٨— تشرين الثاني ١٣٠٢،وهو الذي أرسى حق الادعاء البابوي بالسلطة الروحية والدنيوية، بعبارات واضحة تمام الوضوح، ولم يحدث من قبل قط مثلما حدث الآن في عرض الموقف البابوي بمثل هذا الوضوح

اللغوي، «ولهذا فإن كل من السيفين الروحي والدنيوي، هما تحت سلطة الكنيسة وفي يدها..... زيادة على هذا، من الضروري أن يكون أحد السيفين تحت السيف الآخر، وأن تكون السلطة الدنيوية تحت السلطة الروحية.... ولهذا نحن نعلن، ونقول، ونؤكد على أن الخضوع من قبل كل انسان إلى أسقف روما هو كله ضروري من أجل خلاصه»، وفي نيسان ١٣٠٣، أخبر بونيفيس فيليب بأنه قد حرم كنسياً لمنعه رجال الدين الفرنسيين من حضور المجمع.

وعند الوصول إلى هذه الحالة جرى ابداع استراتيجية في البلاط الفرنسي، وهذه الاستراتيجية تشير إلى أن الملكية قررت أن لاتترك حجراً إلاّ وتقلبه في جهودها لإلغاء تأثير المراسيم البابوية، ولاندري في عقل من جرى تصميم الخطة، ولعل ذلك كان في عقل فيليب نفسه، لابل من المرجح أكثر في عقل وليم أوف نوغاريت، وقضت الخطة الأصيلة باعتقال بونيفيس، وأن يقوم النائب البابوي بالدعوة إلى عقد مجمع يتولى محاكمة السجين، وبما أن المتآمرين كانوا واعين تماماً ومدركين لأهمية تأييد الطبقات الثلاث في فرنسا، جرى تعديل الخطة، إلى واحدة يرغم فيها بونيفيس نفسه على الدعوة إلى عقد مجمع، وهذه سابقة كان من الممكن أن تنال تأييد رجال الدين الفرنسيين، وكذلك الطبقات العلمانية، لأنه كان من الممكن أن يتردد رجال الدين في الاعتراف بمجمع يدعو إليه انسان آخر لايحمل اللقب البابوي، وبدأ العمل بالمؤامرة في آذار ١٣٠٣، وللحيلولة دون أي تدخل منْ قبل ادوارد الأول، جرى إبرام معاهدة معه في ٢٠ — أيار أعاد إليه بموجبها فيليب أكوتين، وكانت الخطوة الثانية هي تحضير الرأي العام، ودشن هذا في اجتماع باريس لمجلس مستشاري الدولة في ١٢ أيار، ففيه أقلع نوغاريت بهجوم حاد على بونيفيس، وقد تبنى الحجة التي أعلنها المنفيان من أسرة كولونا، في أن بونيفيس، لم يكن بابا حقيقياً، لأن لقبه

يعتمد على قانونية استقـالة سيليستين الخامس، وكانت النظرية تقول بأن أصوات الكرادلة أثناء الانتخابات البابـوية تمليها بالعادة الروح القدس، وعلى هذا كـان من معـاني استقـالة البابا القـول بأن الروح القـدس قـد أخطأت، وهذا وضع لاهوتي لايمكن تقبله.

وتم التوسع بالاتجاه نحو الرأي العام خلال اجتماع عقد في اللوفر في ١٣ـــ حـزيران ١٣٠٣، وجـرى أمـام هذا الاجتماع الموسع والجمهـور العريض تجديد الهجوم على بونيفيس، وقد قـرأ بلازيان لائحة فيها تسعاً وعشرين تهمـة مـؤكدة ضـد البـابا، وأعلن فيليب عن قناعتـه شخصيـا بضرورة عقـد مجمـع عـام، وتبنى رجـال الدين قـراراً أعلنوا فيـه عن تأييدهم للعرش ضد جميع الخصوم، وأيدوا أيضاً مطلب عقد المجمع.

ولم يكن بونيفيس خصماً جبـاناً على الرغم من تقـدمه بالسن، وجـاء رده في عقد مجلس في أناني Anagni في آب، أصر فيه بشكل مهيب على براءته من التهم التسع والعشرين التي أثيرت ضـده بشكل عدواني، من قبل الفرنسيين، وهنـاك جرى الاعلان أنه يمكن فقط للبـابا الشرعي أن يدعـو إلى عقد مجمـع عام، وتمّ توجيـه الانذار إلى فيليب أنه مـا لم يتب ويقلع عن أعمال عصيانه، سوف يتحمل أقسى عقوبة من الكنيسة.

ووصل بالوقت نفسـه نوغـاريت، مسلحـاً برسـالة اعتماد من فيليب ومـزوداً بمبـالـغ ضخمـة، إلى إيطاليـا، حيث شكل تجمعـاً مع حـزب كـولونا، وفي ٧ـــ إيلول ١٣٠٣، دخل المتـآمـرون إلى أناني، بمسـاعـدة أعضـاء من الحرس البـابوي تمت رشوتهم، وشقـوا طريقهم إلى حجـرة النوم البـابوية، ورفض البـابا المسن التنازل وقبـول مطالبهم، وأصر على موقفه، وفي اليوم الثالث جرى طرد المتآمرين من قبل سكان المدينة.

وصحيح أن حيـاة البـابا حفظت، لقـد برهنت صـدمـه الهجـوم أنها كبيرة جداً بالنسبـة إلى هذا البابا العجوز، ولقـد وجد هذا الرجل الذي

خيل إليه قبل ثلاث سنوات أن العالم راكع عند قدميه، نفسه مطوقاً من قبل الأعداء، فقد تدمرت معنوياته، وفقد أعصابه والقدرة على التحمل، وهنا التمس المساعـدة من أسرة الكاردينال أورسيني Orsini في روما، وهكذا جرت مرافقته إلى هناك، ولقـد كان متعطشاً للانتقام من فيليب، وسببت جهوده في سبيل الحصول على حلفـاء لتحقيق هذه الغاية معاداة أسرة الأورسيني، فـاحتفظ هؤلاء بـه سجينا بشكل فعلي في الفـاتيكان، وهناك في الفاتيكان لفظ أنفاسه الأخيرة في ١٢ تشرين أول ١٣٠٣.

وترك مـوت بـونيفيس البـابوية في وضع حـــرج، فهل سيكون هناك خـــلاف طويل في الاجتماع السري للكرادلة، وهل سيعطـي هذا فيليب الفرصة لتقوية أوضاعه من دون تدخل؟ وهل سينتخب الكرادلة رجلاً سـوف يتابع الأخـذ بالسيـاسة المتصلبـة لبـونيفيس التي تبرهن على أنها مأسـاوية جـداً، أم أنهم سـوف يختـــارون واحـداً سـوف يتبع سيـاسـة المصـالحة، ويتـولى التسـوية مع فيليب؟ وعمل مجلس الكرادلة بسرعـة، واختـاروا في ٢٢— تشرين الأول الرجل صـاحب، الأخـلاق اللطيفـة، والذي كـان القـائد العـام لطائفـة الدومنيكان، وكـان البـابا الجديد هو الحادي عشر الذي اتخذ لنفســـه لقـب بندكت، ولعله رغـب من وراء ذلك أن يقدم إيماءة بأنه يخطط لاتباع سياسة مصالحة.

وتركت المحاولة المخفقة لاعتقال بونيفيس نوغاريت في وضع خطير، فقـد صـدر بحقه حـرمـان كنسي فـرضته الـواقعة بسبب محاربتـه البـابا شخصيـا، ولم يكن وضع فيليب بالأحسـن، فهـو كـان مـايزال محرومـاً كنسياً، كما مابرحت مراسيم بونيفيس المتعددة ضده قائمة وقوية، ولكي يمارس الفـرنسيـون الضغط على بندكت الحادي عشر، تبنوا استراتيجيـة تجديد التهم ضد بونيفيس، وهـي التهم التي رفعت في حزيران المنصرم، وأصروا على أن حـادثة أناني قـد نتجت عـن تصلب بونيفيس ورفضـه المستمر للمطلب القـانوني لعقد المجمع، وبات الحال إذا مـا أمكن اقناع

بندكت بالقيـام بالدعـوة إلى مجمع، فـلابد من الاستماع للقضـايا والتهم المرفوعـة ضد بونيفيس، وإذا ما تمكن الفرنسيـون من البرهنة على صحة التهم التيْ رفعـوها، فهـذا كـان سيعني تبرئـة كـاملـة لكل من فيليب ونوغاريت، الذي سوف يكون في وضع انسان مسيحي جيد، قد حاول تحريك آلية الكنيسة ضـد مغتصب شرير، وكان من معاني إدانة بونيفيس إلغاء جميع قـراراته ومراسيمه، وكـون بونيفيس كان قـد توفي ودفن، ما كـان له ليغير المسـألة القـانونيـة ذات الشـأن، وهكذا بدأت الحملة على ذكرى بونييفيس.

وكـانت خطوة فيليب الأولى ضرورية لتـدبير مصـالحة مع البـابا الجديد، بندكـت الحادي عشر، ومن أجل هذا الهدف عين فيليـب بعثـة مـؤلفة من أربعـة أشخـاص، كـان نوغاريت فيهـا، هو العضـو الرابع، وأعطى إلى أعضـاء هذه البعثـة لائحتين من التعليمات، وكـانت أول التعليمات التي أعطيت إلى الأعضـاء جميعاً باستثناء نوغـاريت هي أن «يتلقوا» ولا «يطلبـوا» التحليل للملك من كل حرمان كنسي قـد فرض عليه في الماضي لأي سبب كـان، وكانت هذه مسألـة بسيطة لاتحتاج إلى عقل نوغاريت البارع، وخولهم التباحث بشأن جميع القضايا القائمة فيما بين فيليب وبونيفيس، ذلك أن مهمـة نوغاريت الماكـرة كانت الحاجـة مـاسة إليهـا، بعـد وفـاة بيير فلوت، الذي كان أكثر مستشـاري فيليب موثوقية.

واستجـاب بندكت بسرعـة للمطلب الأول، ففي ٢٥— آذار ١٣٠٤ جرى تحليل الملك وأسرته بشكل رسمي من كل حرمـان موجود، وكان الآن بندكت حـراً للتبـاحث مع فيليب دون مضـايقـة لنفسـه واحـراج بالتعامل مع شخـص محروم كنسياً، وعندما ظهـر نوغاريت أمـام البابا، رفض بندكت الاعتراف به، بما أنه كـان تحت الحرمـان، وقام نوغـاريت بالطلب من خلال زملائه منحه «تحليل مشروط»، وجدد طلبه من أجل

عقد مجمع للحكم على بونيفيس، ولكي يتجنب بندكت المضايقة بالقيام بالحكم على سلفه، قدم تنازلات اضافية، فقد ألغى في سلسلة من المراسيم أصدرها في ١٨— نيسان، و١٣— أيار، مراسيم بونيفيس ضد الجامعات الفرنسية والكنائس، ومحا جميع المراسيم القائمة ضد حقوق الملك الفرنسي، وحلل الأساقفة الفرنسيين، الذين أطاعوا أوامر فيليب بعدم حضور المجمع الروماني لعام ١٣٠٢، وعلن الحرمان الذي أعلنه بونيفيس ضد ليون وبامير، وبالاضافة إلى ذلك منح فيليب العشر لمدة عامين، مع حق التعيين في الوظائف الكنسية التي ستشغر في السنوات الثلاث المقبلة.

وبعدما تنازل بندكت لفيليب واستجاب لكل مطالبه، قرر أن يجعل مثلاً من الذين شاركوا شخصياً في عملية الاقتحام في أناني، فقد أصدر في ٧ حزيران ١٣٠٤ مرسوم Flagitiosum scelus ، الذي أدانهم فيه بجميع العبارات القاسية جداً، ووضعهم تحت الحرمان، وجرى استدعاء المجرمين للظهور أمامه، لسماع الحكم بحقهم.

ما الذي كان لفيليب أن يفعله؟ فقد كان نصره الشخصي تقريباً كاملاً، وكان نوغاريت الوكيل الملكي الهام، الوحيد الذي ترك خارج التسوية، فهل سيفسد الملك التسوية التي صنعها مع البابوية باستمراره في دعم نوغاريت، أم أنه سيرميه إلى الذئاب؟ وعمل فيليب بسرعة قصوى وبشكل حاسم، فقد جرى الاحتفاظ بنوغاريت في الخدمة، ومنح جائزة مالية كبيرة «من أجل خدماته المخلصة في قضايا ذات أهمية قصوى للعرش وللدولة»، وقبل أن يتمكن بندكت من اتخاذ المزيد من الخطوات الاجرائية ضد نوغاريت والمتورطين معه، توفي في ٢٧ تموز ١٣٠٤، كما يقال لأكله كميات كبيرة من التين الناضج.

وكان من الممكن تأمين المزيد من المنافع بانتخاب بابا مطواع للارادة الفرنسية الملكية، وكان هذا في ذهن فيليب، فقام بممارسة الضغط على

الكرادلة الفرنسيين، وقام الاثنان من أسرة كولونا بممارسة بعض التأثير على زملائهما المتقدمين، وذلك على الرغم من عدم اعادتهما بعد إلى مجلس الكرادلة، وكان المؤيدون لتوجيهات بونيفيس الثامن كثر إلى حد قدرتهم على منع الاختيار الفرنسي، لكنهم لم يكونوا قادرين فيما بينهم على الاتفاق حول مرشح، ومضى شهر تلو شهر بدون أمل في الوصول إلى اتفاق، وأبدع أخيراً الكاردينال نابليون أورسيني خطة، اتفق بموجبها عشرة من الكرادلة على اختيار واحد من ثلاثة مرشحين يتولى تسميته، والذي جرت تسميته من بين هؤلاء كان برتراند دي غوت Got، رئيس أساقفة بوردو، وكان على هذا من الرعايا الانكليز، وكان يدين بترفيعه إلى بونيفيس الثامن، وكان قد تخاصم مع أخي فيليب، شارل أوف فاليوس Valois، وقد حضر المجمع الروماني لعام ١٣٠٢، على الرغم من رغبات الملك.

ثم ما الذي تبع هذا ليس واضحاً تمام الوضوح، وقد جاءت من عند فيلاني Villani حكاية ذكرت أن واحداً من عملاء فيليب أسرع متوجهاً نحو الشمال حاملاً الأخبار، وأن فيليب قد عقد اجتماعاً سرياً مع برتراند وعده فيه بالبابوية مقابل بعض التعهدات المحددة، وبعض الخدمات الأخرى سيكشف عنها فيما بعد، هذا وهناك حاجة إلى بينات مقنعة لحكاية فيلاني هذه، وفي الحقيقة هناك بعض الأدلة التي تقول العكس، إنما مما لاشك فيه أن برتراند يدين بانتخابه إلى نفوذ الملك، وكان فيليب رجلاً صلباً، وكان من غير الممكن له شخصياً أن يقدم مثل هذا التأييد، من دون نوع من التفاهم معه، ومهما كانت حقائق الأمور، لقد جرى اختيار برتراند بابا في ٥— حزيران ١٣٠٥، وقد اتخذ لنفسه اسم كليمنت الخامس،، وعلى الرغم من هلع الكرادلة الطليان الكامل، دعا مجلس الكرادلة إلى الاجتماع في ليون من أجل تتويجه (١٤— تشرين الثاني ١٣٠٥) واتخذ أخيراً سكناً له في أفينون في عام

١٣٠٩، وهكذا بدأ السبي البابلي.

قضية الداوية

عندما وصلت مشكلة بونيفيس إلى هذه المحطة، تمازجت مع الهجوم على طائفة الداوية، وكانت علاقات فيليب بالداوية علاقات حميمة حتى سنة ١٣٠٥، وكان مقرهم الحصين في باريس قد اتخذ مستودعاً للموارد الملكية المالية حتى بعد تأسيس الخزانة الملكية في اللوفر، وجرت العادة لدى مواجهة الملك الفرنسي لمشاكل مالية ومصاعب (وكانت هذه هي الحالة الطبيعية للملكية الفرنسية) اقراضه المال، وقد أيد الداوية الملك فيليب ودعموه في صراعه مع بونيفيس الثامن سنة ١٣٠٢م، لابل إنه عندما سادت الفوضى العامة، اتخذ لنفسه ملاذاً في احدى قلاع الداوية.

لكن لماذا انقلب فجأة ضدهم، هذا أمر ليس من السهل تأكيده، ومن الصعب أن نصدق أن انسانا امتلك سمات فيليب وعبقريته وفطنته كان من الممكن أن يصدق الحكايات التي أشيعت حول الداوية، فيما يتعلق بانحطاطهم الخلقي، لابل فيما يتعلق باتهامهم بالهرطقة، ومهما يكن الأمر، لقد أمسك الملك بلهفة بمثل هذه الاشاعات، واتخذها ذريعة من أجل تدميرهم، ويتوصل الانسان إلى نتيجة أنه عندما انتشرت هذه الاشاعات المشوهة للسمعة والتآمرية، ووصلت إلى الانتباه المباشر، إما انتباه فيليب أو انتباه واحد من العقول اليقظة بين مستشاريه، رأى الفرصة المناسبة لربح التاج مالياً بمهاجمة هذه الطائفة الشاذة القابلة للمهاجمة، وفي الوقت نفسه إزالة عقبة كبيرة في وجه السلطة الملكية المطلقة، ولم يكن من الممكن من حيث المنطلقات للقيام بمثل هذا الهجوم تقديم سبب قانوني عادي من التاج، فذلك لم يكن له من وزن، وكان ذلك ممكنا فقط كاثوليكيا عن طريق البابا، فهنا كان من الممكن لفيليب أن يأمل بشيء من النجاح لحملته ضد مؤسسة بدت بالمعايير المعاصرة آنذاك معصومة تماماً.

وتم إعـداد المؤامرة ضـد الداوية وتأصل ذلك في سنة ١٣٠٥، حيث يقال، كما يبدو، بأن فرداً مجهـولاً اسمه اسكوي دي فلويرانو أوف بيزير Esquieu de Floyrano of Beziers قـد قـدم إلى جيمس الثـاني صاحب أراغـون بعض البراهين حول ممارسات شـاذة يمارسها الداوية، وكان يأمل من وراء ذلك الإخبـار نيل جائزة ماليـة، وقد برهن جيمس الثـاني على حـذره، فـذهب اسكوي إلى فـرنسـا حيث قـدم الصراع بين الملك والبابوية فـرصة أفضل له، وحملت هنا اتهاماته لتـوضع أمام الملك فيليب الرابع، الذي عمل هو ونوغاريت على تحويلهم لصالح العرش.

وكـــان كليمنت الخامس، مثلـه مثل بابـوات ذلك العصر، مهتما في تجديد مشـاريع الحروب الصليبية، ففي خـلال إقامته في ليـون من أجل التتويج جرى التبـاحـث حول حملة صليبية بينه وبين فيليب، وحمل الملك معــه الاشـاعـات التي سمعهـا، وكـان من البـديهي إذا أريد بالفعل التخطيط لحملة صليبية، من الضروري التشـاور مع المنظمات العسكرية، وبناء عليـه استـدعى كليمنت للاجتماع به في سنة ١٣٠٦ المقـدم الأعلى للاسبتـارية مع جـاك دي مـولي مقدم طائفـة الداوية، ولعقـد مـؤتمر في بواتيـه، وفي نيسـان ١٣٠٧، وضع فيليب الاتهامات ضـد الداوية أمـام المجلس الملكي، بهدف نيل تـأييـد أعضـــاء المجلس في حملة تشن ضـــد الطائفة.

وفي الوقت الذي كـان فيليب فيـه متظاهـراً بالبحث في مسألة الحملة الصليبيـة مع كليمنت ودي مـولي، ويعبر عن اهتمامه بشـأن الاشاعـات المتعلقة بالطائفة، كان نوغاريـت يعد الأرضية من أجل هجوم مكشوف ضد الداوية، وكـان أن يقوم التاج بالمبادرة في تقـديم الاتهامات، يمكن أن يعـرض فيليب لاتهامـات مضادة، من أنـه كان يقـوم بعمل تآمـري، ولهذا قام نوغاريت في ١٣٠٥ بهدوء بالإعـداد لاعتقال اثنين من أعضاء الداوية السـالفين، وذلك بدون أدنى ضجـة، وكان من المفترض تقـديم

هذين الداويين السالفين في اللحظة المناسبة للشهادة، وبذلك يوفران على فيليب حرج المبادرة بتقديم التهم.

ومارس فيليب في صيف ١٣٠٧ المزيد من الضغط على البابا ليتخذ اجراءً في قضية الداوية، وكان الملك منذ وقت انتخاب كليمنت يطالب أن يقوم البابا باستدعاء مجمع كنسي عام ليتولى محاكمة بونيفيس الثامن المتوفى، بتهم كان نوغاريت مع رجال الملك الآخرين يقومون بإعلانها ونشرها على رؤوس الأشهاد، هذا ولم يكن كليمنت قط قوي الارادة جداً، ولم يكن أيضاً بصحة جيدة، ولهذا أمل بتجنب هذا الوضع المحرج بتقديم المزيد من التنازلات لفيليب، وبناء عليه وافق في آب على البحث في قضية الداوية، وبذلك ربح فيليب نقطته الأولى.

وكان القيام بالبحث والتقصي بشكل بطيء ومنظم من قبل البابوية لايلبي الرغبات الملكية، وكانت التهم الموجهة للداوية تتضمن شكوكاً بالهرطقة، الأمر الذي يعني احضار المتهم أمام محكمة للتفتيش، ولم تكن محاكم التفتيش ذات حظوة في فرنسا، وكان فيليب نفسه قد نال بعض الشعبية باصداره مرسوماً في كانون الثاني سنة ١٣٠٤، عين بموجبه لجنة ملكية توجب عليها فحص قضايا جميع المسجونين من قبل محكمة التفتيش، وتحرير كل من توفرت أرضية كافية لتحريره، وكان إذا ماتضمنت الشكوى ضد طائفة الداوية وأفرادها تهمة الهرطقة، فان الاجراء القانوني يتوجب أن يكون تحت ادارة محكمة التفتيش التي كان على رأسها همبرت كاهن فيليب،وكان من المؤكد أن واجب الملك المسيحي القيام بإزالة الهرطقة من ممالكه، ويمكن للانسان أن يتخيل رؤية فيليب ونوغاريت وهما يضحكان مرحاً باللسان وبالتعابير، لتمكنهما بوسائلهما وخداعهما من تحويل الاجراءات القضائية للعصور الوسطى لصالح مقاصدهما المظلمة.

وأخذت الاشاعات تنتشر وتقول بأن أعضاء طائفة الداوية سوف

يمثلون أمام محاكم التفتيش، وهكذا قيل بأن عـدداً قليلاً من الداوية قد بادروا إلى الفرار، ولهذا بات من الضروروي اتخاذ اجـراء سريع، وجرى ترفيع نوغـاريت إلى مـرتبة الحافـظ للختم العظيم، وذلك من أجل هذا المقصد، وقد أدى دوره بشكل جيد، وختم بتاريخ ٢٢— ايلول ١٣٠٧ صيـاغــة (فعليـا قبل اسبـوع) تعليمات وزعـت على جميع السلطات المسؤولة، قضت باعتقـال جميع أفراد الداوية في فـرنسا، ووقعت الضربة في الصباح البـاكر ليوم ١٤ تشرين أول، وكـان هناك قليل من الفارين، ولم تتـوفـر أعمال مقـاومــة، وسجن المعتقلون من الداويـة في سجـون منفـردة مغلقـة، دون توفـر الفرصـة للتشـاور مع بعضهم بعضـاً أو مع رؤسـائهم، وكان من بين المعتقلين دي مـولي، المقدم الأعلى، الذي كـان قبل يومين بصحبـة فيليب، حـاضراً مـأتماً أقيم من أجل زوجـة شـارل أوف فاليوس.

وأوجدت المفاجأة في العمل وأثارت دقتـه غضباً عاماً، ولكي يطمئن الجمهـور الشعبي، ومن أجل إثارة مـواقف معـادية ضـد الداوية، دعـا فيليب في اليـوم نفسـه الذي جرى فيـه الاعتقـال إلى اجتماع في نوتردام ضم أعيان رجال الكهنوت والعلمانيين، حيـث جرى استعراض المشكلة كلهـا، وتم الاعـلان عن التهم، وعقـد في اليـوم التـالي اجتماع مماثل في اللوفر كان أكثر شعبية بشخصيات الحضور.

وكـان استخـدام التعـذيب لانتــزاع الاعترافـات، في أثناء محاكمات الهرطقـة أمـراً قـانونيـا تمامـاً، وهكذا توجب على ذوي الحظ السيء من الداوية، الذيـن كـانوا مضرب المثل بأنفتهم وبتكبرهـم، أن يخضعـوا إلى آلام مجريات محكمة التفتيش، وفي ظل هذه الضغوط، أو بمجرد التهديد باستخدامها اعترفـوا بكل نوع من أنواع الجرائم، من ذلك مثلاً أنه لدى قبول المرشح الجديـد كان عليه إنكار المسيح ثـلاث مرات، وأن يبصق على الصليب، كما كان العضـو القديم يتعـانق مع المرشح الجديد بشكل

غير لائق، يضاف إلى هذا كـان الحزام الذي يلبسونه كجـزء من لباسهم النظامي، مكرساً للكفـر، لأنه كان يلف حول رأس صنم كـانوا يتولون عبـادته في بيعهم، ومعنى هذا كـان رهبـان الداوية لايؤمنون بقـداسـة المذبح، وكان مطلوباً منهم جميعـاً الحصول على الأملاك لصـالح الطائفة بأيـة وسيلة من الوســائـل، عــادلة أو ظالمة، وأعلـن بعضهم البراءة شخصياً، ومع هذا اعترفوا بأن الانتهـاكات المذكورة أعلاه كـانت عامة وشأنا عادياً داخل الطائفة.

وكان كليمنت قـد استبد به الرعب، ليس بسبب لائحة الانتهـاكات، التي كان يعرفها من قبل من خـلال مؤتمرات كان قد عقدها مع الملك، بل بسبب السرعة في استخدام السلطات المدنية وبشكل عنيف جداً ضد طائفـة كانت من الناحيـة الشرعيـة تحت الاشراف القضائي للبـابا، ولا شك أنه حين وافق مكرهاً على التحقيق مع الطائفـة، لم يكن يتوقع مثل هذه الاجـراءات القاسية جـداً من قبل التاج، ولهذا علق في أوائـل عام ١٣٠٨ أعمال محاكم التفتيـش، ونقل المتهمين من الـداوية ليكـونوا تحت سلطانه القضائي المبـاشر، وأمر كذلك بنقل بعض الشخصيـات الرفيعة من الـداوية ليكونـوا تحت حفظه الخاص في بواتييـــه، ولســـوء حظ كليمنت، تعـرضت استراتيجيتـه الأخيرة هذه إلى انتكاسـة، فقـد تمكن واحد من الـداوية من الفرار من بواتييـه في شباط، وبات إذا كـان البابا عـاجزاً عن الاحتفـاظ بحفنة من رجال الداوية خلف البـاب والقفل، فكيف له أن يسـوغ مطلبـة باعتقـال المئات وسجنهم، وهـم الذين كـان فيليب ملقيـاً بهم في سجن لا أمل بالخلاص منه؟ وأمر كليمنت بسرعـة بالبحث عن الفـار، وقـدم جائـزة قـدرها عشرة آلاف فلورين من أجل اعتقاله.

والآن وقد باتت قضية الداوية تحت الاشراف المبـاشر للبابوية، كانت الخطوة الثانية التي اتخذها فيليب هي توجيه استفسار إلى جامعة باريس،

سائلاً: تحديد صلاحيات السلطات المدنية في قضايا هرطقية صارخة، وسأل أيضاً عما إذا كان الجرم المعترف به من قبل الداوية يشمل امتيازاتهم اللاهوتية، وهل يجوز السماح للطائفة بالبقاء في حالة العثور على عدد ضئيل من أفرادها أبرياء في مقابل المئات الذين اعترفوا بجرمهم، وما الذي ينبغي فعله بالنسبة لممتلكاتهم، فهل يتوجب تكريسها لهدفها الأصيل، أي الأرض المقدسة، أو من الممكن في ظل الظروف القائمة مصادرتها من قبل السلطة العلمانية، وردت الجامعة برد حذر، حيث ذكّرت فيليب بأن طائفة الداوية كانت طائفة دينية، وهي على هذا تحت الاشراف القضائي اللاهوتي، أي أنه يمكن للسلطات المدنية في حالات الطوارىء اعتقال هراطقة، لكن مع النية بتسليمهم إلى محكمة لاهوتية، أي أن الاعترافات كلها تسوغ تحقيقاً داخل الطائفة نفسها، أي أن الذي ينبغي القيام به هو اتخاذ اجراءات للتأكد من أن الذين اعترفوا بالجرم لم يفسدوا الرهبان المحتملة براءتهم، وهذا يعني أنه بات من الضروري حراسة ممتلكات الطائفة، لضمان تطبيق الأهداف التي من أجلها كرست بالأصل.

وكان هذا كافياً بالنسبة إلى فيليب، ففي اليوم نفسه الذي تسلم فيه الجواب من الجامعة، وجه الملك الدعوة لاجتماع مجلسه العام الثاني للأعيان في تور في أيار ١٣٠٨، ومثلما كان عليه الحال بالنسبة لمجلس ١٣٠٢، جرى استدعاء هذا المجلس للاجتماع ليس من أجل تقديم النصيحة إلى الملك، ولا من أجل تأمين موارد مالية، بل كانت مهمة المجلس الآن أن يعمل بمثابة صوت دعائي عريض لتمجيد الملكية، التي هي المدافع عن الإيمان، ولحشد تأييد وطني من أجل الهجوم على الداوية، ومعلوماتنا عن مجريات أعمال الاجتماع ضئيلة، والذي نعرفه أن الطبقة الثالثة كانت حسنة التمثيل، وكان رجال الدين مكرهين بالمشاركة في الهجوم على طائفة دينية، لكنهم خافوا من معاداة الملك،

وكان عدد كبير منهم ممثلاً بالتفـويض وبالنيابة، وأخبر نوغاريت، الذي عمل وكيـلاً لعـدد من رجـال الدين، الملك فيليب بأن المجلس قـد أيد الموقف الملكي بالاجماع تقريباً.

وكان من بين أعضـاء الطبقة الثالثة الذين كـانوا حضوراً في تور، بيير دوبوا، وكـان قد صار أكبر جـرأة، وذلك بتقدم السنوات، وقـد أمسك بسرعة حقيقـة أن أمل فيليب بالنجاح في قضيـة الداوية قائـم في ارغام كليمنت، فكتب رسـالة باللغـة العـاميـة بعنوان «احتجـاح الشعب الفـرنسي»، وكان صلب هذه الرسـالة مجرد هجـوم على كليمنت بسبب مـوقفه المعيق في قضيـة الداوية، وأشفع ذلك بنقـد حاد لموقف المحـاباة الذي اتخذه البـابا، وهاجم في منشـور آخـر كتبـه في السنة نفسهـا، حمل عنوان «قضية الداوية» طائفـة الداوية بعبارات قاسية جـداً، ودعا الملك لاتخاذ اجراءات شديدة جداً ضدهم.

ومن جديد تراجع كليمنت أمام الضغط، ففي اجتماع كنسي عام عقد في القصر الملكي في بواتيــه يوم ٢٩— أيار ١٣٠٨، بحضــــور الملك، وأعيـان الكنيسـة والدولة، جـرى عـرض الموقف الملكي بشكل رسمي ضـــد الداويـة، وتولى عـــرضـــه بـلازيان، ووقف نوغـــاريت المخطط الاستراتيجي الرئيسي في الخلف لأنه كان مـايزال تحت الحرمان البابوي، واستعـرض بلازيان القضيـة كلهـا، وأوضـح أن فيليب كـان مكرهاً في تصـديق التهم، ولذلك اضطـر لأن يطلب من محكمـة التفتيش التحقيق بالقضيـة، وأعلن أن فيليب الذي هو الملك الأقوى على وجـه الأرض، قـد عمل بمـوجب دوافع سـامية، ومقـاصـد عليـا، فلقد كـان واجبـه المسيحي يملي عليــه اتخاذ اجــراءات ضــد الطائفـــة، التي تبرهن على إجـرامهـــا بالاعترافـات التي أداها أفــرادها، وليست لديه نـوايا نحـو ممتلكات الداوية، بل تولى بكل بسـاطة المسؤولية حتى يتم التـوصل إلى حل مناسب بشأنها، وختم بلازيان كـلامه بتهـديد مبطن لكليمنت، فيما

إذا تقاعس بالعمل، وعندما تولى كليمنت الرد، استعرض أخبار السمعة الجيدة التي تمتع بها الداوية من قبل، ووعد بإقامة محكمة خاصة من أجل محاكمة الداوية، لأنه ليس من عادة الكرسي المقدس العمل بتهور، فعندما تنهي المحكمة تحقيقاتها، سوف يصدر الحكم، ويعلنه شخصياً.

وتم تشكيل المحكمة وأعطيت الصفة الشرعية، وشرعت في تفحص المزيد من الداوية، وبما أن فيليب كان يستهدف إدانة الطائفة، وليس الأعضاء فيها فقط، جدد اصراراه على تجريم بونيفيس، وطالب باخراج جثته من القبر حتى توضع بالعراء ومن ثم تحرق، ويلقى رمادها بالهواء، وطالب أيضاً بتحليل نوغاريت، مع تعهد من كليمنت بعدم مغادرة فرنسا، وازداد الضغط على كليمنت برفع قضية ملكية ضد الأسقف غوشارد Guichard أسقف تروي Troyes، وتم العثور على شاهد اتهم الأسقف بالمسؤولية (في ٢ نيسان ١٣٠٥) عن موت الملكة الفرنسية جين أوف نافار، وقد ذكر هذا الشاهد بأنه رأى الأسقف، يقوم بمساعدة ساحر، بصنع تمثال من الشمع عمّده على أنه جين، وقام الساحر بعد ذلك بطعن التمثال ومن ثم جرى رميه في النار، وقد قيل بأن هذا الحادث قد وقع قبل وقت قليل من وفاة الملكة في ١٥— آب ١٣٠٨، وجرى اعتقال غوشارد من قبل رئيس أساقفة باريس، الذي بعث به إلى الملك.

وقام كليمنت بتقديم المزيد من التنازلات، بأمل ارضاء فيليب، وذلك مع أنه حافظ على اجراء يتعلق باستقلاليته بإصراره على أن مصير الطائفة نفسها، يمكن أن يتقرر فقط من خلال مجمع كنسي، وافتتحت محكمة لسماع الاتهامات ضد بونيفيس في أفينون يوم ١٦— آذار ١٣١٠، حيث استنفد المحامون طاقاتهم وعبقرياتهم، في استئنافات واستئنافات معاكسة لمدة سنة كاملة، ووافق فيليب أخيراً على اسقاط التهم، التي جاءت بمثابة مجرد وسائل ضغط على كليمنت، وفي المقابل

أصـدر كليمنت يوم ٢٧ نيسـان ١٣١١ مرسـوم Rex gloriae ، وهو مرسـوم أكد فيه بالتحديد براءة فيليب وحسن نواياه، وأمـر بالغاء جميع العقوبات المتعلقـة بواقعة أناني، وشطبها من السجـلات البابوية، وتلقى نوغاريت absolutio adcautelam مشفوع بـ Poenitentea ad Cautela ، وقد توجب عليه حتى يكسب الشرعية لتحليله المشاركة في الحملة الصليبيـة التي كـان يجري التخطيط لها، وأن يبقى في فلسطين حتى يتم الافراج عنه بعفو بابوي، وبالإضافة إلى هذا كان عليه، أو على ورثته القيام ببعض رحلات الحج المحددة .

وجرى بعـد مرور عـدة أيام التوصل إلى تسوية سيـاسية، فقـد جرى عقد تحالف بين الامبراطور هنري السـابع، وروبرت صاحب نابل Na-ples ، وكـان هذا الحلف معـاديا للمصالح الفـرنسيـة، فبمـوجبه كـان روبرت سيتسلم الأرليت Arelate ، وهو الإجراء الذي عطله كليمنت بتحـريمه التنـازل عن الأرليت لأي جهة إلاّ للكنيسـة، وقبل أن يغـادر كليمنت أفنون دفع مبعوثو الملك إليه مائة ألف فلورين، مقابل جهوده.

وتقـرر مصير طائفـة الداوية من قبل مجمع فينـا، الذي افتتح في يوم ١٦ تشرين أول ١٣١١، وألغى مرسوم Vox inexcelso (٢٢— آذار ١٣١٢) بشكل رسمي الطائفـة، وقـد تلي أمـام المجمع في ٣— نيسـان، وكان وقتها فيليب جالساً على يمين البـابا، وما من أحد تجرأ على الجهار بالمعارضة، وقد بقي أربعـة من كبار رجالات الداوية، بما فيهم دي مولي وكـارناي Charnai في السجن حتى ١٩— آذار ١٣١٤، عنـدمـا جـرى تعيين لجنـة بابوية لتقـرير مصيرهم ، وحكمـت اللجنة عليهم بالسجن مـدى الحيـاة، وتلقى اثنان من الـداوية الحكم عليهما بصمت، بينما احتج دي مـولي وكـارناي بصـوت مـرتفـع، وأعلنا عن براءتهما، وأوضحـا أن اعترافاتهما قـد انتزعـت منهما بالتهديد بالموت، وبدا الأمـر وكأن اللجنة قـد تأثرت، فقـررت معـاودة الاجتماعـات بنيـة تفحص

القضيـة بشكل أعمق في اليـوم التالي، وأعيـد الداوية بشكل مـؤقت إلى السجن لدى عمـدة باريس، وجـرى إخبـار فيليب بهذا التطور الجديد، وبعد التشاور مع مجلسه الاستشاري الملكي، بغياب أعضائه اللاهوتيين، أمـر بإحـراق الداويين المتمـردين، وجـرى تنفيـذ الأمـر في ذلك المسـاء بالذات قبل أن تتمكن اللجنة البابوية من اتخاذ أي اجراء إضافي.

وربحت الملكيـة الوطنية في صراعهـا مع البـابوية نصراً ساحقـاً مثلما كانت البابوية قد حققت ونالت من الامبراطورية منذ مضي نصف قرن، فـالآن لم يقتصر الأمـر على تقـرير حل كل نقطة من القضيـة لصـالح الملكيـة، بل جـاءت ترقيـة الكرادلة الفـرنسيين لتضمن — كما بدا— استمرار خط التعاطف البابوي تجاه الفرنسيين، ذلك أن البابوات سوف يستمـرون في السكنى في أفينون تحت ظل الملكيـة الفـرنسيـة، وجـاء الحادث التـاريخي في انقطاع خط ولادات الذكورة في أسرة كـابيه بوفـاة أولاد فيليب ليشكل حقيقة هامة في تدمير كثير من صورة واجهة الواقع السياسي الذي أوصله فيليب الرابع إلى الكمال، ومع هذا، إنه على الرغم من الفـوضى التي أعقبت مـائـة سنة من الحروب الأهليـة والخارجيـة نجحت الملكيـة الفرنسيـة في الحفـاظ على بعض معـايير الوضع التي تمّ الحصول عليها أثناء حكم فيليب.

ولدى تفحص أعمال فيليب ومستشـاريـه، تتملك الانسـان الدهشـة تجاه اللامبالاة الدينية ومظاهر الرياء، مما يتـواءم أكثر مع الروح العلمانية لعصر النهضة، من تـوائمه مع التقوى التـي ضرب بها المثل في العصور الوسطى، ولايمكن عـدّ إصرار نـوغـاريت على الحصـول على التحليل عملاً معـاكسا وبينة مضـادة لهذا التفسير، فقد كـانت الأعراف السـائدة تجعل من الانسـان المحـروم كنسيـاً منفيـاً اجتماعيـاً، ولهذا أراد رفع الحرمان، هذا ولاتوجد أدنى بينة أنـه اهتم بخلاص نفسه، وبما أنه أنذر من قبل البـابا بأن قـانونيـة تحليله وتطبيقـه يعتمـد على تنفيـذ بعض

الشروط، جاء تحركه الوحيد لخدمه هذا المقصد باصدار مذكرة جديدة بالحث على الحملة الصليبية،والقول بأنه لو عاش أطول (مات في نيسان ١٣١٣) لأمكنه انجاز أكثر، قول غير مقنع في ضوء أعماله ونشاطاته.

في مثل هذه الأجواء عاش بيير دوبوا، وكتب مناشيره، وسعى نحو قبول اقتراحاته بالاصلاح، ولم يتسلم دوبوا قط منصباً له مسؤوليته في الدولة، مثلما فعل بيير فلوت وبلازيان، ولم يكن مستشاراً مقرباً من الملك مثلما كان نوغاريت، هذا ولم يكن دوبوا قادراً على إدراك ضرورة قيامه بقصقصة أطراف أشرعته حتى يستطيع الإبحار والجواز وسط معيقات وعقبات تيار السياسات الأوربية، ولأنه كان متدينا على عكس نوغاريت الذي كان لامباليا، فقد عبر عن أفكار كان من شأن قبولها القطع عميقاً والمضي داخل التنظيم الأوربي، أكثر من أي شيء جرى اقتراحه من قبل معاصريه الذين كانوا في مواقع أكبر للمسؤولية، فقد بذل نوغاريت غاية جهده للدفاع عن السلطة الملكية في فرنسا وللرفع من شأنها، وكان دوبوا يود أن يجعل من الملك الفرنسي سيداً لكل من الشرق والغرب، وقاتل فيليب مع مستشاريه التدخل البابوي في السياسات الوطية، وبناء عليه أراد دوبوا انزال الكنيسة وارجاعها إلى وضع أسقفية بدائية فقيرة، وجعلها مجرد قوة روحية.

أفكار في كتاب استرداد الأرض المقدسة

يتألف كتاب الاسترداد من قسمين، ويحتوي القسم الأول الفصول من ١ — ١٠٩ ، وهو حين وجهه إلى ادوارد الأول ملك انكلترا، قد أراد بشكل واضح انتشاره العام بين الحكام الأوربيين، مع تحفظ من جانب الملك الفرنسي، وكان هذا أمراً من السهل تدبره وترتيبه بتغيير بعض العبارات هنا وهناك، وقيد دوبوا أفكاره وحصرها في القسم الأول من الرسالة للحديث عن اقتراحات ذات طبيعة عامة، مثل موضوع الحملة الصليبية، والسلام،، واصلاح الكنيسة، والتعليم،

وتحدث بعبـارات لايمكن أن تسيء إلى المشاعـر الوطنيـة في البلدان الأخرى، فنادراً ما ذكـر فرنسا وملكها، وكـان القسم الثاني الذي حوى الفصـول من ١١٠ حتى ١٤٢، ذا طبيعـة خـاصة قصـد أن يطلع عليـه فيليب وحـده، وهنا أطلق دوبوا العنان لغلـوه بالوطنيـة الفـرنسيـة، وأوضح كيف أن مملكة فـرنسـا وحكـامهـا سـوف يستفيـدون من تبني اقتراحـاته، وبين اجـراءً يمكن أن يجعل الملـك الفـرنسي سيـداً لكل من الشرق والغـرب، بما في ذلك الامبراطورية الاغـريقيـة وبلاد الشـام والمشرق العربي.

ومن حيث التكوين كـان كتـاب الاسترداد كتاب التماس ودعـوة إلى حملة صليبية لاستخـلاص فلسطين من أيدي المسلمين، لكن هل رغب دوبوا بالفعل وبشكل أصيل بقيـام حملة صليبيـة، أو أن شكل دعـوته لم يكن سـوى مجرد مـركبـة مـوائمـة للتعبير عن أفكاره حـول حشـد من المسـائل لها ارتبـاط بعيد بمثل هذا الهدف؟ ومن خـلال دراسـة أفكاره واستعراضها في ضوء الحوادث المعـاصرة قد أقتنعت أن رغبته من أجل حملة صليبية كـانت أصيلة، لكنها كانت مـرفقة برغبة مسـاوية بالأصالة للرفع من شأن الأمة الفرنسية وملكهـا، فقد أسهم الفرنسيون بدور هام جداً في جميع الحمـلات الصليبية المتقدمة، وليس دون سبب مسـوغ قام بونارBongars باعطاء ما جمعه من مواد حول الحروب الصليبية عنوان Gesta dei Per Francos، فمن كـان في سنة١٣٠٠ من القـوى الأوربية غير الفـرنسية يمكنهـا أن تأخذ بـزمام المبادرة في حملـة صليبية جـديدة؟ وإذا مـاقـام الملك الفـرنسي ووضع نفسـه على رأس مثل هذا الجهد،أولا يكون وقتهـا جديراً بنيل بعض المنافع الماديـة من خلال بذل الدماء الفرنسية مع الأمـوال؟ وليس من الضروري تبيان أنه كان هناك حديثاً عـالمياً حول حملة صليبية،لكن السـؤال كم من ذلك كان أصيلاً؟ وأن نقول بأن رجال الدولة والملوك قد تولوا رعاية التفكير في جهد عام

لإنقـاذ الأرض المقـدسـة، في ذلك مجافـاة كبيرة للحقيقـة، ومع هذا مسؤوليتنا محصورة هنا مع مخطط نظري وليس مع رجل دولة.

وبعد سقوط عكا (١٢٩١)، كان جل الدعاة إلى حملة صليبية جديدة مدركين أن هجوماً جبهويا على ساحل فلسطين، سيكون محكوماً عليه بالاخفاق، وقد حولوا انتباههم إلى امكانية التحرك على الجناح، وجرى تحويل بعض هـذه الأفكار إلى عمل، فقبل خمس عشرة سنة مـن كتـابة دوبوا للاسترداد، جهـز البـابا نيقولا الـرابع اسطولاً مكونا من عشرين غليـونا، وقـد اندمج هذا الاسطول واتحد مع اسطول آخـر تألف من خمسة عشر غليـونا قدمها هنري الثـاني صاحب قبرص، وشن الاسطول الموحـد هجومـاً غير ناجح على سـاحل آسيا الصغـرى عند سكاندالور Scandalore (آلانيـا Alanya الحاليـة)، ثم أبحـر إلى مصر في محاولة مثلها مخفقة للاستيلاء على الاسكندرية، وبعد مضي عشر سنوات قـامت مجمـوعة من النسـوة الجنويات الثـريات ببيع مجوهراتهن لتجهيـز اسطول، كـان من المفترض أن يتعـاون مع المغـول، الذين كـانوا آنذاك يسيطرون على دمشق، وكـان الاسطول جاهزا للإبحـار في سنة ١٣٠١، لكن الذي حـدث هو أن المغـول كـانوا قـد تخلوا عما استـولوا عليـه في سـورية، وبذلـك تمّ التخلي عن المشروع، وفي سنة ١٣٦٥ هـاجم بيتر الأول دي لوزغنان، حـاكم قبرص، الاسكندرية ونهبهـا لكن دون أن يحقق أية منافع ضد الاسلام.

وقامـت خطة دوبوا من أجل حملة صليبية جـديدة— على الرغم من عباراته الطنانة بكيل المديح لادوارد الأول صاحب انكلترا— وتأسست على قاعدة أن يتولى الفرنسيون القيادة، وكانت لديه فكرة متحمسة جداً حـول الموارد التي تمتلكهـا المملكة الفـرنسيـة (الفصل ١١٢)، وسـوف يتشكل الجيش من متطـوعين مع الذين تم نفيهم إلى الارض المقـدسـة كعقوبة لشنهم الحرب ضد جيرانهم، أما بالنسبة للرهبانيات العسكرية،

لابد من اتخاذ تقدير خاص لهم، بحكم اختصاصهم بالأعمال العسكرية، وعليه يمكن وضعهم في المقدمة في القتال ضد المسلمين، وتتم اثارة الحماس بين المتطوعين باستخدام الأزياء الموحدة وبوساطة الموسيقى العسكرية، وبهتافات المشاهدين في أماكن حشد القوات، وينبغي إقامة معسكرات للاستراحة في الأرض المقدسة، حيث يمكن استرداد شجاعة وحماسة الجرحى والمتعبين في أجواء عادية.

وكان تمويل الحملة الصليبية برأيه قضية سهلة، فالهبات التي تقاطرت من قبل على الرهبانيات العسكرية، ينبغي استخدامها من أجل الحملة الصليبية الجديدة، ويجري تدعيم ذلك بفرض ضرائب دخل ثقيلة على رجال الدين، وضرائب على المواريث، والاستيلاء من أجل ذلك الغرض على الأموال التي بلا أصحاب في مختلف المجالات وعلى جميع المستويات، وكان فطنا بما فيه الكفاية ليدرك أن سمة الانفعالية في الحملات الصليبية المتقدمة والجهود السابقة كان السبب الرئيسي لاخفاقها، ولهذا حث على استعمار الأرض المقدسة بوساطة مسيحيين مدربين ومخلصين من الغرب، وكان حريصاً على أن يبين المنافع الاقتصادية لمثل هذه الخطة بالنسبة للغرب الأوربي المتعطش للحصول على المنتجات الشرقية.

وكان الشرط الأساسي لحملة صليبية ناجحة هو إقامة السلام في أوربا، وقد لاحظ وجود نمطين من الحروب: حروب صغيرة بين السادة الاقطاعيين، وحروب بين القوى ذات السيادة، وكان العلاج بديهياً، في أن نجعل جميع الرجال يقسمون بالحفاظ على السلام، وإذا ما تفجرت حرب ما، لابد أن ذلك سيكون عملاً اقترف من قبل أحد المعتدين، ومن الممكن التعرف على المعتدي من خلال أعماله، وعندها يتوجب اخضاعه إلى مقاطعة اقتصادية، واجاعته بسرعة حتى يستسلم، ووقتها سوف تتوقف الحروب في أوربا، لأن ما من واحد سيمتلك

الجرأة ليبدأ حرباً عدوانية في وجه مثل هذه العقوبات المرعبة والتي لايمكن تجنبها، أما الحروب بين القوى ذات السيادة، مثل الحروب المتفجرة بين الملكيات الوطنية الناشئة في أيامه، فمن الممكن منعها بإقامة آلية تحكيم، تولى دوبوا وصفها بشيء من التفصيل. (الفصل ١٢).

والشرط الأساسي الثاني للقيام بحملة صليبية احداث اصلاح دقيق في الكنيسة في الرأس وفي الأعضاء، وبعد ردع الأساقفة عن انصرافاتهم الدنيوية وعن شرههم، وعن المثل السيء الذي يقدمونه لمن هم دونهم من رجال الكنيسة وإلى الناس، بعد هذا، أوصى دوبوا بالاستيلاء على أموالهم الدنيوية، وتحويلها إلى وقف دائم، على أرضية أنهم لم يكونوا الملاك، بل مجرد مشرفين إدارياً على أملاك الكنيسة،علماً بأن هذه الأملاك يمكن إدارتها بكفاءة أعظم من قبل سلطات مدنية.

أما بالنسبة لرجال الدين النظاميين، فقد كان لدى دوبوا ما يقوله للمتسولين،مع أنه رأى جوب تمويلهم بطريقة تجعل التسول عملا غير ضروري، واتهم الرهبان بشكل عام بأنهم لم يحافظوا على تعهداتهم بالفقر، والعيش كذلك، ولتقديم الاحسان، والطاعة، وقد انتقدهم ووصفهم بالفوضوية، وقال عنهم بأنهم جماعة من شذاذ الآفاق، عصاة على رؤسائهم، راغبون في جمع الذهب والفضة، التي عهدوا بها إلى رجال علمانيين خارج الديرة من أجل تأمين الأرباح لهم، وقد صوّر تعهدهم بحياة العذوبية بأنه مجرد مصيدة، نصبت بغباء من أجلهم من قبل آباء الكنيسة القدماء، وتمت رعايتها والعناية بها فقط عن طريق خرقها، واقترح دوبوا إعادة تأسيس مبادىء الحياة في الديرة، بإلغاء الرعاة من غير الرهبان، حيث هناك عدد قليل من الرهبان يعيشون حياة ترف، وكسل ورخاء، وهؤلاء ينبغي تقويمهم وانزال دخلهم المالي إلى الحد الأدنى، وما يتوفر من المال ويزيد يتوجب تكريسه لمنافع الأرض المقدسة، ومن الواجب تقييد عمل الراهبات وحصر أعداد القاطنات في

الديرة، فالأفضل هو تحويلهم وإرسالهم إلى مدارس الفتيات.

وكتب دوبوا الاسترداد قبل هجوم فيليب على الداوية بشكل معلن، ولهذا لم يقم بجهد للتمييز بين الاسبتارية والداوية،بل أوصى بدمج جميع منظمات الرهبانيات الدينية في منظمة واحدة، تحت قيادة واحدة، ويتوجب أن يطلب من جميع أعضاء هذه المنظمات العيش في الارض المقدسة، وأن يجري تحويل جميع ممتلكاتهم في أوروبا إلى المدارس التي يتوجب تأسيسها وذلك كجزء من برنامجه الاندماجي المقترح للتعليم.

وإذا كان الأساقفة بحاجة إلى الاصلاح هم والكهنة النظاميين، فبالحري حاجة البابوية إلى ذلك، وقال دوبوا بأن ميراث القديس بطرس كان السبب الأساسي في تراجع البابوية، لأن البابوات حرضوا على الحرب وخاضوها، وانشغلوا بواجبات إدارتهم الدنيوية فلم يتوفر لديهم الوقت للقيام بواجبهم الرئيسي، وهو العناية بالأرواح والنفوس، وقد اقترح بأن العلاج بسيط لكنه شديد مؤلم، وهو أن يتم تحويل الميراث وموارده إلى الملك الفرنسي مقابل ضمان عطاء سنوي، وبذلك يمكن للبابا أن يكرس وقته كاملاً لأعماله الروحانية، وهو عندما يتحرر من مسؤولياته الدنيوية الثقيلة، يمكنه وقتها إحداث إصلاح شامل ودقيق للكنيسة.

ومن أهم ملامح خطط دوبوا كان نظام التعليم الجديد، البعيد عن المدارس والجامعات التي كانت موجودة، وقد اقترح إقامة مؤسسة عملاقة يكون واجبها الرئيسي هو تأسيس مدارس للصبيان وللبنات في كل مقاطعة من مقاطعات فرنسا، وأن يكون الهدف الرئيس لهذه المدارس هو تدريب الشباب من الجنسين للخدمة في الشرق، وقد أعطى لثلاث نقاط أهمية خاصة: وأولى هذه النقاط، التمكن من معرفة اللغات الأجنبية، فبدون هذه اللغات من الصعب جداً نجاح الجهود التبشيرية وإدارتها في الشرق، والنقطة الثانية: وضع برنامج للدراسة متسارع،

حتى يمكن إكمال التـدريب المطلوب في سن مبكرة، والنقطة الثـالثـة: تأمين خبرة عمليـة، سـواء في الـوعظ والتبشير أو في مجالات التطبب، والأعمال الأخـرى المرتبطة، أو القانون، وينبغي إقـامة مـدارس منفصلة من أجل مـواضيـع دراسـات أكثـر تخصصـاً، مثل دراســات القـوانين والشرائع المدنية، والفلك، واللاهوت، والأعمال المتقدمة في الطب.

وباستثناء مثل هذه الموضوعـات الاختصاصية، كـان من المتوجب أن يتبع تعليم الفتيــات بشكل أسـاسي القــواعـد نفسهـا المتخــذة لتعليم الصبيـان، إنما مع إلحاح خــاص على الطب والجراحـة، وينبغي الاهتمام أيضاً بتأسيسهـم بشكل جيد بمبادىء الإيمان الكاثـوليكي، وبعد اكتمال تدريبـاتهم، من الممكن تبني هذه الفتيات الجميـلات الناضجات بمثـابة بنات وحفيـدات لأمراء الغرب وأعيـان الرجال فيـه، ومع التمتع بمثل هذه السمعـة الاجتماعية والمكانة السـامية، وبعـد إلباسهن على حســاب المؤسسـة، وقتها يصبحن جـاهزات لتزويجهن من أسـاقفة ورجـال دين شرقيين، ومن أمــراء مسلمين وأثـرياء، فمن الممكن نجــاح مثل هذه الزوجات في تحويـل قرنائهن إلى الايمان الرومـاني، كما يمكنهن الحصول على فتيات مدربات مثلهن ليكن زوجات لأولادهن.

واحتـاجت الاجـراءات في المحكمـة، وكــذلك دراسـة القـانون إلى الاصلاح، وكان دوبوا، بحكم كـونه محامياً مجرباً، على دراية بآثار الخدع الخطابية ومـؤثرا ت الصوت والحركـات التي كان المحـامون البـارعون يستهـدفـون من استخـدامهـا التـأثير على الذين يستمعـون إليهم، ولهذا أوصى بتقـديم جميع الالتماسات والمرافعـات كتـابة، يعني أن تكون هذه الأشكال المكتوبة محصورة بالشكاوى، وبردود الدفاع، ورد المدعي، ورد الدفـــاع على المدعي، وينبغي أن يمتلـك القــاضي السلطـة على رفض القضايا التي ليس لها عـلاقة، والمقحمة، وكـان دوبوا قانعـاً بأن طريقته سـوف تزيل إطالة القضـايا القضائيـة، وستكون مـوائمة بشكل خـاص

للتبني حالاً في مسألة الاستيلاء على الأرض المقدسة، لأن الخلافات سوف تتفجر، وسوف تثور، لو أن كل مجموعة من المجموعات القومية العديدة أصرت على استخدام طرائق الاجراءات المعتاد استخدامها في بلدانها الخاصة بها.

وكان القسم الثاني من كتاب الاسترداد، مصمماً لرؤيته من قبل الملك فيليب ومستشاريه المقربين فقط، ولهذا حول دوبوا انتباهه هنا إلى المشاكل الفرنسية، ومع أنه كان بلا خبرة عسكرية، فقد ناقش بشيء من الطول الاجراءات المتوجب اتخاذها في الدفاع عن المملكة، وحسب شرحه لهذه الاجراءات يمكن للملك في الوقت الذي يرغب به، توجيه الدعوة إلى الإقطاعيين التابعين له، المتوجب عليهم تقديم خدمات عسكرية على حسابهم، ويمكنه في أوقات الطوارىء استدعاء المتملكين لاقطاعات حرة، الذين هم بالعادة معفيين من تلك الواجبات والالتزامات، وتكون الخطوة التالية هي«الاستنفار العام»، ويمكنه أخيراً في أوقات الضرورات القصوى والطوارىء الاستيلاء على ممتلكات الكنائس، والمؤسسات اللاهوتية، وهذه الخطوات جميعاً — باستثناء الأولى — مسوغة فقط في أوقات الطوارىء الوطنية.

وكان دوبوا قانعاً بأن الملك، قد ضلل من قبل مستشاريه الذين تغاضوا عن المراوغة في تطبيق الالتزامات الاقطاعية، فالتجأ بالغالب إلى اتخاذ الاجراءات الاضطرارية غير المسوغة قانونياً، وبهذه الطريقة كانت الكنيسة مستبعدة، وتمت مقابلة الأعباء المالية الإضافية — ثانية بناء على نصيحة المستشارين العاجزين أو الأشرار — بتخفيض عيار العملة، مما يلحق الضرر برعايا الملك، وأصر دوبوا على أن من الممكن تجنب هذه الشرور بسهولة، وذلك بفرض الالتزامات الاقطاعية وتطبيقها بحزم، وإذا ما تم تنفيذ هذا، سيمتلك الملك من ورائه قوة عسكرية لا يمكن مقاومتها، وسيكون بإمكانه القيام بمشاريع عسكرية واسعة، وهو ما

كان دوبوا يحثه على القيام به.

فما الذي كانته هذه المشاريع؟ لقد كانت بشكل مجمل إقامة سيطرة فرنسية على الغرب والشرق، فبالاستيلاء على ميراث القديس بطرس، سيتمكن الملك الفرنسي من ممارسة سلطانه على أتباع البابا، الذين كان من بينهم ملوك إنكلترا، وأراغون، وصقلية، وإلى مملكة صقلية ينبغي إضافة مملكتي القدس وسردينيا، ثم إنه بدعمه لأبناء ابن خاله في الخلاف العائلي في كاستيلا، سيتمكن من نيل السيادة على تلك المملكة، كما أن رعايته لحملة صليبية ناجحة سوف يمنحه السيطرة على الأرض المقدسة، ومن الممكن للجيش الصليبي المنتصرالعودة عبر طريق القسطنطينية، حيث سيمكن أخا الملك، شارل أوف فاليوس من الاستيلاء على الامبراطورية الاغريقية، وبالقيام بترتيبات مع البابا الفرنسي الجديد(كليمنت الخامس) من الممكن إقناع الناخبين الألمان بإعطاء أصواتهم إلى عضو من الأسرة الفرنسية المالكة، وأيضاً من الممكن الحصول على الأرليت والضفة اليسرى للراين من خلال مناقشات ودية مع الامبراطور الألماني، وتوقع دوبوا بذكاء احتمال قيام البابا كليمنت الخامس بتعيين ما يكفي من الكرادلة الفرنسيين لضمان أكثرية فرنسية، وبذلك يمكن للبابوية أن تبقى فرنسية الملامح، واقترح في منشور متأخر خطة من أجل السيطرة على مصر، ويمكن للانسان أن يقول معقباً،: لو أن جميع هذه المشاريع قد تحققت، وقتها كان فيليب سيتطلع فقط لعوالم أخرى ليستولي عليها!

تقويم نقدي لدوبوا

في الحديث عن المؤثرات المتنوعة التي أسهمت في صياغة أفكار دوبوا، نجد بلا شك أن أهمها كان القانون، فهو لم يكتف بتلقي تدريبات دقيقة في هذا الموضوع، بل أمضى حياته في ممارسة العمل القانوني كمحترف، ومن هذا الميدان استقى مقارباته القانونية وأحياناً

غير الواقعيـة للمشـاكل التي اهتم بها شخصيـاً، ويتـوجب على الذين عـدّوه مجرد مصلح اجتماعـي خيـالي أن يلاحظوا أنه حتـى أكثـر خططه تناقضاً قـد منحت ثوباً عملياً، ولدى النظرة إلى الموضـوع نظرة إجمالية، نجـد أن رسالتـه لا تترك الانطبـاع أنه كـان يتولى صيـاغـة شكل دولة مثاليـة، بعيدة عن مملكة الواقع الممكن، فقـد صاغ كل اقتراح وعبّر عنه بعبـارات عمليـة، تستخـدم في أوضـاع كـانت تمامـاً معـروفـة بالنسبـة لمعاصريه، وكان دوماً متوقعاً حجج خصومه، ولديه حل جاهز وواضح لكل مشكلة، ولم يـأخـذ بالتـأمل الفلسفي حـول السيفين، أو الشمس والقمر، وغير ذلك من التشابيه التي راجت كثيراً في الكتابات السياسية لمعـاصره الكبير، دانتي، فقـد ظل دوبـوا دومـاً مـرتبطاً بالأرض، وقـد تحدث بعبارات عملية يمكن للأحاسيس العامة للأفراد فهمها وتقبلها.

وكـان المؤثر الثـاني، الذي يمكن عـدّه معـاكسـاً للأول، هو التأمل الفلسفي العلمي، الذي استقـاه أثناء أيام دراسته في باريس، وشحـذت المناقشات في سـاحات الجامعة، التي لا شك أنه شارك فيهـا قدرته على الجدل، التي هي ضرورية لممارسـة مهنتـه، ومـن المحتمل أنه هناك تعلم القياس المنطقي الذي استخدمه من وقت إلى آخر، للوصول بالمناقشة إلى مبتغاه، ففي الجامعـة استمع إلى محاضرات توماس الأكـويني الذي كان أعظم علماء وقتـه، غير أن دوبوا لم يكن مفكراً عميقـاً، ويبدو أنه افتقـر إلى مـا يكفي مـن التبصر الفلسفي حتى يتفهـم استخـدامـات الفلسفـة التـوماسيـة، وصحيح أنه نقل عن تـوماس وذكـره بالاسم مع الموافقـة والتأييـد، نجـده ينقـل في مـرحلة تاليـة بالتأييـد نفسـه والموافقـة عن سيغـربرابنت، الذي كـان ممثلاً لمدرسـة من التفكير مناهضـة للمدرسـة التوماسية.

وفي أثناء الاقامة في باريس كان دوبـوا عضواً في الأمة النورماندية في الجامعـة، وفي أثناء المناقشـات التـي ثارت في الجامعـة واستعـرت بين

مـدارس الفلسفة المتعـارضـة كان مـوجوداً، وتبنـت الأمة النورمـاندية بشكل عام مـوقف الرشدية الذي مثله بقـدرة سيغردي برابنت، واقترح دوبوا في عـرض مـوجـز دراسـة العلـوم الطبيعيـة، وأوصى بالتحـديد بالعودة إلى كتابات سيغـر(الفصل ٧٢)، وعنه نقل في مكان آخر على أنه مفسر معتمد للأرسطوطالية(فصل ١٣٢)، وقـدمت المدرسة الرشدية في التفكير المنطقي المؤثـر الثـالث، الذي أثر على دوبـوا خـلال سنوات تكوينه.

وتأثر عقل صاحبنا المحـامي — الذي كان عقلاً علميـاً — بالدرجة الرابعة«بالمدرسـة التجريبيـة» التي كان روجـر بيكون الشارح لها، ولعله عرف بيكون شخصيـاً، وهو على كل حال أظهـر معرفـة كبيرة بكتابات هذا الراهب، التي نقل عن بعضهـا بالعنوان وباسم الكاتب، ويبـدو أن بيكون قد لقي اهتماماً قليلاً في أيامه، ومع أن دوبوا كان رجلاً علمانياً في حقل الفلسفـة، يعـدّ واحـداً بين الندرة من معـاصريـه الذين نقلوا عنه بالاسم، وقـدمـوا براهين على أنهم قـرأوه، ويبرهـن على أنه تأثر كثيراً وبعمق بأفكـار بيكون تكرار إصراره على قيمـة التجـارب العمليـة، وبإظهـار رغبتـه في ضغط نصـوص كتب المجلدات الكبيرة الرائجـة والشروح، وإخـراجها بحجم معقـول، وباهتمامه الكبير بالقيمـة العاليـة لمعـارف اللغات المعـاصرة، وكـان أيضـاً متفقاً مع بيكـون حول قيمـة ومكانة دراسة العلوم والرياضيات، وبلغ به الحماس لهذا الأمر إلى حد التـوصية بالأخـذ بتوصيـة بيكون الحماسية من أجل استخـدام المرايا في الأعمال القتالية.

وأخيراً في مقـابـل التأثر العملي بمـدرسـة روجـر بيكـون«المدرسـة التجـريبيـة»، وقع دوبـوا تحت تأثير الأفكار الكيماوية لريمـوند لول Lull، هذا ومن الممكن أن الرجلين قد عـرفا بعضهما شخصياً، ففي أيام حياة دوبوا، أمضى لول خمساً وعشرين سنة في نشر أفكاره، بشكل كبير

في فرنسا، ولقد كان موجوداً في مجمع فينا في سنة ١٣١١ ، حيث ربح الموافقة على خطته من أجل دراسة اللغات الشرقية في مجمع الكرادلة وفي الجامعات، وقد أراد لول من دراسة اللغات الحديثة الإفادة من استخدامها في أعمال التبشير، في حين أراد دوبوا استخدام اللغات من أجل عظمة فرنسا، وكان في ذهن كل واحد منهما استخدام عملي من أجل اللغة، وأصرّ في الوقت نفسه بيكون مثلهما على دراسة اللغات، لكن بالدرجة الأولى من أجل استخدامات علوم فقه اللغات، وكانت مقاربة لول مقاربة علمية، فقد بدأ يقول في كتابه Liber de ac-quistione Terra Sanctae الذي وجهه إلى فيليب الرابع في سنة ١٣٠٩ :«إنه من أجل الحصول على الأرض المقدسة هناك ثلاثة أمور أساسية هي : القوة، والحكمة، والاحسان»، وبدأ كتاب Liber nat-alis ، الذي أيضاً وجهه إلى فيليب في سنة ١٣١١، بوصف ست نساء مزعومات نثرن المديح على فيليب، ومن خلاله يمكن أن نلاحظ خطط لول، والمقصود هنا قمع الرشدية، وزيادة احترام الكنيسة وحسن سمعتها، وتحويل الكفار، وهزيمة المسلمين، ولاشك أن مثل هذه المقاربة لم تكن واردة عند دوبوا وبعيدة عن تفكيره.

وهذه المؤثرات المتنوعة، اللائي يمكن تقصي أثرهن لدى دوبوا، عبارة عن دليل أنه عاش على اتصال مع جميع التحولات الفكرية الهامة لعصره، فمن هذه التيارات المتنوعة وذوات التأثير المتضاد المتداخل، استقى ما حكم عليه بأنه سوف يوسع مشاريعه، ومع هذا هو لم يكن مجرد ناسخ لأفكار الآخرين، فقد أبدى استقلالية بالتفكير مدهشه، واستعداداً للخلاف وللابتعاد عن مصادره المحترمة التي نقل عنها، فقد كان محامياً، وغدا ثرياً من خلال المشاركة في الاجراءات القضائية لأيامه التي كانت طويلة وبطيئة مرهقة، ومع هذا نادى باصلاح قانوني، أعلن أنه لو طبق لكان من معانيه خسارة مالية لأبناء حرفته، وقد توفر لديه

احترام عظيم للقوانين وللاجراءات القضائية، لكنه آمن بضرورة تغيير القانون وأن هذا واجب عليه، ولهذاعرض خدماته لإعادة النظر بالقوانين القائمة، ولإزالة ما هو حتمي ومتناقض، ومع أنه تدرب على العمل العلمي في باريس، عبر عن انعدام صبره تجاه دقة وبراعة العلماء، وقد أعلن عن نفسه تلميذاً لسيغر دي برابنت، وحملت أفكاره بصمة من التأثيرات الرشدية، لكنه رفض مجاراة سيغر والرشدية في إنكارهما للفضائل الفردية، وللمسؤولية الشخصية والارادة الحرة للانسان، وفي مجال العلم والرياضيات نقل عن روجر بيكون مع الاحترام، لكن عواطفه المعبر عنها حول القانون والاجراءات القانونية تعارضت بشكل حاد مع أفكار الراهب بيكون الذي عدّ العمل القضائي معيقاً لتقدم التعليم، وكان ريموند لول قد اقترح صيغة أو تركيبة تمكن الانسان من الحصول على جميع المعارف، وبالمقابل ألح دوبوا بشيء من الطول على أنه من غير الممكن الحصول على جميع المعارف(الفصل ٨٤)، وكان لول عدواً شديداً للرشدية، وعبر دوبوا عن ودّ واضح نحو عدد من أفكار الرشدية.

وكان من بين معاصري دوبوا الذين نقل عنهم ألبرتوس ماغنوس Albertus Magnus ، وهيرمان الألماني، الذي ترجم«الأخلاق» لأرسطو، وكان دوبوا على معرفة بمعظم كتّاب العصور الوسطى، ومع هذا لم ينقل عن مؤلف كان حيّاً بالاسم، فعلى سبيل المثال، هو لم يذكر ريموندلول، مع أنه من الواضح بأن دوبوا كان يعرف أفكاره، وفي القائمة نفسها أجيدوس رومانوس Aegidius Romanus ، الذي كان قد أهدى كتابه De regimine Principum إلى فيليب الرابع، قبل اعتلاء ذلك الملك الشاب للعرش، وقد أمر فيليب إثر تتويجه مباشرة بترجمة تلك الرسالة إلى الفرنسية، وكان أجيدوس على صلات وشيجة بفيليب ومقرباً منه، ولم تتأثر علاقاته هذه كثيراً ولم تفسد

بظهـور كتـابه De eules iastica Potestate المؤيد لبـونيفيس،في أثناء الخصـــام بين الملك وبين البـــابا، وبناء عليـــه من المحتمل كثيراً أن دوبوا قـد عـرف الرسالة المبكـرة، ويتدعم هذا الاحتمال بـوجود أوجـه تشابه بالتفكير وفي التعبير.

وجل المصـادر التي اعتمدها دوبوا ونقل عنهـا كانت أرسطوطاليـة، وكذلك من الكتـاب المقدس، ومن الشريعة المدنية والقـوانين، مع نقول قصيرة وقليلة من الكتب الكلاسيكيـة، واعتمـد في النقول على ذاكـرته، وهذا أمـر واضح، لأن النصوص التي اقتبسهـا نفسهـا، اقتبسها أحيـاناً ثانيـة بتغيرات بالأفعـال، وكـان المفضل لـديه بين مجمـوعـة كتب أرسطو«الأخلاق» و«السيـاسة» ، ومن الصعـب تقرير صحـة القـراءة، لأننـا لا نستطيع بـأي طـريـق من الطـرق تحديـد أي مخطـوطات كتـب أرسطو قـد استخدم، وسيكون من الظلم مطالبتـه بالعودة إلى نصـوص محققـة بعناية، ومن الممكن القـول بدون تجاوز: إنه غالبـاً مـا اقتبس من كتـاب أرسطو طالي خاص، وفي حـالات قليلة تبرهن أن اقتباسـاته من رسـالة أخـرى غير التي ذكـرهـا، وكثيراً مـا قـام بدمج عبـارات أرسطوطاليـة بعيـدة عن بعضهـا، وقدمهـا ضمن أفكاره بمثـابة عبـارة واحدة، وأكثر من هذا كان يضيف إقحامات من الواضح أنها من عنده، وهذا مـا يجعلنا نتوجس أن مـا كـان يستهدفـه من الاقتباسـات الكثيرة إظهار أنه كان رجلاً صاحب ثقافـة عالية، ذلك أن الاقتباسات كثيراً ما نجدها لا علاقة مباشرة لها بالموضوع المعروض للمناقشة.

وصيغة اقتباساته من الكتابات المقـدسة قريبة جداً من صيغ الطبعات الحديثـة من الترجمات الشعبيـة، والاختـلافـات البسيطة التي تظهـر في بعض النصوص مردها إلى ضعف محققي الطبعـات اللاهوتية الحديثة في ميـدان اللهجات الشعبيـة وقام دوبوا مـرة أو مـرتين بإقحام عبـارة من عنده في وسط نص توراتي، وقـام مـراراً بالمزج مـابين نصوص مختلفـة،

وغالباً ما نقل عن العهد القديم بذكر اسم الكتاب أو الكاتب، اللهم إلا باستثناء واحد، ونقل عن العهد الجديد بشكل مبهم تحت عنوان«الرسول» و«الرب»أو«المخلص»، والغلطة الوحيدة التي لاحظتها في إحالته لواحد من نصوص أعمال الرسل مع أنه من الانجيل، وساد معيار الصحة نفسه بالنسبة لنقوله من قانون الشريعة، وقد ابتعد في مناسبات قليلة عن النص كما ورد في طبعة فريدبيرغ Friedberg الحديثة، ووجدته مصيباً في الأماكن التي أتعب نفسه فيها لتحديد نص قانوني محدد قام بنقله أو اقتباسه، ونقوله من القانون المدني موزعة بالتساوي فيما بين الـ Digest والـ Novellae ، وكان يشير إليهما معاً بدون تمييز باسم«القانون المدني» ومعيار الصحة في الاقتباس من القانون المدني أدنى من الذي بدأه لدى التعامل مع الكتابات المقدسة، ومع قانون الشريعة، وعزا في مناسبة واحدة(الفصل ١٢٤) نصاً نقله، إلى القانون المدني، مع أنه كان في الحقيقة من كتاب«الأخلاق»، ويمكن أن نعزو هذا إلى إمكانية العجز أحياناً وعدم القدرة على التعرف على مصدر بعض النقول القليلة من هذا النوع.

وبذل دوبوا جهوداً جبارة من أجل الدخول إلى دائرة مستشاري فيليب المقربين، ونجد برهاناً على عدم نجاحه في هذه الجهود بكلماته، فقد ذكر مراراً بأنه مقبل على إرسال هذه الرسالة أو تلك إلى صديق يعمل في البلاط حتى يجري تقديمها إلى الملك(الفصول ١١١ — ١١٧)، كما عرض مراراً خدماته للقيام ببعض الاصلاحات المقترحة، ولوأنه كان عضواً من المستشارين المقربين من فيليب ما كان ليلجأ إلاّ في النادر لمثل هذه الطريقة من العرض، وصحيح أنه أظهر أحياناً دراية كبيرة بما كان يجري في البلاط، ووضح هذا في الـ Summaria وفي الاسترداد(الفصل ١١١٦)، نقرأ في اتفاقية فوكلر Voucouleurs بين فيليب الرابع والامبراطور البيرت شروطاً كانت بعيدة عن تفكير

الملكين، وكان هنا لمستشار معتمد أن يخطيء مرة، لكن من الصعب جداً أن يكرر الخطأ بعد ست سنوات في مذكرة سرية خاصة، يضاف إلى هذا انتقد مستشاري الملك وحط من شأنهم لأنهم ضللوا الملك في المسائل العسكرية(الفصلان ١٢٨ — ١٢٩)، وعدّهم مسؤولين عن المشورة الخاطئة بانقاص معيار العملة، ومن غير المعقول أن يقدم عضو في المجلس الاستشاري الملكي على استخدام مثل هذه الوسائل من أجل إلحاق الضرر بزملائه حتى يجلب انتباه الملك إليه، ونلاحظ أخيراً أن أسماء المقربين من فيليب من أمثال: بلازيان، وبيير فلوت، ووليم نوغاريت قد ظهرت في الوثائق الرسمية للدولة، في حين لم يظهر اسم دوبوا قط.

وأظهر دوبوا في سعيه في سبيل اقتراحاته الكثيرة للاصلاح شجاعة قناعاته، وعندما يقرأ الانسان الـ Summaria ، يمكن أن يحكم من خلال كلماته أن شقة الخلاف بين فيليب وبونيفيس باتت واسعة جداً، وكانت هذه الرسالة قد كتبها في سنة ١٣٠٠ قبل الصراع الأخير الذي تقدم صدور مرسوم Ausculta Fili ، وذلك في وقت كان بونيفيس فيه في أوج قوته، ففي الأشهر التي تدفق فيها الآلاف على روما ليركعوا أمام خليفة القديس بطرس، كان دوبوا يقترح مصادرة ميراث القديس بطرس، وأنه ينبغي أن يقنع البابا بعطاء سنوي، وعلى الرغم مما عبر فيه عن إخلاصه للملك، الذي كانت سلطته ستتحسن كثيراً بنجاحات اقتراحات دوبوا، نجد هذا المحامي النورماندي لم يتردد في توجيه النقد إلى الملك لأخذه ببعض الآراء غير الحكيمة، ولقد طالب فيليب بوجوب إدارة مملكته ليس من أجل منافعه الخاصة، بل من أجل منافع رعيته، وأكثر من هذا ذكر بصريح العبارة أن تراخيه في تطبيق الواجبات الإقطاعية، كان يسبب الأذى العظيم لرعيته،(الفصلان ١٢٨ — ١٢٩)، ولم يكن دوبوا مصراً دوماً في جرأته، على كل حال، ليس حتى

قام فيليب بإظهار الطريقة التي اتبعها من أجل إزالة طائفة الداوية.

ونلاحظ من جرأته وطبيعة كثير من اقتراحاته التي كانت تحتاج إلى وقت طويل، أن دوبوا أخفق بكل وضوح في أن يكون رجل دولة، وتظهر اقتراحاته من أجل توسيع السلطة الفرنسية ضعف في الرؤية بوضوح وبفهم واقع السياسات الأوربية، فما من رجل دولة حقيقي كان من الممكن أن تبلغ به السذاجة إلى حد الافتراض أن التخلي عن مملكة الأرليت، والضفة اليسرى من نهر الراين، ومن ثم حصول الفرنسيين عليها من خلال مباحثات ودية مع الامبراطور، ومثل هذا بالسذاجة كان اعتقاده أن معظم المشاكل كان من الممكن حلها بالطريقة البسيطة في وضع البابا تحت الوصايةالفرنسية ومن ثم استخدام النفوذ البابوي لزيادة المنافع العائدة لفرنسا ولملكها، وكان مدركاً تمام الإدراك وبفطنة عرف الفاجعة التي نزلت بالقوات الفرنسية في الحملة ضد أراغون في سنة ١٢٨٥، ومع هذا كان بإمكانه أن يكتب بشكل عفوي عن السهولة التي يمكن بها لفيليب إخضاع مدن اللومبارد، دون التلميح حتى إلى مصاعب الملك مع مدن فلاندرز، وهي حالة لا بد أنها كانت معروفة بالنسبة إليه.

أما في مجال النقد التاريخي، فقد أظهر دوبوا نفسه في أسوأ الأحوال، حيث أخفق في التسامي فوق السذاجة والخطأ، وهي السمة التي طبعت كتّاب العصور الوسطى، وكانت معارفه بالتاريخ المعاصر له أدنى بكثير من معارف دانتي، وقد كرس رسالته وأهداها إلى ادوارد الأول، لكنه أظهر أنه يمتلك معارف ضئيلة عن إنكلترا، وأن ما عرفه عنها لم يتجاوز أنها كانت إقطاعية بابوية، وكان لدى تعامله مع تاريخ الماضي اقترف عدداً من التناقضات، فقد أشار إلى شارلمان على أنه قُد حكم مائة وعشرين سنة، وعدّه الجد الذي انحدر منه الملوك الفرنسيون، ولعله من الممكن أن يغفر له قبوله بأسطورة قيام شارلمان

بحملة صليبية إلى القدس، وهي أسطورة ظلت حية حتى العصور الحديثة، هذا وأتى على ذكر صلاح الدين وعدّه ملكاً للآشوريين، كما أنه ذكر بيبرس وعزا إليه الاستيلاء على عدد من البلدان كانت ملكاً لملك الآشوريين.

وقبل دونما مناقشة كثيراً من الحكايات الخيالية الشعبية لعصره، وآمن بأن مسلمي الأرض المقدسة كانوا يتلقون العون من قبل حشد من الشياطين، الذين منحتهم معرفتهم الكاملة بأحداث الماضي حكمة لم تتوفر لدى الناس الفانين، وجرى تصوير الشيطان الذي يسيطر على جيش كبير، وهو يقوم بالقتال بفعالية ضد المسيحيين بشكل عام، وضد أفكاردوبوا بشكل خاص، وآمن بأن تفكير الناس وأعمالهم متأثرة بشدة بالنجوم وبحركاتها بالسماء، مع أنه لحسن الحظ لا تستطيع هذه القوى إعاقة إرادة الانسان الحرة،أو أن تحول بينه وبين قدرة التفكير بشكل منطقي، وجرى تصوير فرنسا، وبشكل خاص باريس على أنها واقعة تحت رعاية كتل وعناصر سماوية، ولهذا فإن الناس الذين ولدوا هناك، وهناك نشأوا، كانوا متفوقين على الناس الآخرين، ولهذا كان واجب الملك الفرنسي البقاء في الوطن لانجاب الصبيان في هذه الأجواء الموائمة، وعدم المخاطرة الآن أو في المستقبل بأن يأخذ على عاتقه القيام بحملات شخصية إلى مناطق نائية، ولا شك أن مرد هذه العواطف يعود في قسم منه إلى غلو دوبوا بالوطنية الفرنسية، ومن الصعب أحياناً تقرير المدى الذي تأثر به إيمانه بالنجوم بغلوه الوطني(شوفينيته).

سوابق لأفكار دوبوا

هل كانت الأفكار التي عبر عنها هذا المحامي النورماندي ممثلة لعصره، أو هل كان عبقرياً إلى حد أن أفكاره كانت متوائمة أكثر مع القرون المقبلة؟ وقد تحدث رينان عن :

« Idees originales, Penetrantes, hardies, sortant si complement de la routine » .

وصوره ج. ت فكز Figgis على أنه كان متقدماً كثيراً على تفكير معاصريه،« du temps » وقال :«كان دوبوا بما امتلكه من جرأة كبيرة، وفي إقدامه، وفي الطبيعة الواسعة لخططه، وفي القدرة التي عرض بها هذه الخطط، وفي الأصالة التي جعلت من عظمة فرنسا وملكها محوراً لإصلاح لاهوتي ولجعل العالم كله مسيحياً، كان بالحري هو الأشبه بعدد من الثوريين العقائديين من أمثال: روبسبيير Robespierre أو لاسال Lassalle، وليس من القانونيين العميان أو المتقيدين بالنص، للقرنين الثالث عشر والرابع عشر، وذلك حسبما تعلمناه لنتصوره»، وعدّه ديلافيلا لى رولكس الانسان الذي كان الملهم لسياسات فيليب، وكان بإمكان الآنسة إيلين بور أن تقول عنه:«الأكثر جرأة والأعظم أصالة بينهم جميعاً، وبلغت به المعاصرة إلى حدّ بدا فيه وكأنه كان يكتب للويس الرابع عشر، أو إلى نابليون».

وللوهلة الأولى عندما ننظر إلى كثير من أفكاره يبدو لنا أنها بعيدة عن إنسان غطت حياته النصف الثاني من القرن الثالث عشر، لكن إذا ما انبرينا نحو كتابات معاصريه، والسلف الذين عاشوا قريباً من أيامه، نجد تقريباً أن كل واحدة من أفكاره — التي كثير منها مثيرة وغير عادية كما بدت — قد جرى التعبير عنها من قبل آخرين، لكنه دفع بين آونة وأخرى بعض المفاهيم خطوة نحو الأمام، معطياً إياها مظهراً جديداً، وكان هذا أمراً متوقعاً، فما من عصر كان متجمداً ثقافة بالمرة، ومن المؤكد أن القرنين الثالث عشر والرابع عشر لم يكونا راكدين تماماً، وإذا جاز الحديث عن ممثل لعصر من العصور بقيامه بالتعبير عن أنواع واسعة من الأفكار والمفاهيم التي كانت رائجة في أيامه، عندها نقول كان دوبوا الممثل لعصره، ولقد تبرهن أن«أصالته المدهشة» و«عصرنته»

أشبه بالأسطورة.

وكـان المحـور الفكري لرسـالتـه لعـام ١٣٠٦، هو استرداد الأرض المقدسة، ومن أجل تجنيـد جيش صليبي، لم يكن لدى دوبوا شيئاً يقدمه أفضل مـن نظام تطوعي(الفصـل ١٠٧)، مـردوف بـالقـوى التـي تم تكوينها من الذين سببـوا القلاقل في أوربا، ونظام التطوع الذي نادى به قـد اختلف قليلاً عن النظام الذي جـرى اتباعـه في الحملات الصليبيـة المتقـدمـة، حيث كـان التطوع آنذاك يجري بوسـاطة التحـريض والإثارة التي قـام بها المبشرون، مثل برنـارد أوف كليرفـو في التحضير من أجل الحملة الصليبيـة الثـانية، أمـا الحديث عن خـدمـة المعـاقبين لآثامهم في فلسطين فإن التبشير فيـه يعـود قـديماً إلى القـرن الحادي عشر، وكـان اقتراحـه بتنظيم الجيش الصليبي، وجعله في سرايا كـل واحـد ة منهـا تتألف من مائـة رجل، ويقود كل واحدة منهـا قائد مائـة(الفصلان:٢٣ ـــ ٢٤) مشابهاً لخطـة فردريك بربروسـا بتقسيمه إلى مجموعـات في كل واحدة منها خمسين رجلاً، وكذلك لكل مجمـوعة قائدها، كما أنه لم يكن هناك شيئاً جديداً بشأن الموسيقى العسكرية كوسيلة لتقـوية العزائم، أما توصيته بأن يرتدي الصليبيـون أزياء موحدة، فقد سبقـه بها الانكليز في غنت Ghent في سنة ١٢٩٧، وكـذلك من قبل البرجـاسيـةالفلمنك في كـورتراي في سنة ١٣٠٢، وكـان الملـك شـارل الثـاني ملك صقليـة في ١٢٩٢ قد اقترح خطة من أجل حملة صليبية، وقد تضمنت الخطة وصفاً تفصيليـاً للزي الموحد الذي اقترح أن تتـزود به الجيـوش الصليبية، أمـا معسكرات الـراحـــة من أجل أن يسترد الجيـش معنويـاته بعـــد المعركـة(فصل ٢٠)، فهو اقتراح تبنى فيه القـاعدة التي أخذ بها فـرسان التيوتون وطبقوها منذ زمن بعيد.

وبعـد سقوط عكـا في سنة ١٢٩١، لم تكن هناك من حـاجة إلى قـوة بصيرة عظيمة لتدرك أن النقطة الأساسيـة القائمة وراء فقدان المسيحيين

الغـربيين لفلسطين كانت هي إخفـاقهم بالاحتلال الفعلي للبـلاد، فكثير جداً من الصليبيين قـاموا بالوفاء بنذرهــم بزيارة الضريح المقدس، ومن ثم عـادوا على الفور إلى أوطانهم، ولقـد أراد دوبوا أن يجعل الاحتـلال مستمــراً أبدياً عن طريق تشجيـع الغـربيين على الاستقــرار في الأرض المقـدسة، وكـانت المدن الايطالية سبقتـه إلى هذه الفكرة إلى حد مـا — بشرههـا للحصول على حصـة في التجـارة الرابحة للشرق — بقيامهـا بعقــد صفقـــات مع الصليبيين للتخلي لهم عن مناطـق في البلدان التي جـرى الاستيلاء عليهـا حديثـاً، وصحيح أن الحملة الصليبية الرابعـة لم تكن تماماً مغـامرة استعمارية، كان ما نجم عنهـا تأسيس دويلات لاتينية في الشرق الأدنى، عــاشت لأجيـال، وكــانت الرهبـانيــات العسكرية بمقارها الدائمة وقواعدها في فلسطين مكافئاً للحاميات العسكرية التي اقترحهـا دوبوا من أجل حماية الأرض المقـدسة ضـد أي ثورة عسكرية يقوم بها المسلمـون في المستقبل(الفصلان ١٠٤ و ١٠٨)، وعندمـا كتب دوبوا عن المنافع الاقتصادية التي سوف يتم جنيها من احتلال فلسطين، كان هدفه هو تـأمين حصة هامة لفرنسا في التجـارة التي كانت من زمن طويل تجلب الثراء إلى المدن الايطاليـة، أما مسألة الفوائـد التجارية التي يمكن تحصيلها بالهجوم الجانبي على مصر، فقد كان قد تحدث عنها من قبل وأوضحهـا الراهب الفرنسيسكاني فيـدنس — Fidence — أوف بادوا في سنة ١٢٩٢ .

وتماشيــاً مع عـــدد كبير من الذين تفحصـــوا بدقـــة مسألة الحروب الصليبيـة، أدرك دوبوا تمامـاً أنه من غير الممكـن لحملة صليبيـة جـديدة تحقيق النجـاح مـادام سـلام أوربا يتعـرض للخـرق المستمـر عن طريق الحروب بين الســادة الاقطاعيين، وتتشـابه اقتراحـاتـه من أجل منع مثل هذه الحروب مـع الخطة التي اقترحـت في أوائل القـــرن الحادي عشر، ونعني بذلك خطة«هدنة الرب» التي تضمنت شرطاً قضى بإقامة حلف

معقود بـالأيمان للسلام ولنفي مثيري الحروب إلى الأرض المقـدسة(١)، ففي سنة ١٢٠٣، وفي مؤتمر عقـد في موزون Mouzon قام كل من روبرت التقي ملك فرنسا والامبراطور هنري الثـاني ببحث فكرة إقامة سلم عالمي يشمل أولاً فرنسا وألمانيا، ثم جميع العالم المسيحي.

أما قضيـة تسوية الخلافات بين الملوك والحكـام بوساطة لجنة تحكيم، فيبدو أن فكرة دوبوا هنا بلا سـابقة واضحة، ونعني بذلك إقـامة مجلس من رجــال الدين ومن العلمانيين يتــولى تعيين هيئة محكمين واسعــة، وصحيح أنـه لم يوضـح بشكل محدد مـــدة هـذه اللجنة، مـن الممكن للانسـان أن يستخلص أن دوبوا أراد أن تكون اللجنة الواسعـة دائمـة، هذا وتوفرت من قبل جهود للتحكيـم بمثل هذه الخلافات ونفذت من خـلال إقـدام المتخـاصمين على تعيين فـرد أو عـدة أفـراد للتحكيم فيما بينهـم، وهناك أمثلة كثيرة جـداً حـول التحكيم كمبــدأ، سـواء كعمل تطوعي من قبـل الفئات ذات العـلاقــة، أوبفـرض ذلك من قبـل قـوة متفـوقة، ففي رسـالة إلى رجـال الدين الفرنسيين في ١٢٠٤، دافع البـابا انوسنت الثالث عن حقه ليقوم بالتحكيم فيما بين ملكي إنكلترا وفرنسا، مع أنه كان حريصاً على التنصل من أية محاولة تتعلق بالنيل من سلطات الملك الفـرنسي، وفي سنـة ١٢٤٦ جـرت تسميـة الملك لويـس التـاسع والنائب البـابوي يودس أوف شـاتور Chateauroux ليكونا حكمين

١ — نظمت الكنيسة في حـوالي سنة ١٠٠٠ في بواتييه حلفاً للسلام ضم كلاً مـن رجال الدين والاقطاعيين المدنيين، قرر اتخاذ إجـراء موحد ضـد أي إنسان يثير الاضطراب، وفي سنة ١٣٠٨ جمع رئيس الأسـاقفـة أيمـو أوف بورغ Aymo of Bourges أسـاقفتـه في مجمع ديني، قضى بوجوب أن يقسم كل مسيحي بلغ الخامسة عشرة من عمره على مواجهة أي خرق للسلام بقوة السـلاح إذا اقتضى الأمر، ولم يعف رجـال الدين من أداء هذا الواجب لكن طلب منهم قيـادة أتباعهم ضد الذين يخرقـون السلام، بأعلام خفاقة فوق رؤوسهم، وبالفعل قـاد رئيس الأساقفة قـوة للقتال كـان فيهـا أكثر من سبعمائـة رجل دين، وفي سنة ١٠٤١ راسل بعض رجـال الدين الفرنسيين الأساقفة الايطاليين ودعوهم إلى الانضمام إلى«هدنـة الرب» القائمة في فرنسا، وقضى الحلف الفـرنسي بتجريم كل من يقترف جـريمة قتل أيام هدنة الرب، وأن ينفى نفيـاً طويلاً إلى القدس.

من أجل تسـوية قضيـة الخلافـة لحكم فـلانـدرز وهينلوت، وفي سنة ١٢٦٣ وضع هنري الثـالث وبارونـاته مسألة الخلاف حـول مـؤن أكسفـورد للتحكيم من قبل لويس التاسع، وأخيراً لا بد أن دوبوا كـان بكل تـأكيـد على دراية بحقيقـة أنـه قبل سبـع سنوات فقـط من كتابتـه «الاسترداد» عمل بونيفيس بمثابة حكم بين فيليب الرابع وادوارد الأول.

أما فيما يختص بقضيـة الحديث عن الاصلاحات اللاهوتية، فقـد كان دوبوا على أرض معـروفـة، فقـد كـرر التهم المتـداولة كثيراً فيما يتعلق بالاهتمامات الدنيوية، والسيمونية، والشره، وفساد الأخلاق، وهي أمور كلهـا — أو أكثر منهـا — يمكن للانسـان أن يجدها في كتـابات بعض رجال الكنيسة من ذوي السمعة الأرثوذكسيـة النزيهة، وكان دوبوا قانعاً أنه يمكن التخلـص من الدنيـوية وإزالتهـا بـالطلب من رجـال الدين التخلي عن ممتلكاتهم الـدنيـوية، ووضعهـا تحت وصـاية دائمـة، مع احتفـاظهم بحصـة من الدخل، وينبغي أن تـدار هذه الوصـاية من قبل رجـال علمانيين، يكونوا بالعـادة أكثـر كفاءة، وأكثـر استعـداداً لتقـديم الحسـاب من رجال اللاهوت (الفصـلان ٥٢ — ٥٣)، وكـانت سابقـة الادارة المدنية للشـؤون اللاهوتية من قبل الرجـال العلمانيين قد أرسيت قواعـدها من زمن طويل بوساطة الـ Negociatores Ecclesiae ، وكـان هناك أيضـاً الوكـلاء التجـاريين الرحـالة للـديرة الذين لم يشجع مسـاكنوهم على الارتحال من أجل أعمال دنيـوية، وقدمت الاقتراحـات من أجل المصـادرة الكاملة للأملاك اللاهوتيـة في أثناء الصراع من أجل انتخـاب البابوات، فقـد اقترح البـابا باسكال الثـاني على هنري الخامس بشكل رسمي وجـوب تخلي رجال الدين عن جميع السلطات الحكوميـة والامتيـازات التي هم مـدانـون بها للملوك العلمانيين، وكـان هذا يعني شمـول تسليم جميع الممتلكات اللاهـوتيـة، التي ليست فعليـاً

ضمن«الهبات والممتلكات الوراثية» للكنيسة،وقد ذهب غيرهوه فون ريكرسبيرغ Gerhoh von Reichersberg (حوالي ١١٥٠) إلى القول بأن الأمير يمتلك الحق في حرمان الأسقف من ممتلكاته بسبب أي خرق للالتزامات الاقطاعية، وفيما يختص بميراث القديس بطرس، قام في سنة ١٢٧٣ سفراء فيليب الثالث بالاقتراح على غريغوري العاشر، بأن يتولى الإشراف عليه وإدارته من قبل واحد من الملوك الأقوياء، وأجاب غريغوري بأنه سيرحب بمثل تلك الترتيبات، وأن الملك الفرنسي سوف يكون شخصاً موائماً لتولي الاشراف والإدارة.

والتاريخ الديري متخم بالجهود في سبيل الاصلاح، ومعظم الرهبانيات التي تأسست في أثناء العصور الوسطى تأسست وهذا في الذهن، وعندما اقترح دوبوا إلغاء جميع الديرة غير الرهبانية، واستخدام جميع موجوداتها لحماية الأرض المقدسة(الفصول ٥٤ — ٥٧) كان يردد فقط التوصيات المحددة التي قدمها همبرت القائد الأعلى لطائفة الدومنيكان في كتابه Liber de Tractan dis Inconcilio Lug-dunensi الذي كتبه من أجل عرضه على مجمع ليون في سنة ١٢٧٤، وكان وليم دورانتي Duranti قد كرر الاقتراح نفسه قبل انعقاد مجمع فيينا في سنة ١٣١١ في رسالته Tratatus de modo alebrandi concilii et corruptelis in eulesia Reformandis ، هذا ولم يتضمن اقتراح دوبوا تحويل الرهبانيات النسائية إلى مدارس للبنات(الفصل ١٠٢) فكرة إلغاء هذه الرهبانيات، وفي الحقيقة لعل فكرته كانت مجرد عملية تبني لممارسة كانت قائمة، ذلك أن مدارس النحو المرتبطة بالديرة لم تكن أمراً اعتيادياً، فقد كانت هذه المدارس مدارس علمانية يتولى التعليم فيها معلمون علمانيون، وكانت متميزة تماماً عن المدارس المخصصة للرهبان، ومن المحتمل وجود مدارس مشابهة للبنات كانت مرتبطة برهبانيات النساء، ولاقت انتقاداته لعزوبية

رجال الدين التأييد من كتلة كبيرة من الرأي العام الفرنسي، وذلك إذا ما أخذنا بمثابة دليل الانفعالات العاطفية التي وردت في الجزء الثاني من الكتاب الشعبي واسع القراءة Roman de la Rose ، الذي تولى كتابته واحد من رجال الدين في حوالي سنة ١٣٠٠، وخرج آرنولد أوف فيلانوفا، الذي كان طبيب بونيفيس الثامن باحتجاج قوي جداً ضد عزوبية رجال الدين، وفي أثناء الصراع فيما بين فيليب والبابا تداول الناس Quia nonulli ، وهو مرسوم مزيف قيل صدر عن البابا بونيفيس، وتضمن هجوماً على عزوبية رجال الدين، وأوصى بزواج رجال الدين من البابا إلى كهنة الأبرشيات ، بحكم ما ورد في الكتاب المقدس، ولعل هذه المقترحات من أجل تغيير الوضع الرسمي المفروض على رجال الدين بالنسبة للزواج، قد جرى تحريكه بوساطة تيارات المحادثات التي كانت قائمة من أجل الاتحاد مع الكنيسة الاغريقية، التي لم يمارس رجال الدين فيها العزوبية، ونقل وليم دورانتي عن العهد الجديد، ومن ثم اقترح على مجمع فينا الاهتمام الزائد بإمكانية إلغاء عزوبية رجال الدين، وتبني المبادىء الممارسة منذ أمد طويل في الكنيسة الإغريقية.

ولم يتجرأ دوبوا على اقتراح إلغاء رهبانية الداوية حتى أعلن فيليب الرابع هجومه على هذه الطائفة بشكل معلن ومكشوف، فقبل سنة ١٣٠٨ قيد نفسه باقتراحات من أجل دمج الرهبانيات العسكرية، ومصادرة أملاكهم في الغرب، ويمكن هنا ذكر عدد كبير من السوابق لمثل هذه المقترحات، ففي سنة ١٢٢٩ قام فردريك الثاني بطرد الداوية من صقلية، وصادر ممتلكاتهم ومقتنياتهم، وعندما استدعاهم للعودة فيها بعد لم يعِد إليهم ممتلكاتهم، وكان البابا غريغوري العاشر قد اقترح في مجمع ليون سنة ١٢٧٤، دعم الرهبانيات العسكرية، وقام البابا نيقولا الرابع في آب ١٢٩١، لدى سماعه بالأخبار من عكا ، بتوجيه البطارقة

ورؤساء الأساقفة لعقد مجمع ديني إقليمي، حيث ينبغي دراسة مسألة دمج الرهبانيات العسكرية وتقويتها، وعندما طالب بالعون المالي من أجل حملة صليبية جديدة، من الأساقفة الألمان، عبّر هؤلاء عن موافقتهم على مشروع دمج الداوية والاسبتارية وفرسان التيوتون في رهبانية عسكرية واحدة، على أساس أن سقوط عكا جاء نتيجة للخلافات فيما بينهم، وكان ريموند لول قد اقترح مراراً عملية الدمج هذه، وكذلك كان شارل الثاني، ملك صقلية، قد اقترح ذلك في سنة ١٢٩٢، والفكرة الوحيدة الجديدة المعزوة إلى دوبوا في هذا المجال كانت اقتراحه بوجوب تكريس الممتلكات المصادرة التي كانت عائدة إلى هذه الطوائف، لصالح المدارس التي كان ينادي بها كسمة أساسية لخطته من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها.

أما اقتراحه من أجل تأسيس مدارس لإعداد الغربيين من الشباب من الجنسين للخدمة في الشرق الأدنى، فقد كان جديداً من حيث الدرجة وليس من حيث الفكرة، فبعض هذه الخدمات سيكون إدارياً من أحد الجوانب وتبشيرياً من جانب آخر، وكان بعضهم قد بحث في المفهوم التبشيري،ففي ٢٢ حزيران وجه البابا انوسنت الرابع مرسوماً إلى رئيس جامعة باريس، طلب فيه بشكل رسمي إرسال بعض الشباب الذين تعلموا اللغات الشرقية، إلى الجامعة من أجل التدريب اللاهوتي، وإرسالهم بعد ذلك إلى الشرق لتعليم الآخرين الايمان الصحيح وتحويلهم إليه، ولقد شرعوا في تنفيذ هذا المشروع بالفعل، ودليلنا على ذلك، تشير إليه حقيقة أنه في التاريخ نفسه حرر البابا انوسنت راعي دير القديس بيير دي تشارترز مع الرهبان، من واجب دفع الأموال لدعم هؤلاء الشباب، كما كلف بارسال سفارة إلى التتار من أجل تحويلهم إلى الايمان المسيحي.

أما مدارس النحوذات النموذج العام الذي دعا إليه دوبوا، فقد

كانت موجودة في كل مدينة تقريباً، وكذلك في بعض المراكز الهامة، وكان عملها الأساسي هو تزويد الطلبة بالتدريبات الأساسية إعداداً للدراسة الجامعية، وكان من المفترض تأسيس مدارس مماثلة في باريس من أجل الفتيات، وكان المرتل في نوتردام يمارس الاشراف عليهم، فيقوم بمنح إجازات إلى معلمي مدارس الصبيان، وإلى معلمات مدارس البنات، وأورد راشدول Rashdall قائمة فيها أسماء اثنين وأربعين معلماً، وإحدى وعشرين معلمة، نالوا جميعاً الاجازات.

ولم يكن دوبوا قانعاً بالمدارس القائمة، لكن منهاجه أخفق في تحقيق أية تغييرات أساسية، وكان من حيث الجوهر متطابقاً مع منهاج الدراسة الذي كان موجوداً في جامعة باريس، والمصادر النصية التي أوصى بها بالاسم(الفصل ٧١) كانت هي الكتب المتعارف عليها والمستخدمة، وقد انتقد بعضاً من هذه الكتب لطول نصوصها، وأوصى بتكثيفها للتوفير على الطالب الوقت والمال، وفي حقيقة إتيانه على ذكر بعض النصوص المختصرة لكتب مشهورة، دليل على أن آخرين قبله قد حاولوا الأخذ بحل مشابه، وبما أنه كان مشغوفاً بأهمية الخبرة العملية — وهي فكرة لعله استقاها من روجر بيكون — كان يرغب بتسارع برنامج الدراسات إلى حد يتمكن فيه الطالب من إكمال تعليمه النظري في سن مبكرة.

وكان من بين أهم ملامح منهاجه التعليمي نقطة أولاها اهتماماً خاصاً، قضت بدراسة اللغات الأجنبية الحديثة المستخدمة في الشرق، وبشكل خاص الاغريقية والعربية، وكانت بعض الجهود في هذا الاتجاه قد بذلت من قبل، لكن ليس على مستوى الفهم الذي نادى به دوبوا، فقد جرى في سنة ١٢٥٤ تأسيس مدرسة في إشبيلية من أجل دراسة اللاتينية والعربية، وفي حوالي سنة ١٢٧٥ أقنع ريموند لول ملك مايوركا بالقيام بإنشاء دير مزود بما يكفي من المال، من أجل دعم ثلاثة

عشر راهباً من الشباب كان عليهم دراسةالعربية، من أجل القيام بعمل تبشيري بين المسلمين، وبعدما حصل هؤلاء الرهبان على بعض المعارف المتعلقة بالعربية من عبد عربي، ذهبوا إلى أفريقيا، غير أنهم طردوا من هناك بوساطة المسلمين، وأسس ريموند بينافورت، الذي كان القائد العام الثالث للدومنيكان مدارس في الديرة الأفريقية والإسبانية من أجل هذا الغرض، وكان قائد عام آخر للدومنيكان هو ريموند مارتيني مشهوراً لمعارفه بالعبرية والكلدانية والعربية، إلى حد أنه كتب عملاً لاهوتياً ضد الاسلام بالعربية، وكان روجر بيكون، الذي كان اهتمامه باللغات الحديثة منصباً على فقه اللغات أكثر منه على العمل التبشيري قد كرس القسم الثالث من كتابه Opus maius على هذا الموضوع، كما أنه ألف بالنحو الاغريقي.

وبالنسبة لتعليم النساء، فقد كان دوبوا متقدماً خطوة أو خطوتين على معاصريه، وورد من قبل ذكر وجود مدارس للفتيات، لكن النساء كن ممنوعات من دخول الجامعات التي تمتعت باحتكار التعليم العالي النظامي، وجرت العادة بالنسبة لمن رغبن بالحصول على تعليم فوق التعليم الابتدائي، تأمين معلمين خاصين، وقد ورد ذكر عدد من النساء حصلن على تعليم جيد، منهن على سبيل المثال هروتسفيثا أوف غندرشيم Hortsvithaof Gandersheim في القرن العاشر، وهيلوياس Heloise في القرن الثاني عشر، لكن هاتين كن استثناء، وكان بين المعلمات العلمانيات في فلورنسا سنة ١٣٠٤، امرأة متزوجة، اسمها كليمنتيا Clementia ، وقد حملت لقب Doctrix Puer-orum، وقد تولت تدريس مبادىء اللاتينية، وكان من غير المعتاد تماماً بالنسبة للنساء النبيلات الحصول على بعض التدريبات في الطبابة والجراحة، وقد أراد دوبوا قبول الفتيات بشكل منتظم في مدارس تدريبية للخدمة في الشرق، وكان سيقدم لهن الدورات نفسها تقريباً التي

تقترح للدراسة من قبل الصبيان، إنما مع تركيز الاهتمام على الأدوية والجراحة ومبادىء الإيمان الكاثوليكي، وقد أقرّ — على كل حال — أن قدرتهن على استيعاب مثل هذه التدريبات كانت محدودة، ولهذا لم يقترح قبولهن في مدارسه المتقدمة للطب، والعلوم، والقانون، واللاهوت، ويبدو أن اقتراحه بأن يتزوجن رجال دين إغريق ومسلمين من أجل تحويلهم، كان مجرد جهد لإعادة تطبيق ما قام به سليمان الأمر الذي أشار إليه في الفقرة التالية(الفصل ٦١).

وعرّف دوبوا نفسه في الجمل الافتتاحية لكتاب الاسترداد بمحامي الاستئناف للقضايا اللاهوتية العائدة لأدوارد في أكوتين، وعلى هذا لقد كان مدركاً للنزاع الطويل الأمد بين القضاء اللاهوتي والقضاء الملكي، وكان يعرف أن القضية لاتحتاج إلى البحث هنا، وقد امتلك بحكم كونه محامياً ممارساً خبرة من الطراز الأول بالإجراءات المملة المتعلقة بالأعمال القانونية في القرن الثالث عشر، وقد ضمن الـ Summaria مقترحات للاسراع بالاجـراءات القانونية، واقترح في«الاسترداد» بأن هذا من الممكن إنجازه بالطلب من الادعاء ومن الدفاع تقديم التماساتهم كتابة(الفصول ٩١ — ٩٥)، وحين طالب بالمزيد من الاجـراءات الكتابية كان يتماشى تماماً مع التيارات الجارية، ففي النصف الثاني من القرن الثالث عشر أحدث تأثير القانون الروماني والقانون الشرعي تطبيقاً تدريجياً لتسهيل الاجراءات القانونية، والتي زادت من استخدام الوثائق المكتوبة، وزادت بالتالي من أهمية المحامين وكتّاب العدل، وبدأ التغيير بالظهور في المحاكم الملكية مع سنة ١٢٥٠، وفي سنة ١٢٩٠استخدمت الطلبات المكتوبة في برلمان باريس، وفي الوقت الذي كان دوبوا يكتب فيه الاسترداد، كانت حتى بعض المحاكم الاقطاعية تتبع الاجراءات الجارية في المحاكم اللاهوتية والمحاكم الملكية، وفي سنة ١٣٠١ كتب يودس صاحب مقاطعة السين دليلاً في القانون هو -Sum

ma de Judiciis Possessoriis ، أسسه على القانون الروماني، وقد اقترح فيه خطة من أجل تبسيط الإجراءات القانونية وتقصيرها في القضايا المدنية.

وإذا ما تطرفنا كثيراً في أن نصف للفرنسيين روح الوطنية في أوائل القرن الرابع عشر، وقلنا بأنها كانت بالفعل قريبة من روح القرن التاسع عشر، نجد دوبوا يعبر عن أنشط مشاعر الوطنية الفرنسية، فمع أنه كان من حيث الجوهر رجل سلام، شعر بنفسه بأنه مؤهل لتقديم النصيحة لملكه حول القضايا العسكرية، وكانت هذه النصيحة بالفعل أكثر قليلاً من التوصية بأن على الملك أن يطبق بدقة نظام الالتزامات الاقطاعية القائم فيما يتعلق بالخدمة العسكرية، وكان دوبوا قانعاً أنه إذا ما طبق هذا، لن يحتاج الملك إلى التردد بالقيام ببرنامج التوسع الذي طرحه عليه في كتاب الاسترداد، وكان هذا التوسع قائماً وآخذاً طريقه قبل أن يكتب دوبوا، فقد تم الاستيلاء على نورماندي ولانغدوك قبل تتويج فيليب الرابع، وفي سنة ١٣٠٠ أُخذت فلاندرز، وكانت الخطوة المنطقية التالية في هذا الاتجاه الضفة اليسرى من الراين، وفي الاتجاه نحو الجنوب الشرقي لم تكن هناك حاجة لكاتب منشور ليظهر الرغبة بالاستيلاء على مملكة آرل، وكان فيليب الرابع منذ بعض الوقت راغباً في مدّ نفوذه فوق الامبراطورية، ففي سنة ١٣٠٨ اقتنص الفرصة التي تهيأت باغتيال ألبيرت الأول، للقيام بحملة فعالة من أجل اختيار أخيه شارل أوف فاليوس، وقد تزوج شارل في سنة ١٣٠١ كاترين أوف كورتناي، التي كانت وريثة امبراطورية القسطنطينية اللاتينية الميتة، وأعطاه هذا حجة للمطالبة بمملكة شرقية، الأمر الذي حاول أن ينفذه ويجعله حقيقة قائمة، وكان التوسع بالنفوذ الفرنسي بالحفاظ على مصالح أسرة كابيه في إيطاليا وإسبانيا وهنغاريا، أمراً طبيعياً إلى حد أن الفكرة كانت ملكاً للجميع، وقد هيأ انتخاب البابا الفرنسي(كليمنت الخامس) مجالات

جديدة للتوسع بالنفوذ الفرنسي، فلو أن البابا أقدم على تعيين ما يكفي من الفرنسيين الكرادلة، فمن الممكن بقاء البابوية ذات هوية فرنسية، ففي سنة ١٣٠٥، أي قبل أن يقترح دوبوا هذا الأمر في الاسترداد، بدأ كليمنت سلسلة من الترفيعات ضمنت أكثرية فرنسية في مجمع الكرادلة.

ولم يكن الغلو بالمشاعر الوطنية حكراً بأي حال من الأحوال على الفرنسيين فقد أعلن جوردانوس أوف أوسنابروك Jordanus of Osnabruck في سنة ١٢٨٠ في كتابه De Praerogativa Romani Ipmerii ، أن من واجب البابا تقديم العون إلى الامبراطور للحفاظ على مكانته السامية والإضافة إليها، وأعلن أنه بواسطة الترتيبات الربانية جرى منح السلطة الامبراطورية العائدة للرومان، أي المملكة العالمية، إلى الألمان، وينبغي عدم بقاءها مع الرومان، الذين ينبغي أن يكونوا راضين بالحفاظ على البابوية وقانعين بها، وكذلك يتوجب عدم ذهابها إلى الفرنسيين الذين لابد أن تكون الهبة الربانية بالتعليم كافية لهم.

وعلى هذا يمكننا الوصول إلى محصلة مفادها أن أفكار دوبوا الأصيلة حقاً تتضمن القليل فقط أكثر من خطته المحددة من أجل نظام للتحكيم العالمي مع اقتراحه من أجل تأسيس نظام للمدارس، يمكنه أن يقبل بالتدريج نساءً من أجل التدريبات الاحترافية، وهذا لايعني مطلقاً أنه نقل عن وعي جميع أفكاره المستعارة الأخرى، فلعله توصل نحو الكثير من الأفكار مستقلاً، وهذا يعني أن جميع الأفكار التي أطلقها كانت بعضاً، لا بل كلاً من اهتمامات عصره، أي أنه لم يكن«متقدماً بقرون على عصره» بل كان ممثلاً حقيقياً له.

مكانة دوبوا وأهميته

وإذا لم يكن دوبوا مفكراً أصيلاً، فأين تكمن أهميته، قطعاً ليس في

تأثيره على عصره أو العصور التالية، التي كـانت منعدمة على الرغم من الآراء التي عبر عنهـا رينان وديلافيـلا لى رولكس، وتكمـن أهميتـه في الحقيقة عينها في أن أفكاره لم تكن أصيلة، فقد عمل بمثابة مرآة عكست حشداً هائـلاً من الأفكار التي كانت رائجـة في عصره، وليس هاماً أبداً كم بدت لنا معظم أفكـاره غير واقعيـة ووهميـة، إن هذه الأفكار هامـة لأنها ترينا كيف نظر إنسان مثقف ومنطقي ، وحسن المعـرفة إلى مشاكل السياسات العالمية في مطلع القـرن الرابع عشر، وهو ما كان معاصراً له، وهنا لدينا إنسان متفرد، فقد كـان علمانياً مع ميول صحفية للتعبير، وقد تدرب في أفضل جـامعـة في أيامـه، وكـان رجـلاً عمليـاً في مـواجهـة المشـاكل، وقـد تماشى مع التفكير المعـاصر له، وقـد حصل على الثـروة وعلى بعض الاعتراف والتقدير في ممارسة القانون، وكان أيضاً رجلاً قد تأثر بعمق بالتيـارات التي كانـت متجهة نحـو تأسيس ملكية قـوية، في داخل الدولة القومية التي كانت آخذة بالظهور شيئاً فشيئاً، وقد أراد أن يحرك هذه التيـارات ويزيد من اتساعهـا، بإثارة الرأي العـام لصالحهـا، وكان إنسـاناً، قد شعـر — كما يبدو — بشكل غير واضح، بـروح عدم الاستقرار، وعدم الرضا عن الحياة الرتيبة المشبعة بالأوهام للقرن الثالث عشر، التي ما لبث القـرن الرابع عشر أن انفجر ضدها بثورة مفتـوحة، وكان رجـلاً قد شعـر بأن«الوقت يفلت من بين الأيدي»، وهو قـد قدم برامج للاصلاح كانت واسعة ومتماسكة إلى حد ما، ودعا إلى تطبيقها.

وقـد امتلك قدرة على استيعـاب أفكار الآخرين وجعلهـا أفكاراً له، وأن يقـوم أحيـاناً بنسج الأفكار المتعـارضة، ومن ثم إخـراجهـا على شكل خطة موحـدة من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفـاظ عليها وسبيل زيادة عظمـة فـرنسا وملكهـا، ومن المحتمل أنه لم يكن واقعيـاً لكنه كان جاهزاً مع اقتراحات للاصلاح وللتحسين في عدد من الميادين المختلفـة، وقـد اندفع إلى داخل ربما مـا خشيت مـلائكة أيامـه من

السيرخطوة فيه، فقد قاتل ضد عزوبية رجال الدين، ودعا إلى قمع السلطة البابوية الدنيوية، وإلى مصادرة الممتلكات اللاهوتية من قبل التاج، وإلى إصلاح النظام الرهباني، وإلى إعادة تنظيم المنظمات العسكرية، وإلى التحويل الجزئي للرهبانيات النسائية إلى مدارس للفتيات، حيث يدربن على الطبابة والجراحة، ويتزوجن من منشقين دينياً ومن كفار من أجل تحويلهم، ورأى أنه يمكنه ضمان سلام دائم بوساطة نظام تحكيم دولي، وتأسيس فيدرالية أوربية تحت السيادة الفرنسية، وأراد تأسيس هيئة من المدارس بدورات متسارعة الدراسة تستهدف إعداد شباب فرنسا من أجل استعمار البلدان النائية وإدارتها، وكان يرغب في إعداد كتب دراسية نصية جديدة، وتنقيح المجموعات القانونية، وتحسين الاجراءات القضائية في المحاكم، ومع أنه عدّ الحرب شراً، كان جاهزاً ومعه خططه لإعادة تنظيم النظام العسكري الفرنسي، في سبيل إعادة تأهيل القوات وتحسين سوقيتها، ومن أجل إدارة الحروب وتوجيهها في البحر وفي البر، وهنا قد توفرت لديه اهتمامات كاثوليكية بارى فيها اهتمامات كل من روجر بيكون ودانتي.

مخطوطة وطبعات استرداد الأرض المقدسة

وصلنا نص كتاب الاسترداد في مخطوط واحد، هو المخطوط اللاتيني رقم ١٦٤٢ في مكتبة الفاتيكان، وهو موجود على ورق رق مسطرته ١٧ x ٢٢ سم، والمخطوط بحالة جيدة، ويحتل مخطوط الاسترداد الأوراق ١ — ٤١ من المجلد، والمخطوط مكتوب في القرن الرابع عشر، والخط جيد تماماً، لكن أضيفت له مختصرات لا حد لها عددياً، وأحياناً هي غريبة، وأظهر الناسخ شواهد على أنه قرأ الكتاب بعناية، لوجود عدد من الاضافات في الهامش، وجاء بعضها عبارة عن شروح أضافها الناسخ، ولم تكن تصحيحات ولا أعمال حذف، وأنا لم أستطع تفحص المخطوط الأصلي مباشرة، لكن تلطفت مكتبة الفاتيكان

فـزودتني بنسخـة مصورة عنـه رائعة، وقـد قـارنتهـا بالنص الذي تولى تحقيقه لانغلويس.

وكـان قد جـرى تحقيق هذه الرسالة من قبل بونغـارس Bongars على أنها مجهولة المؤلف، وقد نشرها في كتابه Gesta dei Per Fran-cos (جـزءان — هانوفـر ١٦١١) جـ٢ ص ٣١٦ — ٣٦١، ولم يتـول لانغلويس حين عمل على إخراج طبعة جديدة للكتاب — كما يبدو — شخصياً تفحص مخطوط الفـاتيكان، بل كان قـد كلف بذلك واحداً من تلامـذته، واسمه كـولون Collon ، فقـد تولى كولون مقـارنة نص بونغارس بالأصل، وكـانت النتيجة اكتشـاف عدد كبير من الأخطاء مع إسقـاط عـدد من الجمل، هذا وقـامت طبعـة ١٨٩١ التـي تولاها لانغلويس على نسخـة أخـذت عن مخطوطـة الفـاتيكان، تولى كـولون نسخها، وهذه تحتـوي على عدد غير هام من التصحيفـات، وجرى على الأقل إسقاط كلمة واحدة من النص، والأهـم والمتعب والمحير للمترجم هو المزج بين حـرفي«S » و«F »، ويغير هذا في بعض الحالات المعنى كلياً ومـادياً، وأقسى ما جـرى توجيهه من نقد إلى طبعـة لانغلويس هو حـذفـه المتعمـد لجزء من الوثيقـة القصيرة لعـام ١٣٠٨ التي وردت في المخطوطة اللاتينية رقم ١٠٩١٩، الموجودة في المكتبـة الوطنية، وكان قد نشر هذه الوثيقـة بمثـابة ملحق لكتاب الاسترداد، وهناك فقـرة ناقصـة موجودة في الطبعة التي تولاها بالوز Baluze وأودعها في كتابه Vitea Puparum Avenionensium (جـزآن باريـس ١٦٩٣) جــ٢ ص ١٩٥، وقـد تولى لانغلويس نقلهـا، وكـان بالوز مسـؤول بدوره عن إلغـاء ثلاثة فقـرات مـوجـودة في المخطوط، وهي التي تحتـوي على حكايات تآمـرية ضد بونيفيس الثـامن، وعندما أخـرج مولات Mollat طبعتـه الجديدة من بالوز(٤ — أجزاء، باريس ١٩١٤ — ١٩٢٧) عـاد إلى المخطوطة اللاتينيـة رقـم ١٠٩١٩، حيث وجـد الفقـرات الناقصـة،

فأعـاد إدخالهن إلى نصـه المطبوع(جــ ٣ ص ١٥٤ — ١٦٢)، ولابد أن لانغلويس كان يعـرف المخطوطة اللاتينية ١٠٩١٩، لأنه نقل منهـا عدة مرات، ولعله حـذف ما حذف بسبب ما تذوقـه ورآه مناسباً، غير أنه لم يقم بالاشارة إلى أن نصه ناقص.

وباستثناء هذه العيوب، تعدّ طبعة لانغلويس طبعـة رائعة، فبدونها ما كان بالامكان إخراج الترجمة الحالية، وقد تم تبني حواشيه بشكل كامل تقريبـاً مع شيء طفيف من التعديلات للتحـديث فقط، وأمد لانغلويس طبعتـه وزاد عليهـا نقـولاً كثيرة مـن كتب دوبوا الأخـرى، ولاسيما من كتـاب Summaria الذي لم يكن محققـاً بعـد، وقـــد تضمنت الترجمة الحالية هذا كله،مع إضافات كان لانغلـويس قد أهملها لتوضيح المعاني، وقد التزمت الترجمة بالنص المخطوط، ولم تبتعد عنه.

وكـان بونغـاريس عندمـا حقق الاسترداد قسمـه إلى فصـول، وكـان الناسخ قبله قـد اعتمـد وسيلة أكثر إحكـاماً، بوضع إشـارات لبـدايات الفقـــرات، وقـد حـــافظ لانغلويس عليهـــا عن طريـق الترقيم، مع أن الوسيلتين لاعلاقة مباشرة لهما بالأصل، ولا بترتيب موضوعات النص، وقـد حـافظنا في هذه الترجمة على نظام الترقيم من أجل الاحـالات على الطبعـات التي تقـدمـت على طبعـة لانغلويس لسنة ١٨٩١، وأشير إلى أرقام فصول بونغاريس بالأرقام العربية بين حاصرتين، أما أرقام فصول لانغلويس فأشير إليها بالأرقام الهندية.

استرداد الأرض المقدسة

استرداد الارض المقدسة

القسم الأول

إلى أدوارد الأمير المسيحي الأعظم، والأكثر تألقاً، الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا واسكوتلندا، وسيد ايرلندا، ودوق أكوتين، والمشهور أكثر لقدراته العسكرية منه في ألقابه الأخرى كلها، يرسل إليه المحامي عن قضاياه اللاهوتية في تلك الدوقية، بتحياته، باسم الذي من خلاله يحكم جميع الملوك والأمراء، وهو منذ زمن طويل متشوق لخدمة جلالتكم الملكية، ويدفعه نحو ذلك تقدير طبيعي أصيل، واعجاب بفضائل جلالتكم، وليس بدافع مادي، لأنه ليس هناك من طلب أو عرض، وهو بإخلاص يأمل بأن يتمتع جلالتكم بمزيد من الانتصارات.

١[1]: إنني أعرف بشكل جيد، أنكم كونكم ملكاً عالي التفكير، وممجدا ومشرعاً حقيقياً، ليس منذ بداية حكمكم، بل من اللحظة ذاتها التي بدأتم فيها حياتكم العسكرية، فأنتم منذ تلك الساعة تبذلون عظيم الجهد لصنع رجال جيدين من بين جميع رعاياكم، ومن المقربين منكم، ومن المرتبطين بكم، ولقد أنجزتم هذا ليس عن طريق مجرد التهديد بالعقوبة، بل عن طريق إدامة تقديم الأعطيات الثمينة، والآن وقد انتهت جميع حروبكم بنجاح، بفضل من الرب ملك الملوك، الذي منه جميع المباركات تصدر، لم تبحثوا عن الراحة التي اعتاد بقية الأمراء على طلبها، بعد مثل هذا المجهود الذي بذلتموه، لابل بعد جهد حقيقي، وعمل لطيف، أنتم عوضاً عن ذلك تقومون بالتخطيط لتكريس طاقاتكم الرائعة من أجل استرداد الأرض المقدسة، وفي سبيل تحريرها من أيدي المسلمين، فعلى الرغم من تزايد السنوات، ومراغمة للميول الطبيعية لبني البشر، فإن رغبتكم هي بالحصول على المثلث الحقيقي للشجاعة، بالتصدي لجميع المخاطر التي تهدد بالموت الجسدي، لكن تقدم وعداً بحياة خالدة للنفس، ومع أنني أقل الناس تأهيلاً لتقديم النصيحة والمشورة، لقد تأصلت نصائحي في رحمة الرب المانحة

للحكمة، لأنه هو وفي نفسه جيد إلى درجة أن جميع الأشياء الخيرة هي جزء من طبيعته وجوهره، وكل شيء في العالم، بصرف النظر عن طبيعته، هو بدرجة ما جيد تبعاً لدرجة المشاركة في جوده الكلي، وهذا ليس رأى الكاثوليك وموقفهم لوحدهم، بل هو موقف كل من يستخدم قليلاً من المنطق الفلسفي، وإنني مدفوع برغبات طبيعية— التي تبعاً للفلسفة ينبغي ألا تكون عبثية— وبما أنني متعاطف كلياً مع مطامحكم، وبعون من فضل الرب، الرب الذي لاحدود لحكمته سوف أتابع الآن لأضع باختصار، أمام واحد مجرب جداً وحكيم بفن الحرب، وهو جلالتكم الملكية بعض المقترحات التي بدت لي ضرورية، وموائمة، ومناسبة من أجل استرداد الأرض المقدسة، والحفاظ عليها.

٢[2] وبديهي أن هذا المشروع لايمكن أن يتحقق من دون مساندة صديقكم الأب المقدس، الذي هو بفضل النعمة الربانية الحبر الأعظم للكنيسة الرومانية المقدسة والمسكونية، ومن الضروري أيضاً الحصول على موافقة مجمع عام لجميع الأمراء الكاثوليك والأساقفة، الذي ينبغي أن يتولى إزالة جميع العوائق، وأن يقدم كل مساعدة، وجميع الإعدادات الموائمة، لأن تلك البلاد، تبعاً لما صرح به الرب، أغنى من جميع البلدان الأخرى، ومسكونة بكثافة من قبل المسلمين الذين استولوا عليها، وهؤلاء يمارسون طريقة شهوانية للحياة، تمكنهم حسبما يريدون من انجاب وتربية كل ما يستطيعونه من أطفال، إلى حد أن كثيراً من الممالك والمقاطعات الواقعة في شرق وغرب وجنوب الأرض المقدسة لم تعد كافية لتلبية حاجاتهم، ولهذا تراهم يهاجرون من هذه البلاد وفق طرائق التتار، وإذا حدث الآن وتراجعوا لسبب ما، من خلال الخوف من واحد من الأمراء مثلكم شخصياً، يمكنهم بسرعة وبسهولة أن يتجمعوا على شكل حشد كبير من الناس من هذه الممالك المجاورة، ووقتها عندما يعلمون بأن قواتكم على وشك العودة إلى الوطن، تجد هؤلاء المسلمين،

وهم أشد وأحد من أي وقت كانوا، وهم في أعداد كبيرة جداً، سوف يعودون على الفور، أي في لحظة مغادرة قواتكم، يحثهم على ذلك الشياطين الذين يفضلون السكنى في تلك البلاد، ولسوف يقتلون من تبقى، ويجعلون على الفور من أنفسهم ملاكاً لتلك الأرض اللطيفة وسادة، وظهر هذا التفضيل من قبل الشياطين من خلال حقيقة، أنه عندما أراد الرب شفاء رجل في تلك البلاد، كان مسكوناً بروح شريرة، فقال لتلك الروح: «ما هو اسمك»؟ وأجابته الروح: «اسمي لجئون لأننا كثيرون»، وأضاف «لاتنفينا أيها المولى إلى أرض نائية، بل ابعث بنا إلى الخنازير لندخل فيها» حيث كان هناك منها قطيع كبير جداً، وهكذا هاجت الخنازير، واندفع «القطيع من على الجرف إلى البحر» [مرقس٥/ ٢—١٣] ولهذا لايمكن الاستيلاء على تلك البلاد، ولا الاحتفاظ بها لدى الاستيلاء عليها، إلاّبوساطة أعداد كبيرة جداً من الناس.

[3] وفي سبيل اقناع عدد كاف من الناس للارتحال إلى هناك، والبقاء في تلك الديار سيكون من الضروري جداً أن يعيش الأمراء المسيحيين بوئام، وأن يتجنب أحدهم الحرب مع الآخر، لأن الناس الذين ارتحلوا إذا ما سمعوا بأن أوطانهم قد هوجمت وتعرضت للإفساد، سوف يتخلون عن ميراث الرب للعودة من أجل الدفاع عن ممتلكاتهم، وقد وقع هذا مراراً في الماضي، ولهذا بات من الضروري إقامة السلام بين جميع المسيحيين، أو على الأقل بين الذين يطيعون الكنيسة الرومانية، ومن المتوجب أن يتأسس هذا السلام على قاعدة ثابتة، حتى يتمكن المسيحيون من إقامة اتحاد مندمج بقوة ولايمكن شطره، لأن«كل مدينة منقسمة على ذاتها تخرب»، (متى ١٢ / ٢٥)، وذلك حسبما قال الرب، وإذا ما انقسمت يتعين علينا — بسبب هذا الانقسام بالذات — أن ندعم الدفاعات عن الأرض المقدسة، حسبما سيظهر ذلك فيما يلي، ولقد

رأينا الألمان والإسبان، مع أنهم مشهورين كمحاربين، قد توقفوا — بسبب الحروب المتواصلة بين ملوكهم— منذ زمن عن القدوم لتقديم العون إلى الأرض المقدسة، كما أنهم لن يتمكنوا من فعل ذلك بالمستقبل، والحروب القائمة فيما بين الكاثوليك مؤسفة جداً، لأن عدداً كبيراً من الناس سوف يلاقون حتفهم في مثل هذه الحروب، وهؤلاء ستكون أوضاعهم في الحياة المقبلة غير مؤكدة.

ويطلب الذين غالباً ما لجأوا إلى الحرب، الشروع بحرب جديدة، لأنهم ينظرون إلى الحرب كمسألة عادة، أكثر من عدّها وسيلة من وسائل التحسين، ولا يسعون إلى السلام بعد الحروب، ولابوساطة الحروب، ولايضبطون أنفسهم ولايخافون من تجديد الحروب، وبذلك تراهم وقد أخفقوا بالأخذ بما قاله الفيلسوف أستاذ الملك الاسكندر:«جميع الحروب شريرة في نفسها، وهي غير شرعية، إلى حد أن الذي يطلب الحرب من أجل الحرب، يكون قد وصل إلى الحد الأقصى من الشرور»، وعلى كل حال عندما يكون من غير الممكن ضمان السلام، إلاّبوسيلة الحرب، فوقتها مسموح للرجال الصالحين طلب الحرب، لابل مسموح لهم التحريض على الحرب، من أجل أن يحصل الناس على الطمأنينة في سبيل تحصيل الفضائل والمعارف بعد انتهاء الحرب، وبعد إقامة سلام دائم، وإلا فإن جميع الحروب— باستثناء هذا الهدف وحده— هي غير شرعية وهذا ما يقول به أيضاً أساتذة القانون المدني.

ومع أن آباءهم وأجدادهم تورطوا في حروب غير شرعية، نرى أن الأبناء الأحياء، وأرامل الموتى، مهما كانت الوعود التي وعدوا بها، يبدأون فوراً بالاستعدادات لحرب انتقام، وقد وقعت هذه الأحداث بسبب أن صانع الخلافات بوسائل الإغواء لديه، والاقناع، والخداع اللامحدود، والغش، قد بذل جهوده لزيادة عدد المدانين الآثمين معه،

وليثبط جهود استرداد الأرض المقدسة وإعاقتها، ولهذا إنه غير راغب بالسماح للقوى الكاثوليكية بالاتحاد، بسبب ماقاله الفيلسوف: «كل قوة متحدة أقوى من القوة نفسها متفرقة أو ممزقة».

هذا وإن الملائكة الأشرار، حسبما شهدت بذلك الكتابات المقدسة، حكماء جداً إلى درجة ربما معرفة الحوادث المستقبلية، لأنهم استوعبوا المعارف ودرسوا النجوم منذ بداية الدنيا، وهم على دراية بأسباب جميع الأشياء، والنتائج الناجمة عن هذه الأسباب، وهم يتذكرون كل شيء، ولاينسون شيئاً، وهم يرون أن الأسباب الفاعلة الآن ربما تنتج بعض النتائج المحددة، وبما أنه كما قال سليمان: «ليس تحت الشمس جديد» [الجامعة: ١/ ١٠]، يمكنهم الحكم والتقدير ورؤية الأحداث المستقبلية، بالتذكر بأذهانهم النتائج التي نتجت في مناسبة مضت عن أسباب مشابهة، ويمكنهم القيام بهذا بدقة أعظم مما يستطيعه الشيوخ الذين تقدمت بهم السن، لأنه صحيح أن الشيوخ يمكن أن يكونوا رأوا وجربوا كثيراً، إن معارفهم وتجاربهم هي لاشيء عندما تقارن مع معرفة الأسباب والخبرة الطويلة المتوفرة لدى الأرواح الشريرة، التي تعرف كل الأسباب والمحصلات منذ بداية الخليقة، حتى خبرة شارلمان، الذي يقال بأنه حكم مدة مائة سنة وعشرين سنة هي لاشيء عندما تقارن بخبرتهم، وقال حول هذا الموضوع الفيلسوف في الكتاب الثالث من سفر «الموضوعات»: «ما من أحد يختار الشباب قادة» لاسيما في الحرب «لأنهم يعدّون بلا تجربة، وأعطى في الكتاب السادس من سفر «الأخلاق» سبب هذا عندما قال: «نحن نرى كثيراً من الشباب المتبحرين بمعارف ما جاء بالكتب، لكنهم يفتقرون إلى حسن المحاكمة والقرار الصحيح في القضايا التجريبية، لأن استخلاص معرفة ما حدث في هذا العالم، يمكن الحصول عليها فقط من خلال التجربة الفعلية».

ويحتاج الحصول على الخبرة إلى وقت طويل، ومعروف أن الشباب قد

عاشوا حقبة قصيرة من الوقت، ورأوا من الأشياء القليل، وحصلوا من الخبرة على الأقل، ولهذا السبب ما من واحد صاحب عقل صحيح يمكن أن يختارهم قادة في الحرب، وينبغي أن يكون قادة الحرب أهل السن من الرجال وأهل الخبرة، وأن يكونوا استراتيجيين وذوي رأي في الحرب، وبالنسبة للشباب، فإنهم ينبغي أن ينفذوا أعمال الشجاعة تحت قيادة وتوجيه الأسن منهم، ومع هذا إنه إذا ما توفر رجل حسن، يمكنه بسبب طول تجربته، وذاكرته الجيدة أن يكون أفضل قدرة من رجل شاب، لأن يحكم على المستقبل، ويتوقع ما سيكون به، لابد من أن نفترض بعقلانية أكبر، أن ملائكة الشرّ، يمكنهم الحديث عما سيكون في المستقبل بتأكيد أعظم مما يمكن أن يفعله أكثر الرجال شيخوخة وتقدماً بالسن، ومن الواضح في ضوء هذه الحقيقة، أنه يمكن لملائكة الشر أن يقوموا عن طريق الاقناع، والاغراء، وبشكل خاص عن طريق المشورة الشريرة، بإعاقة جهود حتى عقلاء الرجال، وذلك إلى الدرجة التي يكونون فيها ذوي فائدة للآخرين الماهرين في الفنون المحظورة، من الذين يستشيرونهم عندما يرغبون.

ومثل هؤلاء الأشخاص كثرة كثيرة بين المسلمين، لأن شرائعهم لاتمنع مثل هذه الممارسات، بل تؤيدها وتوافق عليها، ويدفع هؤلاء الملائكة الأشرار، مع التحركات في السموات وتأثير النجوم الناس بشدة لاقتراف الآثام، والرجس، والتخويف، والمحظورات، وأعمال أخرى يمكن أن ينجم عنها حظوظ خيرة أو شريرة، ولحسن الحظ أن هذه القوى لاتستطيع أن تكبح إرادة الانسان، ولا أن تعطل حكم العقل المنطقي، ويمكن من خلال ممارسة الإرادة لدى الانسان مقاومة الاغراءات، والميول الشريرة،بتثبيت التوجه والاهتمام نحو الخالق، ونحو قيم الخير لديه، والإغراء الأعظم، والقوة الأكثر دفعاً نحو التحرك والمتملكة للتأثير هي قوة السموات، والرب في السموات يحتفظ بأعظم

الجوائز لمن يقاوم حباً بالشرف والاستقامة، وهو يمنح المزيد من الفضائل من أجل هذه المقاومة، وقد شهد الفيلسوف— أرسطو— لصالح هذا التوجه في الكتاب الأول من كتاب «القيم» بقوله:«قال هرقل مصيباً بأن الفضيلة تتقد دوماً في وجه المصاعب الكبرى، ونحن لانستحق لا المدح، ولا النقد، ولا المكافأة من أجل مواهبنا الطبيعية».

٣[4] ومن أجل استرداد الأرض المقدسة والدفاع عنها ضد مثل هذه الاعداد الهائلة، الذين اتخذوا الشياطين مستشارين لهم، يصفقون لهم استحسانا ويشاركونهم، سوف تكون الصلوات المخلصة جداً للكنيسة المسكونية، ولسوف تتم معالجة هذه القضية فيها بعد، ويتوقف الصالح العام للمؤمنين المسيحيين الذين يدينون بالولاء للكنيسة الرومانية على اتحادهم معاً بروابط للسلام، وبالاتحاد، وهكذا يتوجب على جميع الكاثوليك الامتناع عن إثارة الحرب، أحدهم ضد الآخر، وإذا ما لجأ بعدها أي انسان إلى الحرب، متحدياً هذه الوحدة، فإن ذلك العمل بالذات سوف يوجه نحو استرداد الأرض المقدسة والدفاع عنها، ومن الممكن عرض هذا وتنفيذه وفق الطريقة التالية.

عندما يعطي الحماس من أجل تحرير الأرض المقدسة ثماره في عقد مجمع كنسي، يمكن وقتها لجلالته الملكية الواسعة الخبرة الطلب من خلال السيد البابا، أن يتبنى الأمراء والأساقفة [المجتمعين هنا] نظام ما، يمكن بموجبه تأمين عدالة تامة، وفقاً للشرائع المحلية والعادات، ومنحها على الفور دونما تأخير إلى جميع من ادعى لحاق ضرر به أو أذى، ومن المتوجب ممارسة أعمال العدالة من قبل قضاة محليين قد جرى تعيينهم، أما في الأماكن التي لم يتم تعيينهم بعد، فيتوجب اختيارهم وفقاً للطريقة التي سيجري شرحها فيما بعد، فينبغي أن لايندفع كاثوليكي إلى حمل السلاح ضد كاثوليكي آخر، ولايجوز لأحد أن يسفك دماً معمداً، وإذا مارغب أي انسان في شن حرب، ليكن غيوراً

متحمساً في شن الحرب ضد أعداء الإيمان الكاثوليكي، وضد أعداء الأرض المقدسة، وجميع الأماكن التي قدسها الرب، ولابد من عدم تمكينه من امتلاك الفرصة بتسبيب الموت الجسدي أو الروحي لأخوانه بالإيمان بإثارة الحرب ضدهم.

٤— وكل جماعة تقوم مراغمة لهذا التنظيم الشامل فتغامر بشن حرب ضد أخوانها الكاثوليك، سوف يطبق بحقها عقوبة حرمانها من ممتلكاتها، وينبغي إنزال هذه العقوبة بجميع الذين قدموا العون لها، سواء أكان هذا العون بالقتال الفعلي، أو بإمدادها بالعتاد والمؤن، والسلاح أو الذخائر الأخرى أو بضروريات الحياة، وعندما تنتهي الحرب، من المتوجب نفي جميع الذين بقيوا أحياء بصرف النظر عن السن، والجنس، أو الوضع، وينبغي أن يكون النفي دائميا من البلاد ومن الممتلكات، كما ينبغي تجريدهم من ممتلكاتهم هم وأولادهم والذين يمكن أن ينحدروا منهم، ويجري ارسالهم للسكنى في الأرض المقدسة، وفيما يتعلق بالممتلكات التي انتزعت منهم، ومنها حرموا، إنهم إذا ما قاموا عن طواعية بتنفيذ أمر المغادرة إلى الأرض المقدسة، يمكنهم الاعتماد على هذه الأملاك لتأمين النفقات الضرورية للرحلة.

وعلى السيد البابا معاقبة الذين يشنون الحرب مع الذين نعلم أنهم قدموا بأية طريقة من الطرق العون أو الدعم لمثيري الحروب، أو تعاملوا بتزويدهم بأية نوع من التجهيزات أو المؤن، أو الماء أو النار، أو أي نوع من أنواع ضروريات الحياة، ويتوجب عليه عدم حرمانهم كنسياً، أو تجريمهم لاهوتيا، بل ينبغي تجنب تعريض خلاص أرواحهم إلى المخاطر، خشية أن يزداد عدد المدانين، وسوف يكون أفضل بكثير إنزال عقوبة مؤقتة بهم من العقوبة الدائمة، والعقوبة المؤقتة، مع أنها ألطف بكثير من العقوبة الدائمة، سوف تكون مخشية أكثر، وسوف تكون أكثر نفعاً إلى الأرض المقدسة، وسوف تكون أقل ضرراً بالنسبة

لأقرباء المجرم وذوي الارتباط به.

٥[5]: ويتعلق السؤال الآخر الذي يواجهنا هو: هل يمكن بسهولة إخضاع مثيري الحروب وهل سيكون من المفيد نفيهم إلى الأرض المقدسة؟، ودعونا نفترض أن دوق— أوكونت— بيرغندي شن حرباً على ملك فرنسا، الذي هو مولاه، فإن الملك، الذي لايعترف بسيد له على وجه الأرض، سوف يتخذ على الفور خطوات لمنع أي انسان من جلب أي شيء إلى أراضيهما من المؤن، والسلاح والتجارات، أو أي حاجيات أخرى، حتى ولو كانت مستحقة لهما لسبب من الأسباب، وبموافقة المجلس، الذي سوف يتألف من أمراء ورجال لاهوت، سوف يجري تطبيق هذا الحرمان ليشمل جميع الكاثوليك، تحت التهديد بالعقوبة المماثلة، ولسوف يطلب الملك مصادرة جميع أراضي المجرمين وممتلكاتهم وذلك من أجل استخداماته الخاصة، ولهذا عليه القدوم عندما يكون الموسم جاهزاً للحصاد، أو أبكر، وأن تكون معه قوة عظيمة من أتباعه ومن المناطق المجاورة، حتى يمكنهم حمل المحصول كله، وكل مالايمكن حمله أو استخدامه المباشر في المناطق المجاورة ينبغي تدميره، وكل ما يمكن حمله وحفظه ينبغي تكريسه من أجل إمداد الحصون العائدة للجيران المخلصين للملك والذين عانوا من خسائر في الحرب، وبهذا سوف يكونوا قادرين في المستقبل على الحفاظ على أنفسهم، وهم بحالة الاستنفار للحيلولة دون فرار صانعي الحرب، وخشية قيامهم بتدمير المناطق المجاورة، ومن المتوجب تجنب حصار الحصون التي هي بالعادة محمية، وذات وضع دفاعي جيد، في بلاد العدو، وإذا ما تحصن المجرمون في داخل قلاعهم، الأمر المحتمل كثيراً، ولم يغامروا بالتورط في معركة مكشوفة، فمن الممكن العيث بجميع أريافهم من قبل الجيش وحشود الناس الذين معه من غير المقاتلين، ويمكن للجيش كله مع أتباعه العيش من الأسلاب، وكل ما لايمكنهم

حمله ينبغـي تدميره، وبذلك لـن يبقى شيئاً لـدعم الحيـــاة، وإذا لم يقم المجرمون بمقاوـمة فعالة، بل تحصنوا داخل قلاعهم، خلف أسوارها في الجبـال أو في المستنقعات، على الانسـان عـدم طلب إماتتهم خشيـة أن تذهب أرواحهـم، وتنزل إلى الجحيم لتبقى إلى الأبـد، ولســوف يبرهن التجويع أنه عقـوبة أعظم فعالية، لأنه سـوف يؤثر ليس بالمعتدين فقط، بل بكل انســان مـن العظيم إلى الصغير، وكل واحــد ســوف يشعــر بالعقوبة، فهكذا أمر الرب وقضى من خلال النبي بإنزال العقوبة بالملك أجـاج وجميع رعيتـه من أول رجـل فيهم إلى آخـر رجل، كما أن الملك شـاول الذي رقي بأمـر من الـرب ودهن ليحكم على بني اسرائيل، قـد حرم من مملكته، لأنه بعدما منحه الرب النصر، احتفظ بحيوانات الملك أجـاج الضخمـة والسمينة من أجـل القيـام بتضحيتهم للرب، وجـرى استـدعاء داود، الذي كـان يتـولى حفظ أغنام أبيـه، ودهن ليكون ملكاً عوضاً عنه، وبهذه الصورة تمت عقوبة الملك شاول لعدم طاعته، وجرى إخبـاره من قبل النبي الذي حمل العقـوبة إليـه: «لأن الطاعـة أفضل من الأضحية» (الملوك ١/ ١٥/ ٢٢. صموئيل ١/ ١٥/ ٢٢).

٦: وعـاقب بالطريقـة نفسهـا الرب القـدير أبناء إسرائيل، لإقترافهم الذنب العظيم بخيـانتهم ربنا يســوع المسيح، وقتله، فأنزل بهم مجاعــة كانت من القسـوة بمكان أنها دفعت بالأمهات لشـوي أولادهم الصغار وأكلهم، فهذا مـا حكاه يوسفيوس في كتـابه عن التاريخ القـديم، حيث تحدث عن دمار القدس.

٧: وينبغي إعطاء غفـران كــامل من قبـل المجلس الكنسي إلى جميع الذين ـساـعدوا على تنفــيذ مشروع عـقوبة مثيري الحروب ونفيهم إلى الأرض المقـدسـة، وينبغـي تأكيـد هذا الغفـران من قبـل الذين سـوف يتـعاقبون على شغل منصب الحبر الأعظم للكاثوليك، وينبغي أن يـتولى دومـا الذين أرسلـوا إلى الأرض المقـدسـة، عن طريق العقـــوبة، قيـادة

الحمـلات على الاراضي المعادية، وبذلك يمكن أن يخدمـوا بمثابة سـور للدفاع بالنسبـة للآخرين، بما أنهم رحبـوا متطوعين بإثارة الحرب وشنها بناء على إثارة من الشيطان، ويـتوجب إجبارهم ـمرغمين على القتال في المقـدمة من أجل قتـال عباد الاوثـان، وأعداء السـلام، والوقوف ضـد الذين أنفسهم حرضوهم من قبل على الحرب.

٨: ومن الممكن كثيراً أن التهـديد بعقـوبة التجـويـع والنفي الدائم، سوف تكون بنعمـة الرب مخيفة جـداً، إلى حد يجعل التماسـات زوجات أمراء الحرب وأولادهم الصغـار، وآبائهم المسنين وأجدادهم، وكـذلك رهـبانهم، وأـساقفتهم، ورـجال الـدين الآـخرين، تنجح بالسيطرة على أمـراء الحرب هؤلاء العنيـدين والمتهـورين، وتؤثر على الحماس الضـال لشبابهم، وفي ظل التهـديد بمثل هذه العقوبة مـا من أحد سوف يغـامر بشن الأعمال العدوانية.

٩[6]: وإذا ما صار الكاثوليك بحـالة سلام بين بعضهم بعضاً، فإن المقـاتلين سوف يتـدفقـون من كل اتجاه نحـو الأرض المقدسـة، مع كل الاحتمالات بتمكنهم من استردادها والدفاع عنها.

١٠— ومضت جمهوريات: جنوى، والبندقية، وبيزا، من دون عقوبة من أجل خصومـاتهم التي لم تتوقف، وحـروبهم البحرية، التي غالبـا ما أعـاقت في الماضي استرداد الأرض المقـدسـة والحفاظ عليهـا، ولسـوف تحافظ هذه الجمهوريات، ومثلها ستفعل كومونتا لومبارديا، وتوسكانيا، والمقاطعات الأخرى، على سلام دائم، كل قوة مع القوة الأخرى، إذا ما تـقرر إمكانية قـيام أي واـحد من جيرانهم بتقديم شكوى ـضدهم على هذه الشاكلة.

١١— وإذا مـا رغب الحكام في إيقـاف النزاعـات بين هذه المدن، وإنزال العقوبة بهم، يمكن لأي واـحد من هؤلاء الحكام أن يستولى على

بضـائعهـم وأموالهم الموجـودة في مملكتـه والاحتفـاظ بها لنفسه،وإذا مـا أخفق إثرها بشن الحرب عليهم فوراً، ينبغي استخدام أملاكهم المصادرة وكل ما يمكن العثور عليه من بضائعهم، على الفور من أجل تمويل، أو ميزانية تتعلق بالأرض المقدسة.

وينبغي على الكرسي الرسـولي والأمـراء الذين تفجـرت في أراضيهم مثل هذه الحروب، ارغـام الذين لديهم بضائع وأمـوال عائـدة لمجرمين، على التجاوب مع هذه الاجـراءات والأخذ بها، في ظل التهـديد بعقوبة مصـادرة ممتلكاتهم، وتحويلها إلى التمـويل أو الميـزانيـة نفسها، وإذا مـا تبرهن أن هؤلاء الأمراء كـانوا مهملين في تنفيذ واجباتهم، بعدمـا جرى إبلاغهم من قبل المتولين لإدارة التمـويل المذكور، يتوجب أن يتعـرضوا لحرمان مماثل، ولمصادرة جميع ممتلـكاتهم، التي سوف يتم تحويلـها إلى التمويل نفسه.

١٢[7]: لكن مـاذا عن هـذه المدن وعـدد كبير مـن الأمـراء الذين لايعترفـون بوجـود سلطة عليـا على الارض فـوقهـم، تمتلك السلطة لتحكمهم تبعاً للشرائـع المحليـة والعـادات؟ وعندمـا ينخـرط هؤلاء الأمراء وهـذه المدن في الخلافات والصراعات، إلى مـن سوف يقـدمون شكاويهم ويلتمسـون الإجراءات القضـائية؟ ويمكن للانسـان أن يجيب بأن المجمع ينبغي أن يقـرر اختيـار محكمين: رجـال دين أو آخـرين، يكونوا رجالاً حكماء ومجربين، وأهلاً للثقة، وبعدما يقسم هؤلاء الأيمان يتـولون اختيار ثلاثة من الأسـاقفة للعمل بمثـابة قضاة، وثلاثة آخـرين لكل جـانب من أجل المناقشـات، وينبغي أن يكونـوا رجـالاً أقـوياء متماسكين، لهم أخـلاق مستبعـد إفسـادهـا بالحب، أو بالكراهيـة، أو بالخوف، أو بالجشع، أو بأي وسيلة أخرى، ويـتوجب اجتماعهم في مكان مناسـب لهذا الغـرض، وأن يؤخـذ عليهـم العهـد بأيمان محددة صارمـة، وينبغي أن تقدم إليهم مختلف مطالب الشـاكي والدفاع بشكل

مختصر وبسيط، وأن يتم ذلك قبل اجتماعهم، وبعد رفضهم أولاً لما ليس له عــلاقـة بالقضية ومقحـم فيهـا، عليهم تلقي الشهــادات والوثائق والبينات، وتفحصهـا بدقـة متناهيـة وبـوعي كـامل، وينبغي فحص أي شـاهد والاستماع إليـه بحضـور مـالايقل عن اثنين من الرجـال العلماء الذين هم مـوضع ثقـة عن طريق القسم حسبما بينا من قبل، ويتـوجب عرض الشكاوى كتـابة، وعلى القضاة الاحتراز وفحصها وصيـانتها من التزييف، ومنع أي غش من الدخول إليها أو تزوير.

وينبغي أن تكون نفقات اجتماع القضـاة معتدلة، ويتـوجب أن يؤخذ بالحسبان أن لاتتجاوز هذه النفقـات القضائية أكثر مما قـد ينفقه القضاة لو أنهم مكثـوا في البيت، وإذا مـا كـان مـرغـوبـاً يمكنهم الاستعـانة بمـقومين في إعلان الحكم، على أن يكونوا رـجالاً معروف أنهم ثـقة إلى أبعد الحدود، مع معرفة جيدة باللاهوت، وبالقانون، وبالشريعة المدنية.

وإذا كان واحـداً من الطرفين غير قانع بالحكم، يتـوجب على القضاة الذين بــتوا في تلك القضـية، إرـسال سجل ـبالاـجراءات إلى الكرسي الرسـولي، مع قــراراتهم، لتعـديلهـا وتغييرها من قبل البــابا الذي هو بالسلطة، إذا ما ـكانت تلك التعديلات ـعادلة، وإذا كانت الأحكام كما هي عــادلة، ولم يحدث أي تغيير، سـوف يتم تثبيـت الحكم بشكل لائق من أجل السجل الدائم للقضيــة، ومن ثم تدخل إلى سجلات الكنيسـة الرومانية المقدسة.

١٣[8]: ويوفر تغيير الحكـام بالامبراطورية، بالعادة، فـرصاً لاتحصى من أجل الصراع في ألمانيا من خلال أعمال التدخل في إجراءات انتخاب الامبراطور، وبسبب الفـوضى التي رافقت هذه الحالة في الماضي، غالبـاً ما أعـاقت استرداد الأرض المقدسة والحفـاظ عليها؛ ولعل توفـر سلام دائم في الامبراطورية الرومانية المقـدسة سوف يسهم كثيراً في بلورة هذا الهدف، وذلك إذا مــا أخـذنا بعين التقــدير الأعمال الجيــدة التي أتيح

للملوك الألمان القيـام بها، والتي من الممكن لهم القيام بها أثنـاء حيـاة الناس الأحيـاء، لو أنهم ورثوا المملكـة والمجـد الامبراطـوري بدون صراع، بما في ذلك قوة جبـارة، وخزائن مليئة مخبئة لهم ومخزونة من قبل آبائهم، ووقتهـا لن يكون هناك شغـور بالعـرش، ولا انقطاع بالحكم أو توقف، وإذا مـا أخـذنا أيضـاً بعين التقدير الأعمال الجيـدة التي قـام بها الأباطرة، كما قيل في الأيام الخوالي، قبل ظهـور هذه المعيقـات الحديثـة، وذلك من أجل إيقـاف الحروب المؤذية للجسد وللروح، وهي حـروب قـامت من خـلال الطمـوح للحصـول على الملك وعلى المجـد الامبراطوري، هذا وإنه بتجنب الخسائر الثقيلة المعـتادة، يمكن أن يأتي من المملكة ومن الامبراطورية عون كبير جداً من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، ومن أجل كثير من المنافع الدنيوية الكثيرة، التي كـان من الممكن لنا الحصـول عليهـا منـذ زمن بعيـد، من تلك البـلاد، فضلاً عن هذا كله، ينبغي عدم زوال ازدهار وتقدم الصالح العام لتلك المملكة، ولإمبراطورية ذلك الشعـب النبيل، وينبغي اتخاذ خطوات لمنح مملكة ألمانيا وامبراطوريتها بشكل دائم إلى ملك جديد، وللازدهار الذي سـوف يرافقـه، فهـو قـد يقـدم بعض التنازلات الطفيفـة حـول مسألة الممتلكات والامتيـازات والإعفـاءات العـائـدة لـلامبراطورية من أجل تجنب الخلافـات، ولإسكات الناخبين واشبـاع رغبـاتهم، زد على هذا يتـوجب على الملك الجديد، الذي سـوف يكون الامبراطور أن يشترط على نفسـه، وأن يعـد بتقـديم دعم سنوي من أجل مصـالح الأرض المقدسـة ومنافعها، مادامت هي بحاجـة إلى ذلك، وينبغي أن يأخذ هذا الدعم شكل قوة عسكرية كبيرة، يتوجب أن تكون على حسابه الخاص، وأن ترسل إلى الموانيء البحرية مسلحـة تماما ومجهزة، مع أغطيـة مناسبة لمثل هذه الحملة، وموائمة لإقامتها في الأرض المقدسة.

١٤[9] : وأن يقـوم الامبراطور والأمـراء الآخـرين بتأمين الأعتـده

والسفن من أجل ارسال عساكرهم عبر البحر، سيكون ذلك مكلفاً جداً، وبناء عليه إنه من الأفضل تأمين ذلك إلى المحاربين بشكل إفرادي، متى جاءوا، ويبدو أن هذا الهدف من الممكن الوصول إليه بسهولة وفق الطريقة التالية، وهي طريقة عرضة للتغيير والتصحيح من قبل السلطات المسؤولة:

يمتلك الداوية والاسبتارية والتنظيمات الأخرى التي تأسست من أجل مساعدة الأرض المقدسة، موارد كثيرة، وبضائع، وممتلكات على هذا الطرف من البحر المتوسط، الذي كان ذا فائدة قليلة حتى الآن للأرض المقدسة.

وكانت هذه التنظيمات في أوقات الحاجة القصوى منقسمة بين بعضها بعضاً، ولهذا كانت معاقة ومعطلة وبيوتها عرضة للسخرية، ومن ثم إلى فضائح شنيعة، ومن هنا إذا كان في وجود هذه التنظيمات أية فوائد للأرض المقدسة، إنه لمن المرغوب فيه، ومما يُنصح به، دمجها في منظمة واحدة، بالنسبة للمظهر، والملبس، والرتب، والممتلكات، وذلك حسبما يراه المجمع المقدس مناسباً، وعليهم أيضاً البقاء في الأرض المقدسة، يعيشون على واردات ممتلكاتهم هناك وفي قبرص، إلى أن يتمكنوا من استرداد استملاك ممتلكاتهم بسلام، وممتلكات من هذا النوع تكون كافية لإحتياجاتهم، مع مؤن يمكن تزويدهم بها من مصدر ما آخر.

١٥: وينبغي أولاً أن توضع ممتلكاتهم الموجودة في كل مكان على هذا الجانب من البحر المتوسط، تحت الوصاية هي ومواردها، وذلك لمدة ثلاث سنوات أو أربع ، وأخيراً ، أو على الفور، ينبغي تحويل هذا إلى وقف، إذا أمكن الوصول إلى ترتيبات شروط مرضية، ويمكن بهذه الوسيلة تحصيل مالايقل عن ثمانمائة ألف ليرة تورية سنوياً من الداوية والاسبتارية.

وينبغي احصاء الأموال التي جرى جمعها منذ سقوط عكا، واضافتها إلى الأموال الأخـرى، ومن الممكن استخدام هذه الأمـوال لشراء سفن، ومؤن وبقية الحاجيات الضرورية الأخرى إلى المحاربين الذين سيقومون بعبور البحر، ويمكن بهذه الطريقة ضمان عبـور حر ومريح في المستقبل، وسيكون ذلك مـتوفراً لجميع الذين يرغبون ـبالعبور، حتى بالنسـبة إلى أفقر الناس، ويمكن للسفن أن تجلب معهـا من الأرض المقدسـة مايلزم من منتجـاتها ومـــاهو مطلوب هنا، وحمل منتجـاتنـا إلى هناك، ذلك أنه سيكون من السهل آـنذاك شحن البـضائع من بلد إلى بـلد آـخر، وحين نأخذ هـذه الأمر بعين التقدير، سـوف يندفع المسيحيون الـذين يعيشون على هذا الطرف من البـــحر، أو في مكان آـــخر، بشكل طبيعي للتفكير للدفـاع عن الأرض المقـدسة، ولحماية سـلامتهـا، ومن الممكن أن يحمل بهذه السفن من المناطق الخصبـة في الجزر وعلى سواحل البحـر المتوسط كثيراً من المؤن والحاجيات الأخرى، وبذلك لن يعاني من النقص بالمؤن أحـد من المحـاربين أو من الذيـن تمركـزوا في كل مكان قـرب البحـر، وينبغي إلقاء أعضـاء التنظيمات المتقدمة الذكـر، الذين شعروا حتى الآن أنه من غير الموائـم لهم عبـــور البحـــر والعيش هناك، في ديـرة طائفـــة السسترشيان وفي ديرة الـطوائف الأخرى المزدهرة، لقـضاء العقوبة على تجاوزاتهم، وعليهم أن يعيشـوا هناك مع الرهبـان، ولسـوف تتلقى هذه الطوائف قليـلاً من المسـاعـدات، مـن أجل الانفـاق على هؤلاء الداوية وسواهـم، ويستمر ذلك حتى يأتي الوقت الذي يمكن تحريرهم فيـه من هذا العبء، أي عبء دعم أعضـاء هذه التنظيمات العسكرية والانفـاق عليهم.

ولســـوف يكون الدخل السنوي من هـذا المصـدر كبيراً، وبوســـاطة ضخامتـه سوف يكون سـوء المعتقد لدى الداوية والاسبتـارية واضحاً، وسوف يغـدو مرئياً كيف أنهم قـاموا حتى الآن، من أجل هذا الدخل،

بخيانة الأرض المقدسة، وأخفقوا بالقيام بواجبهم نحوها، وعندما تصبح الأمور موائمة وواضحة فإن هذا الدخل السنوي سوف يتضاعف بشكل فعال بوساطة تبرعات المؤمنين، والممتلكات المصادرة العائدة إلى الذين أثاروا الحروب العدوانية، ومن مصادر أخرى كثيرة، ولسوف يجري توضيح هذا أكثر فيما يلي:

١٦[10]: لقد كانت الأرض المقدسة حتى الآن سيئة التزويد بالمؤن بسبب الصراع الكبير بين الشعوب، ولهذا فإن الأب المقدس، الذي قيل بأن هذه القضية هي شغله الشاغل، سوف يقوم بحث كل نائب له أن يرسل إلى هناك أكبر عدد من المقاتلين، وذلك بقدر ما تسمح له موارده، وسوف يجري تصنيف هؤلاء بوساطة زي موحد متميز بالنسبة للفرسان وكذلك بالنسبة للرجّالة، وأن يجري تزويد كل فئة برنك واحد مع الراية العائدة إلى الحاكم الذي أرسلهم، وسوف يتولى السيد البابا الاشراف على تنفيذ هذا الأمر، وأن يلتزم بتنفيذه الأمراء العلمانيين، وأن يتولوا القيادة شخصياً إذا كان يمكنهم هذا بدون صعوبة، وإلاّ على كل منهم تعيين شخص مناسب يتولى قيادة القوات عوضاً عنهم، وأن يكون مجهزاً برنوك الإمارة وشعاراتها وأعلامها، وبهذه الوسيلة سوف تتمكن جميع الشعوب المحلية لمملكة أي أمير من الأمراء، بصرف النظر عن وضع الذين أرسلوهم إلى هناك، من تشكيل جيش واحد، وإذا لم تكن أعدادهم كافية لذلك، يتوجب أن يضاف إليهم أناس من الأقرب إليهم، الذين يفهمون لغتهم، وتكون الزيادة بأعداد كافية لتشكيل جيش، وينبغي تشجيع الرجال من كل مرتبة، لابل حتى النساء من الأرامل وكذلك ا لمتزوجات على إرسال رجال مجهزين بما فيه الكفاية يرتدون الزي نفسه مع الشعارات والرنوك ذاتها، وعلى الوكلاء أن يبعثوا بفرقهم النظامية للموسيقى العسكرية، للقيام بالمرور بالمدن، وبالبلدات والطواف مع أصوات الأبواق، وأصوات بقية الآلات

الموسيقيـة والأغـاني، وأن تكون معهم الـرايات البراقـة، فـذلك سـوف يحرك مشاعر الناس ويشجعهم جميعاً، ويؤثر عليهم بقوة من أجل عبور البحر، أو ارسال آخرين بتجهيـزات موائمة، وسوف يزيد هذا التجييش أعداد االمحاربين إلى ما فوق حدود التصور.

١٧: وينبغي اقناع الأمراء والأعيان الآخرين الذين يشاركون بالحملة بأن يتعهـدوا، أنهم إذا مـاتركـوا جيـوشهم بسبب الموت أو المرض، أو العودة إلى الوطن، أو مهما كان المحرض والسبب، أن يتركوا هناك عدداً محدداً من العسـاكـر مع أسلحتهم ورنـوكهم وراياتهم، ومع نفقـة حتى تمكنهم من العيش بشكل منـاسب، ولسـوف تتلقى هذه النفقـة زيادات حتى تصبح كافية، وذلك من مصادر التمويل العائدة للأرض المقدسة.

١٨: وينبغي اقناع أي شخص متمكن وقـوي من كـلا الجنسين، أن يعد بالقيام، بعد ضمان سـلامة الطريق، بارسال— على الأقل— نفقات العدد الذي يمكنـه من العساكر، وذلـك في السنوات التالية، مـع أموال لمساعدتهم أكثر، ويتوجب نقل هـؤلاء العساكر مع زوجاتهم، عبر البحر حتى يقـوموا بسكنى الأرض المقـدسة، وأن يشحنوها بالناس على قـدر الحاجة للاستيلاء على تلك البلاد والاحتفاظ بها.

١٩: زيادة على هذا ينبغـي أن يبقى فـرسـان ذوي تجربة، وحكماء، ونشطاء، بحيث يحملـون رنوك بعض الأمـراء الكاثـوليك، وأن يكون معهم حملة للرايات.

٢٠: وينبغي أن يسمح لكل مملكـة كـاثوليكيـة، لابل بـالحقيقـة لكل منطقة واسعة أيضاً،، باحتـلال إحدى المدن، أو القلاع، أو المواقع الهامة هناك، مع بعض المناطق المتاخمة، وأن يكون حجم المنطقة المحتلة متماشياً مع عـدد الأتبـاع الذين شـاركـوا في الحملة، وبذلك يتمكن القـادمـون الجدد، بعدمـا انهكتهم مصاعب الطرقـات، ومختلف أنواع أماكن النوم،

والنقص في أشياء أخرى، يتمكنون وقتها من نيل البهجة والسرور في أماكن وأجواء معتادين عليها، وذلك بعد حزنهم، ومتاعبهم، وأساهم،ومن الواجب تغيير أسماء تلك الاماكن، واختيار أسماء جديدة لها بموافقة الأكثرية تحمل ذكرى، أو الاشارة إلى المملكة أو المدينة الرئيسية، التي جاء منها السكان الجدد، وسيمنح هذا كثيراً من الطمأنينة إلى المتأخرين بالوصول، بعد معاناتهم من التعب والشدائد، وسيتمكن الضعفاء من الواصلين، وسط هذه الراحة وهذا السرور، من استرداد عافيتهم بسرعة أكبر، أما الأقوياء الذين ألم بهم الضعف الطارىء فسوف يستردون نشاطهم بسرعة أكبر، وسوف يستعيدون قواهم الطبيعية وحماستهم، وعندما يعودون من القتال مرضى أو جرحى، سوف يشفون بسرعة بمساعدة الأطباء والجرائحيين، الذين يتولون العناية بهم بحرص وتيقظ، وبفضل الراحة والمنافع والأسباب الأخرى التي تقدم لهم، ولاسيما إذا ما كانوا بين أبناء بلدهم، فوقتها سيتعافون بسرعة أكبر، بسبب الآمال التي يقدمها لهم أبناء بلدهم مع الراحة والعناية، ولسوف يعودون إلى القتال وهم أقوى، وأكثر شجاعة، وبدون خوف بفضل الراحة التي نالوها.

٢١[11] : وفي سبيل تجنب أي خرق للنظام الجيد، أو للحقوق المتبادلة، فيما يتعلق بالتخطيط للحملات، وفي تعيين الأماكن للاستقرار في الأرض المقدسة، ينبغي أن يتقرر، أن الذين نفيوا بسبب إثارة الحروب، أو بعثوا إلى هناك عقوبة لهم للقيام بأعمال مشابهة، مشاركتهم في الحملة الأولى، أو الحملات، وسوف تكون أماكن استقرارهم بالحري -قريبة من الأعداء، وفيما يختص بالذين -جاءوا من بعدهم، فليعين إلى هؤلاء الحدود الجبهوية نفسها.

٢٢: وخشية من قيام خلافات ونزاعات بين الأمم حول مسائل اختيار المدن الكبيرة، مثل القدس وعكا ومن ثم احتلالها، يبدومن

الموائم، ومن المنطقي، أن يسمح لأناس من مختلف البلدان بالدخول إليهما، لابل أن يسكنوا فيهما إذا مارغبوا بذلك، وستكون الترتيبات نفسها معقولة في حالة المواقع الهامة الأخرى على شاطىء البحر، أو القريبة من البحر، حيث تكون قد تجمعت هناك مختلف التجارات من مختلف البلدان.

٢٣: وينبغي أن يكون لكل مدينة مع المنطقة المعينة لها، قائداً عسكرياً مع قادة مئات أدنى منه، وتحت إمرته، ويتوجب تقسيم كل مائة رجل أوكلت قيادتها إلى كل قائد مائة إلى ثمانية حضائر، يكون في كل حضيرة بالعادة اثني عشر رجلاً، وفقط قائد المائة سوف يكون معه في حضيرته خمسة عشر رجلاً، وبهذه الطريقة سيعرفون دوماً إذا ما كانوا يمتلكون قواهم الكاملة، وعلى كل واحد أن يحرس الآخر بعناية، ويدافع كل واحد عن الآخر حتى الموت.

٢٤: وينبغي بعد هذا أن يتقرر كم عدد المقاتلين الذي يمكن أن تقدمه كل مدينة للجيش، وعلى قائد كل مائة أن يتفقد الرجال الذين تحت إمرته، ويتأكد أنهم قد تدربوا على استخدام السلاح، الذي يتوجب عليهم استخدامه وفقاً للتوجيهات الصادرة عن القائد الحربي لمدينتهم.

٢٥: وقد روي بأن التتار الذين يشنون الحرب وفقاً للطرائق والعادات التي كانت في أيام الاسكندر، (تبعا لسيرة الاسكندر، اعتاد القادة الفرس في تلك الآونة على مركزة كل أسرة من الأسر تحت السلاح) لايستخدمون المال، ولايشترون المؤن، وإنما يأكلون من الأسلاب التي يحصلون عليها من الأعداء، وعلى الميرة والأطعمة التي جمعوها من قبل، وعلى ما ينتجه الأعداء، وهم لم يتولوا قط إلقاء الحصار على موقع حصين، وفي احدى المرات تجمعوا خلال خمسة أيام أو ستة واحتشدوا من كل اتجاه في الساعات الأولى من النهار، للقيام بهجوم بمختلف الطرق وفقاً لأساليبهم، وظلوا كذلك حتى المساء،

فـوقتهــا عــادوا إلى أكــواخهم وإلى أزواجهم، وأولادهم، وإلى ذويهم، وليس مـن المفيـــد الإصرار على مثل هذه الطـرائق، حيث ينبغـي تنوع التكتيكات وفقـاً للزمان والمكـان، والعدو، وعسـاكـرنا وبقية الحقـائق، وذلك حسبما مارس قادة الحرب لدينا ويمكن أن يقرروا.

٢٦ [12]: وفي العادة يعتري التعب العساكـرمع مطاياهم، وهذا أمر طبيعي بالنسبة للرحلات البحرية، وذلك لـعدم توفر مراكب قادرة على نقل أعداد كبيرة ـجداً من الناس في وقت واحد، كما ولاـيوجد ميناء في أي مكان من الممكـن أن يصعــدوا منه على عــدد مـن السفن في وقت واحـد، كما لايمكنهم النزول من السفن إلى الميناء في وقت واحد أيضـاً، ومن الممكن في ظل هذه الظـروف، أن يكون من السهل تمزيق الأعـداد القليلة التـي وصلت في وقت واحـــد من قبل العـــدو الشرس، الذي تسـاعده مـلائكة الشر التي تعـادي هذه الحملة التي تسعي إلى الحد من قواهم، وفي سبيل تجب مثل هذه المأساة، يبدو أنه من المفيد اتباع طريقة ذلك المقـاتل الجبـار، وأعني به شـارلمان، بجعل الجزء الأكبر من الجيش يأخذ الطريق براً، وذلك بعد الحصول على الأذن من باليولوغوس -Pa laeolagus[امبراطور بيـــــزنطة— أندرنيكـوس الثـــاني ١٢٨٢— ١٣٢٨] ومن الأمـراء الآخرين الذين سـوف يزحف الجيش من خـلال أراضيهم، وينبغي أن يطلب من ـهؤلاء الأـمراء إعطاء ـمدخل آمن إلى بلادهم، ومر فيها وتخرج منها، وكذلـك السماح للمسافرين الأفراد، مع تمكينهم من الحصـــول على ضمان تأمين الميرة والمأوى بالسعـــر العـادي المتـداول، الـذي يدفعـه السكان المحليــون، كما يتـوجـب على الأمـراء المحليين السماح بدون مقابل، مع تسريع أعمال، نقل المؤن من كل اتجاه، إلى الطرق المختارة من أجل العبـور، وذلك بوساطة تعليق بعض، لابل كل، الضرائب، ومع أن هـذا الطريق طويل أكثـر، فـإن عـدداً كبيراً من الناس سيقع اختيـــارهم عليــه ممن لايتجـرأون على السير على الطرق

الأخرى، أو هم غير قادرين على فعل ذلك.

ولسوف يكون من المفضل كثيراً توجيه الضربات إلى العدو من كثير من النقاط بدلاً من نقطة واحدة، ويمكن للألمان، وللهنغار، وللاغريق، ولكل الذين يعيشون إلى الشمال منهم، السير على هذا الطريق نفسه المذكور أعلاه، ولقد قرأت في «تاريخ القدس» بأن الامبراطور فردريك بربروسا قد سار على هذا الطريق، وهو الذي غرق في واحد من أنهار أرمينيا، بينما كان يستحم بسبب الحر، وقد حدث هذا في أيام صلاح الدين ملك الآشوريين [كذا]، الذي هرب من أمام الامبراطور، وتخلى له عن كثير من البلدان والمواقع الحصينة.

ومن الممكن قبول كل انسان من ممالك انكلترا، وفرنسا، واسبانيا، ومن جميع الذين يعيشون على هذا الطرف من الجبال، للانتقال بحراً، وكذلك اللومبارد، والتوسكان، والأبوليين، والغلاطيين، والصقليين، وذلك مع الذين يقطنون الجزر الأخرى من ذلك البحر، ويمكن للذين يخافون من البحر اختيار الطريق الأطول على حسابهم وبجهودهم.

٢٧[13]: وبديهي إن التعاون من أجل مهمة استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، أمر هام جداً، ويقتضي الأمر كذلك أن تكون قوى جميع أعضاء الكومنولث الكاثوليكي متوائمة وموحدة، وسيكون من الضروري بالدرجة نفسها، السعي من خلال الأدعية التقوية للكنيسة العالمية نحو الحصول على المنافع الكبرى للسلام، وعلى الاسترداد، والوقاية من الرب الذي تتدفق منه البركات، وهو الرب والمولى للجيوش، وهو وحده سبب السلام والنصر، ولايمكن مطلقاً استرداد الأرض المقدسة، والاحتفاظ بها، إذا ما عدّ قادة الحرب والعساكر الذين تحت امرتهم، أن الاعتماد على قواهم الخاصة كافياً للحصول على نصر عظيم من هذا النوع، والحفاظ على ثماره بشكل دائم، فبهذه الوسائط لن يكونوا قادرين مطلقاً على مقاومة ملائكة

الشر، الذين يناضلون ضـدهم، ولن يكونوا قـادرين أيضـاً على مقاومـة إغراءاتهم وإغواءاتهم، لأنه من المعتقد أنهم سوف يتمكنون ببراعتهم من إعاقة المقترحات، المطروحة أعلاه، بقدر ما يستطيعون .

ولهذا السبب يبـدو أنه من الموائم السعي من خـلال المجمع احـداث إصلاح وتغيير في أوضـاع الكنيسة المسكونيـة، بحيث يمتنع الأسـاقفة، من الكبير إلى الصغير، عن ممارسـة المحظورات، التي حـرمهـا الآباء المقـدسـون، ويمكنهم بذلـك الإصغـاء إلى مثل، وشرائع، وآراء الآباء، والأخـذ بها ومـراعـاتها تماشيـاً مع قـول النبي: «حـد عن الشر واصنع الخير. اطلب السلامة واسع وراءهـا»[المزامير: ٣٤/ ١٥]، ووقتها عندما يتملكون السلام في قلوبهم، فـإن جميع الكهنة، مع رجال الدين قـاطبة، والناس الواقعين في عهـدتهم، سـوف يقـومـون بشعـور روحي واحـد بتشكيل جسـد سيـاسي واحـد، ووقتها سـوف تتحقق كلمـة الرسـول: «وكان لجمهـور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحـدة» [أعمال الرسل: ٤/ ٣٢]، أو حسب تعبير الفيلسفـوف: «جميع الفضـائل متحـدة أقـوى منها متفرقة وموزعـة»، ويمكنهم وقتها من خلال تقواهم، وتواضعهم، وصلواتهم المتـواصلة الحصـول على هبـة النصر الدائم على الكفـار، من الرب، الذي عندمـا سأله سليمان منحـه الحكمـة وحـدها، أعطاه أيضـاً الذهب والفضـة وبقية الثـروات الدنيوية بحيث تفـوق على جميع الذين سكنوا في القدس قبله.

وكـون هذا الإجراء أمـراً ينصح به، يمكن استخـراجه من حـوادث حـروب يهوذا المكابي ذلك المحارب الرائع مع أخـوانه، فطوال الوقت الذي اعتـمدوا فـيه على ـقواـهم الخـاـصة استـمروا في الاخـفـاق في القتال،لكنهم حصلوا على النصر عندما طلبوه من السماء، والتمسوه من الحاكم الأعلى على جميع الجيـوش، وهكذا تحقق مـا قـاله الرسـول:«لأن كل مـا سبق فكتب كتب لأجل تعليمنا»(رومـا: ١٥ / ٤)، وعلى هذا

يتوجب علينا الافـادة من حكمة الكتابات المقـدسة، وليس من حكمتنا الخاصة، وذلك تماشياً مع نصيحة سليمان حيث قـال: «يابني على فهمك لاتعتمد» (الأمثال: ٣ / ٥)، وعلى هذا تأسس القانون الذي قال: «لايجوز لأي إنسان أن يعتمد على فهمه».

[15]: ولهذا ينبغي أن نسعى في سبيل سـلام عالمي، وأن نلتمسـه من الرب، وبذلك يمكننا بوساطة الـسلام، وفي حقب السلام الحصول على فضيلة كـاملة، ومعرفـة، لايمكن بوسيلة أخـرى الحصـول عليها، وقـد أدرك الرسول هذا عندما قال: «وسلام الرب الذي يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم وأفكاركـم» (فيلبي ٤ / ٧)، أفكاركم التي هي نفـوس منحت عقـلاً، والتي هي بالعـادة تتـدمـر بالحروب، ولاتنال الحماية، وكـذلك بالفـوضى، وبالتشـاحن المتـواصل في المحـاكم، الذي بالسـوء مثله مثل الحرب، ولهذا ينبغي على كل إنسـان جيـد أن ينأى بنفسـه عن هذه الشروط بقدر الإمكان وأن يتجنبها، وعندمـا يضطر الانسان إلى اللجوء إلى هذه الوسائل، لأنه يكون غير قادر على انقـاذ حقوقه بوسيلة أخرى، ينبغي أن يختصرها بقـدر الامكان، وأن ينشـد السلام وتحصيـل حقوقـه بهذه الوسـائل، بقلب سماوي فقط، وهذا مـا بشر به الفيلسـوف عندمـا قال: «الحرب هي وفي نفسهـا خطأ فادح، وشر مستطير، وكل من يسعى وراء الحرب من أجـل الحرب، يكون قـد وصل إلى أقصـى حـالة الشرور»، ومثل هذا، لكن ليـس بالدرجـة نفسهـا من التطرف، شرور الصراعات الأهلية، والاضطرابات.

٢٨ — والهدف الذي نسعى إليـه الآن، والذي هو غـايتنا الرئيسيـة، هو السلام الـعالمي، وحسبما قال الفيلسوف: «غاية كل عمل ـقائمة أولاً في مقصده، وأخيراً في تنفـيذه»، وعلينا أن نقوم أولاً بإزالة ـكل عائق في وجـه السـلام العـالمي، واحتمالات فـرص هذه العـوائـق، وبذلك نتبع الأسس التي عبر عنها الفيلسوف بقوله: «على كل من يؤيد توكيد هرقل

أن يتخلى ويتنازل عن كل شيء سيتخلى عنه هرقل ويتنازل لو أنه كان حاضراً»، أي عن كل سابقة ومحصلة للتوكيد، لأن التنازل، أو التخلي، عن أي شيء معارض للاقتراح الأول، سوف ينتهي بدحض مشين جداً.

٢٩[15] : يشغل الأسقف الأعلى(أي البابا) — مرآة الدنيا كلها — منصب بطرس المبارك أو كرسيه، وبطرس المبارك هو أمير الرسل، ونائب ربنا يسوع المسيح،المخلص والأب للأرواح كلها، وإذا ما أراد البابا أن ينقذ الأرواح كلها، ويحفظها ومن ثم إعادتها إلى أبي جميع الأرواح، عليه أن يسعى جاهداً إلى إز الة كل حرب من الحروب، وكل ثورة، وكل نزاع، وأن يعلن أن هذا ما ينبغي القيام به، كما يتوجب عليه أن يبدأ بنفسه وبأخوانه الكرادلة، والأساقفة، أي أن يقوم بامتثال ما قد كتب وينفذه وهو:«يسوع ابتدأ يفعله ويعلم به»، (الأعمال: ١ / ١)، وكما قال الرسول:«دعونا نعمل الخير لجميع الناس، بقدر ما نعمله لأنفسنا، ولاسيما للذين هم من أهلنا من أهل الايمان»، (غلاطية :٦ / ١٠، بتصرف)، وعليه أن يتفحص البطاركة، ورعاة الديرة، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، وبقية الكهنة والذين يشغلون مناصب دوقيات، أو كونتيات، أو بارونيات، مع بقية ذوي المناصب الدنيوية، وأن يعرف كيف يعملون، وكيف ينخرطون في أعمال القتال، وكيف هم أنفسهم يثيرون الحروب، التي فيها كما نرى، يلاقي الكثيرون الموت بمشاعر دنيوية — حسبما يحكم الناس — وأيضاً بمشاعر دينية، وأن يرى كيف أن الأساقفة الذين يتورطون بالحرب، يكرسون وقتاً طويلاً للعناية بحروبهم، ويهتمون بها، أكثر من اهتمامهم بخلاص أرواحهم، وأن يرى كذلك كيف أنهم يبددون الكثير من الوقت والمال على هذا النوع من الأشياء، وبالتالي يخفقون في مراعاة ما كتب، حتى في القانون المدني، من أن الاهتمام بمصالح النفوس البشرية هو الأولى بأن يعطى الأفضلية على

كل شيء آخر، وفي البلـدان التي لا ينشغل فيها هؤلاء الأسـاقفة بأعمال القتـال، كما هو الحال في إنكلترا وفرنسـا، يمكن للانسـان أن يرى كيف أنهم يوقفـون أوقـاتهم على النزاعـات الناشئـة عن الممتلكات الدنيـوية، وكيف أنهم أهملوا العنايـة بأرواحهم، وانصرفـوا نحـو أعمال التحكيم المتـواصلة، وإلى إدارات الأموال، وإلى الذين يحيطون بالأمـراء من أجل تعـويضات معتـدلة، وكيف أنهم يناضلون ويبذلون جهـودهم في سبيل سادتهم وأوليـاء أمورهم مع الخاضعين لهم لكي يبـددوا في هذه القضايا ممتلكات الكنيســة التي هـي ملك لفقــراء يســوع المسيح، وكيف أنهم يدفعـون تعـويضات وجـوائـز للمحامين، وللوزراء، ولقضـاة القـانون البشري أعلى بكثير مما يدفعونه إلى المختصين بالقـانون اللاهوتي، وكيف أنهم يهجـرون كنائسهم، ويترددون على القصور ورفقـة الملوك من أجل أن ينالوا البراعـة والخبرة في مناقشـات المنتـديات، وكيف أن التـلاميـذ الشبـاب، يقومـون بعد مشـاهدتهم لعـادات ولأعمال الأساقفـة، بإهمال دراســة الفلسفـة، والقـانون الـلاهوتي، ويتـدفقـون جميعـاً على مـدارس القـانون المدني، ولاينالون في هذه المدارس: بوسـاطة البراعـة القانونيـة، المنافع الكبيرة فقط، بل الأسقفيــة العليـا أيضـاً، وهم بذلك إنما يحذون حذو الكثيرين الذين نجحوا في استحواذ الأسقفيات الكبرى من خلال معــارفهم وممارسـاتهم للقــانون المدني، أو لم نصل إلى نقطة بات فيهــا الكهنة النظاميـــون الذين يمتلكون معــارف في الفلسفــة والشريعــة اللاهوتية هم قلة فقط؟

أولا غـالبـاً ما يمضي الأسـاقفـة وقتـاً سنوياً أطول للعناية بالمسـائل الدنيــوية والاهتمام بها، والعمل بمــزيد من الوقت مـن أجل منافعهم الخاصة في هذه المسـائل أكثر من العمل من أجـل خلاص الأرواح التي عهد بها إلى عنايتهم؟ وعندمـا يكون هناك كاهن كـان قسيس كنيسة ثم صـار أسقفاً، كم من المرات نراه مكرسـاً طاقاته للاستحـواذ على منافع

دنيوية، بدلاً من أن يعمل أكثر من ذي قبل في سبيل خلاص الأرواح؟ أو لا يبقى الأساقفة، عندما ينشغلون بقضايا قضائية حول مسائل دنيوية، أقل نشاطاً أو بدون عمل تقريباً؟ أو لا يعيشون في رفاه عظيم، أعظم من رجال الدين الآخرين، وأعظم مما عاشوه هم أنفسهم قبل الوصول إلى منصب الأسقفية؟ وعندما يتولى الأساقفة الوعظ أحياناً والمطالبة بسلوك حسن، أو لا يحدث مراراً أن الشعب الذي يستمع إليهم، يقوم بتوجيه النقد إلى محبي القضايا القضائية المدنية واتهامهم، ومعهم المجرمين المدانون بالشره، والنهم، والظلم، أو لم يعتد الذين تعذبوا، أو أرغموا، على القول:«نحن نسمع هؤلاء الناس يتفوهون بكثير من الكلمات الطيبة، لكننا نراهم يفعلون العكس؟ ونستطيع نحن أن نشملهم بكلمات المخلص التي قال فيها:«على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون. فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون»(متى : ٢٣ / ٢ — ٤)و«من ثمارهم (أي من أفعالهم) تعرفونهم»(متى : ٧ / ١٦) وفي إشارة إلى هذا الموضوع قال الفيلسوف في كتاب القيم:«الذي يتفوه بكلمات طيبة ويصنع الشر يعبر عن نفسه ويعلن أنه معلم زائف».

٣٠[16]: ويتوجب على الأسقف الأعلى أيضاً أن ينتبه ويراقب كيف يقوم رعاة ديرة طائفة القديس بندكت — الذين يتوجب عليهم إدارة ممتلكات الدير والعناية بها — بالعيش بشكل عام في بيت الرب، وكيف يراعون بشكل عام أيمانهم حول الفقر،والرهبان الذين لايمكنهم الاستحواذ على أية ممتلكات خاصة من دون اقتراف ذنب عظيم، هم أثرياء، ويسعون وراء الحصول على الهبات في داخل الدير، وفي خارجه، ويعهدون بها إلى أصدقائهم، وعندما يموتون، يرث هؤلاء الأصدقاء الممتلكات مما يقود إلى دمار أرواح كل من المعطي والآخذ، ويعدّ الأكثر حكمة بين هؤلاء الرهبان، الرهبان الذين في أكياس نقودهم المال

الأكثر، وذلك مراغمة لأيمان رهبنتهم، ولدى هؤلاء الرهبان أيضاً خارج الديرة عدداً من الرعاة غير الديريين، يتعاملون برساميل كبيرة ويبذلونها، لصالح اثنين أو ثلاثة من الرهبان، فبعدما يزودوهم بالطعام وبالكساء، يقوم رعاة هذه الأماكن الملحقة بإيداع كل المتبقي في أكياس أموالهم، مع أنها من أملاك فقراء المسيح، ويستخدمون هذه الأموال الفائضة لتقديم دعاوى وشكاوى ضد رؤسائهم الديريين، أو لغايات شريرة، أو في أحسن الأحوال للحصول على إعفاءات من واجبات أخرى، حتى من أداء صلواتهم، فهم ماداموا يتولون مهام الرعاية،تراهم يتولون خرق أيمانهم وتعهداتهم، وهي ذنوب نادراً — أو مطلقاً — ما يقومون بالتوبة والاقلاع عنها أو بالاستغفار منها، في أوقات تالية.

٣١ : فضلاً عما تقدم غالباً ما يمارس الرهبان في هذه الديرة حياة كلها رفاهية، ومجون واحتساء للخمور، مع أشكال أخرى من حياة الفجور، وفي بيرغندي يترهبن أبناء النبلاء أحياناً، بقصد الحصول على الرعوية من هذا القبيل، ليتمكنوا ليس فقط من الحياة براحة لا بل حتى للحياة برفاهية في الجامعات، وقد سمع السيد البابا عن كثيرين ممن يفعلون هذا، ومن المعتقد أنه على دراية جيدة بهذه الممارسات من خلال حياته في المدن الجامعية، وكثيراً ـما ـكان رؤساء الديرة مع المسؤولين الآخرين في الطائفة نفسها مهملين، تقاعسوا عن تقويم مثل هذه الشرور، وهم يترددون في تصحيح الأخطاء لخوفهم من المنازعات والخصومات مع الذين ينبغي أن لا يخافوا منهم.

٣٢ : زيادة على هذا، هناك عدد كبير من الرهبان الشبان، يثيرون المشاكل والخصومات، ومن ثم يكونوا راضين في إرسالهم إلى الزنزانات، فقط على أمل بعثهم إلى مثل هذه الديرة، حيث سيتملكون المزيد من الحرية ومن ثم ممارسة حياة كلها فسوق.

٣٣ [17] : وعلى السيد البابا أيضاً رؤية كم كثير من الحروب الكبيرة

والمرعبة، قد أنشبها أسلافه من البابوات، أو ما أن تفجر بعضها حتى أيدوها للدفاع عن ميراث بطرس المبارك، وكم هو كبير عدد الكاثوليك الذين أصدروا بحقهم أحكام الحرمان الكنسي والتكفير، لقيامهم بغزو هذا الميراث، وقد مات كثير من هؤلاء الكاثوليك وسط ذنوبهم، دون وجود أية علامة على التوبة والاستغفار، وعليه أيضاً أن يعرف كم هي المبالغ التي أنفقتها الكنيسة في مثل هذه الحروب، أو بسببها، ولربما تتطلع إلى إنفاق آخر في المستقبل.

٣٤ : وعلى البابا أيضاً أن يهتم بالأصوات التي ترتفع في كل مكان في الأراضي الخاضعة للكنيسة الرومانية، عندما يجري اتهام إنسان ما بالسيمونية.

أو لا ترون كيف يتقبل السيد البابا والكرادلة الهدايا من كل واحد أضفيت عليه المنافع، ولا سيما الذين منحوا منصب الأسقفية؟ وكيف يقومون من خلال عملائهم، بتدبر إقراض الأموال التي استخرجوها منهم، ولاسيما من الاعفاءات، إقراضها إليهم مقابل فائدة باهظة جداً؟ وألا ترون كيف، عندما يجري انتخاب اثنين إلى المنصب نفسه، وواحد منهما فقط يمكنه شغله، فيقومان بالعادة بتقديم التماس إلى مجلس الكرادلة، ثم بعدما يتحملان نفقات ثقيلة، ويمنحان الأعطيات، ويعانيان من المصاعب ومن المخاطر على الطريق، وعند الكرادلة، يجري رسم الاثنين وتسليمهما المنصب نفسه، وأحياناً يرغم أحدهما على التخلي عن حقه، ووضع القضية كلها بين يدي السيد البابا؟ وكيف اعتاد الناس على أن يؤمنوا للآخر كنيسة أو ديراً؟ وكيف أنه بات من عادة الذي هو من هذا القبيل، أن يستعد لأن يقدم إلى هيئة الكرادلة مبلغاً كبيراً من المال، يكون أحياناً سبعة آلاف، أو ثمانية آلاف، أو عشرة آلاف ليرة، يقترضه مقابل فائدة ثقيلة، يتولى تحصيلها، الذين يسمون أنفسهم بشكل مكشوف وكلاء البابا المصرفيين، ويقال بأنهم يتسلمون أموال

البابا، ويتولون العناية بها، ويقرضونها مقابل فائدة.

٣٥[18]: وعلى السيد البابا أيضاً أن يقدر أنه بما أن الكرادلة يشغلون مناصب عالية جداً، فإنه من الضروري بالنسبة لهم إنفاق مبالغ كبيرة من المال للمحافظة على مستوى العيش الحديث، وبالوقت نفسه ليس لديهم موارد البتة، تتناسب مع ألقابهم، لذلك بات من الضروري بالنسبة لهم — مثلهم مثل المرتزقة — أن يعيشوا من وراء السلب فكيف يمكن لهؤلاء الذين اعتادوا — أو أرغموا على التعايش مع مثل هذه الارغامات — أن يكونوا مقومين مناسبين للقاضي الأعلى، أو العمل قضاة تحت إدارته؟ ففي مثل هذه المسائل من المفترض أن يمارس الأغنياء استخدام سلطاتهم الرسمية بطريقة محمودة، والعكس هو الذي يمارس في قضية الفقير، لأن الفيلسوف قد قال«الأضداد تولد الأضداد وتسببها»، والذين يختلفون بشكل واسع يقدمون المتناقضات، وتفسد العدالة بشكل عام بوساطة الرشوة، والوساطات، والخوف، والكراهية ، والشره، وشرور مماثلة، وذلك حسبما تحدث آباء الكنيسة من خلال خبرتهم، وحسبما كتبوا في القانون الكنسي، وكل إنسان يعتقد ويقول:«الهدايا تقبل مشروطة»، ومثلما كتب المعلق على ابن رشد:«ما من شيء شاع بين الناس، كان كله زائفاً».

٣٦[19] :وهذه الذنوب والفرص من أجل اقتراف الخطايا، وكذلك الأشياء الأخرى تعرفها جلالتكم الملكية عظيمة التجربة، تمام المعرفة، وينبغي أن تجتث في المستقبل بشكل كامل،آخذين بعين التقدير الذي كتب في القانون الكنسي، والذي هو مقبول في كل مكان، والمقصود بذلك:«إن الذي يعمله الأساقفة يتخذ مثلاً يحتذى من قبل الرعية»، وإذا لم تعالج هذه الشرور، يمكن للظلم أن يظهر، عندما ينبغي أن تأخذ العدالة مجراها، ولسوف تهتز الأعمدة، وبذلك ستسقط الواجهة كلها، ولهذا كُتب:«إذا ما أذنب الكاهن المرسوم، فإنه سيؤدي بالناس إلى

الوقـوع بالخطأ»، ويمكن لـلأسـاقفـة، الذين ينبغي أن يبرهنوا على أنهم أنفسهم أطبـاء النفـوس بالقـول والعمل، أن يسببـوا انتشـاراً واسعـاً للمـرض نفسـه الذي يتـوجب عليهـم معـالجتـه، فلمعـالجة مثل هذه الأمـراض أطلق عليهم اسم آباء الأرواح، وجـرت ترقيتهم إلى مناصب رفيعة، ومن ثم منحوا كل شيء جيد في هذا العالم.

افترض أن طبيباً تعين لمعالجة الابن الوحيد للملك وولي عهده،لا بد من أن يتلقى كثيراً من الجوائـز، والترقيـات، والتشريفـات، ومثله حـال أسقف من الأسـاقفـة حيث يتلقـى مـا يتلقـاه من أجل حفظ الأرواح، ولنفترض أن الأسقف وقتهـا سوف يجلس أمـام المريض الشـاب فمن خلال إهماله سيكون سبباً لمرضـه، ومن ثم سبباً لوفاته، عن طريق شربه أو أكله بحضـوره شيئاً رغب الطفـل بتناوله، غير أنه كـان قـاتلاً له، وافترض أن الصبي قام بتقليده، وخيل إليه خطأ أنه سوف يكون أقوى بتناوله الطعـام والشراب الذي يتمتع به الطبيب، أو أن يقوم بتـذوق ما هو محظـور، ويكون هذا سببـاً لمنيته، فما هو وقتها واجـب الملك وحقه نحـو مثل هـذا الطبيب،ألا ينبغي أن يقـول نه:«لقـد حـرمت على ابني تناول الطعام والشراب المميت الذي رغب به، لكن لأنك تذوقت ذلك بحضوره فإنه رغب بذلك أكثر من ذي قبل، لأنه وثق بأعمالك أكثر من وثوقه بكلامك، ولقد تذوق ذلك، ومات من هذا السبب، أو لا تعرف أن الذي يهيء الفرصة للأذى يعد مسـؤولاً وكأنه مارس الأذى بنفسه؟ وأن التعليم بالأفعـال أفضل من التعليم بـالكلمات؟ وأوليست قـوة الرغبـة عندما يكون مـوضوعهـا مرئيـاً، أكثر إثارة ودفعـاً منها عندمـا يكون مـوضوعها غير مـرئي؟ أو لم تلاحظ هذا الشيء في ميـول فحول الخيل والثيران نحـو الإناث مـن جنسهـا؟ أو لم تقل الكتـابات المقـدسـة:«رفقـة المرأة واصطحـابها ينبغي استبعـادهـا حتى يكونوا أقل رغبـة»، ولقـد أجـزت نفسك لدي على أنـك بارع ومجرب، غير أنك

أذنبت بحقي في هذا، فقد أقمت الفخ الذي تذوق فيه ولدي هذا الطعام المميت، ومات منه، فأنت مسؤول أخلاقياً من أجل موته، ولهذا ينبغي أن تموت»، فمن الذي يمكنه أن يقول بأن الملك حكم بشكل غير عادل في هذه المسألة؟.

أولا نرى بوضوح بأن الأساقفة غالباً ما يكونون متغيبين ومهملين القيام بواجب العناية بالمسائل الروحية، بسبب إنشغالهم بالمسائل الدنيوية التي هي ذات محصلات وفوائد قليلة، والتي بدونها سوف يعيشون مهما كانت الأمور — بشكل جيد؟ أولا تراهم يبدون اهتماماً أكبر وعناية أعظم بالذين يدافعون عن مصالحهم الدنيوية، من الذين يهتمون بمصالحهم الروحية، أو لا يجيزون هؤلاء بجوائز أكبر، وهم لم يعتادوا على فعل ذلك بشكل علني؟.

(٢٠) وعندما يرى رعاة الأرواح الأدنى مرتبة رؤساؤهم يتصرفون هكذا، أولا تراهم يميلون إلى تقليدهم وفعل الأشياء نفسها، لكن بطريقة فجة أكثر، أولا يتماشى هذا مع مبدأ أن اليقظة تجذب يقظة، وبالتالي يوّلد الإهمال الإهمال؟ أولم يقل المخلص:«لأنني أعطيتكم مثالاً حتى كما أحببتكم أنا، تصنعون أنتم أيضاً»(يوحنا :١٣ / ١٥)، وإلى هذا أشار الرسول بقوله:«ينبغي أن يكون كل عمل من أعمال المسيح أمراً لنا»، أولايتوافق القانون المدني مع هذا عندما يقول:«ليس مهماً فيما إذا عبر الشعب الروماني عن إرادته بالكلمات أو بالأفعال نفسها، والحقائق هي ذاتها»؟ أو لاينبغي على الأساقفة أن يكونوا متيقظين — كما يقول القانون — من أجل أنفسهم، خشية اقترافهم للخطأ، وخشية أن يبدون صناعاً للخطأ، وبذلك يجلبون لأنفسهم سمعة سيئة؟ ومن أجل الذين عهد إليهم بأمر العناية بهم، ومن أجل جيرانهم، وأقربائهم، خشية أن يقلدهم هؤلاء ويحذون حذوهم.

أولا نعرف — تبعاً لما بشر به الآباء المقدسون — أنه ينبغي أن

تتضمن أعمال الأساقفة الأشياء التالية، وهي قراءة الكتابات المقدسة وتعليمها، وأن يزيلوا بصلواتهم ذنوب الرعية التي وضعت تحت عنايتهم، وفي حالات الذين لا يكون هذا الاجراء كافياً، يتم اللجوء إلى اللوم والتأنيب، والتقويم، ومعاقبة الذنوب المعروف والمتداول أنها اقترفت، تاركين الذنوب الخفية إلى حكم الرب وحده؟ أولا نرى أن الأساقفة الكبار غالباً ما يتوقفون عن أداء واجباتهم ، لأنهم يكونوا مشغولين بالمسائل الدنيوية؟ أولا نرى أي نوع من أطباء الأرواح اختار هؤلاء الرجال ليكونوا معاونين لهم، وبأي اعتبارات قد تأثروا، مع أنهم يعملون في هذه القضية عوضاً عن الرب؟ ثم ما هي سمعتهم وما هو احترامهم؟ أو لم يحلوا روابط الدم، والروابط الاقليمية، والخدمات الدنيوية، فوق العقلانية، والحكمة، والخبرة، لدى الأطباء الذين عينوهم مكانهم؟، وبناء عليه أولا يتبصرون ويرون كيف يمكنهم السداد إلى الرب الواحد، عندما يكونون مرضى تماماً، ويسعون لتأمين خدمات هذا الطبيب الفرد، وأولا يحق له الذي زودهم هكذا بالواحد المتوفر، أن يطلب تزويده بقبول الشرط الذي تسلموه من المسيح، الذي يرى الجميع؟.

افترضوا وجود ملك أو امبراطور كان على وشك الشروع بحرب كبيرة، فيها مخاطرة بفقدانه مملكته أو امبراطوريته، إذا ما أخفق بالحصول على النصر، وافترضوا أيضاً أنه يمكنه اختيار قائد فرد واحد من أجل هذه الحرب، وأنه سيعهد باختياره لواحد محدد من بين رجاله كان قد أعطاه عطايا كثيرة، مثل أنه كان رجلاً فقيراً جداً، فرقّاه لأن يكون رئيس أساقفة كرسي كولون بوساطة الامبراطور، ولنفترض أن رئيس الأساقفة ذاك، الذي سيكون اختياره ضرورياً للدعم — مهما كانت النتائج — سوف يرى أن قائد الحرب ذاك سيغتني كثيراً، وافترضوا أنه على هذا الأساس وقع اختياره على شاب قريب منه برابطة الدم، أو

بالخدمة، أو بالقومية، وأهمل بذلك رجلاً مسناً مجرباً، قد اعتاد على أعمال الحرب، لكنه لم تكن له روابط برئيس الأساقفة، لو أنه قام بهذا الاختيار، وفضل غير المجرب على الرجل المجرب، والجاهل على الرجل الحكيم، أو لن يلعن من قبل كل إنسان؟.

أو لم يعهد المسيح — أبو الأرواح كلها، وهو راغب أن يكونوا جميعاً منتصرين في الحرب ضد الشيطان — باختيار القادة لهذه الحروب التي هي من أخطر الحروب إلى الأسقف الأعلى، الذي هو نائبه الممنوح سلطات واسعة جداً، ودعا الأساقفة الآخرين كل حسب حصته من المهمة، وكل أسقف في أسقفيته الخاصة، وإذا ما قام هؤلاء الأساقفة بأعمال اختيار غير عقلانية حكيمة بسبب اعتبارات دنيوية، وإذا ما رفضوا الشخص المنتخب انتخاباً صحيحاً، من أجل تأمين العمل والمنافع لشخص آخر، يحبونه أكثر، أولأنهم يتوقعون أن ينالوا منه الجوائز، وإذا ما أخفقوا في تزويد الكنائس وإمدادها برجال أحسن، لأنهم يفضلون آخرين لأنهم يعلمون أنهم أقل فضلاً، وسمحوا لأنفسهم بأن تقتنع باعتبارات غير اعتبارات إنقاذ الأرواح، أولا يمكن للمسيح وقتها أن يدينهم بدون أدنى شك باقتراف جريمة عظمى ضد الرب؟ ولقد أغنى المسيح الأساقفة إلى حد كبير، إلى درجة أنهم لن يجدوا مسوغاً للحديث عن نقص بالممتلكات الدنيوية، ولا أن يتأثروا بأي مقدار للاتجاه نحو مثل هذا الاختيار، بموقف السواد الأعظم من الناس ورأيهم، أو ليس من الممكن للأسقف المتقدم ذكره، أو الدوق، أو الكونت، الذي اغتني بمثل ذلك، لأنه الذي عهد إليه باختيار القائد، أن يعدّ منطقياً مجرماً ـ جريمة عظمى بحق الرجل وضده عندما يعاني قائد الحرب من هزيمة مأساوية، بسبب اضطرابه، وطريقته غير المجربة في تنظيم الجيش وقيادته؟.

٣٧ : أوليس صحيحا أو حقيقياً أن المؤامرات الخطيرة التي تفجرت

في كنيسة الرب، وبين الشعب المسيحي كله هي من نوعية طريقة الحياة التي مارسها الأساقفة المتقدم ذكرهم، والرهبان، والساقطين الآخرين والمتجاوزين؟ أولم يقل الرسول حول هذه المسائل:«إذا كان أخي يعثر، فلن آكل لحماً»(كورنثوس :٨ / ١٣) وأولم يستثر مصنف القانون كلياً بهذا فقال:«لكي تتجنب العثار، ينبغي أن يكون كل شيء يتوجب القيام به أو إسقاطه هو الذي يصنع أو يسقط من دون اقتراف ذنب عظيم»، ونقرأ في مكان آخر من القانون:«حتى ينقذ الانسان حياته الدنيوية على المرء أن يفعل كل مايمكنه فعله دون أن يعرض للخطر حياته الأبدية، لأنه لا يجوز لأي إنسان من أجل إنسان آخر، أن يعرض نفسه لاقتراف ذنب عظيم، يتلقى بسببه عقوبة أبدية».

إذا أمكن تجنب الفضائح داخل جماعة صغيرة، وإذا أمكن من أجل هذه الغاية أن يصنع ما ينبغي صنعه، أو أن يترك بدون صنع، الخ، كم هو أهم تجنب الناس الفضائح في أسقفيه، أو في مقاطعة أو حتى في مملكة كاملة؟ أو ليس يظل أعظم أهمية أن يتجنب الناس الفضائح، أي جميع الناس الذين هم رعايا للكنيسة الرومانية، وأن يتجنبوا سوء السمعة، الأمر الذي يمنح الجميع الفرصة للتخلص من سوء ما اقترفوه؟

٣٨ [٢١] ومن هو هناك، ـعارف بشكل جيد بالأحوال الحالية في الكنيسة المسكونية ومدرك لأوضاعها الفوضوية في القضايا المعروضة أعلاه، والتي هي متباينة تماماً، وتختلف كلياً عن الأساس الذي وضعه أباء الكنيسة المتعلمون والمقدسون، ولايعتقد أن الصلوات الحارة والأدعية العالمية التي تتدفق على الرب من أجل عون الأرض المقدسة، سوف تكون فعالة أكثر بكثير من ذي قبل، لو أن الأوضاع المتقدمة الذكر في الكنيسة المسكونية جرى اصلاحها؟ ومن المؤكدأن الأدعية المخلصة للأساقفة، ورجال الدين والناس جميعاً هناك حاجة إليها من

أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، فالقدرة البشرية لن تكون كافيـة، ولا الأسلحة الدنيوية والسيوف، وهذا هو مقصـد القانون الذي حـذرنا بقـوله: «أعطي الناس بسبب ذنوبهم حكامـاً فاسـدين أحيـانا، وأساقفة أشراراً»، ولأن ذنوب الناس تقـف معترضة في الطريق، فهؤلاء الناس غير جـديرين بأن يكـون لهم حكامـاً صـالحين، ولا أسـاقفـة مستقيمين، وتتـوافق الشريعـة الربانيـة مـع هذه المقـولة، عندمـا تقـول: «بسبب ذنوب الناس، سأجعل المنـافق حـاكماً»، وبناء عليـه عندمـا نرى أمراء أشراراً، وأساقفة فاسدين، من المحتمل كثيراً أن هذا بسبب ذنوب الناس»، ومثل هذا، وللسبب نفسه، قد نكـون متأكدين أكثر، أن الناس أشرار، بسبب ذنوب الأسـاقفـة، والمثل الشرير الذي يضربونه،وذلك أن الناس يستندون إلى أفـعالهم أكـثر من استنادهم إلى أـقوالهم، وذلك على عكس ما شرعه الرب ودعا إليه عنـدما قال: «على كرسي موسى جلس الكتبـة والفريسيـون. فكل ما قـالوا لكم أن تحفظوه فـاحفظوه وافعلوه، ولكـن حسـب أعمالهم لاتعملـوا لأنهم يقـــــولـون ولايفعلـون» [متى:٢٣/ ٢—٣] .

٣٩ [22]: إن مـا تقدم وكـذلك المناسبات الأخـرى من أجل هلاك الأرواح، وأيضـاً العـوائق التي تقف في وجه استرداد الأرض المقـدسـة والحفاظ عليهـا، معروضة أمام تقـديركم الدقيق، وإذا — كما هو معتقد بشكل عـام— كـان اقتراحكم للعمل بشكل فعـال مـن أجل مثل هذا الاسترداد والحفاظ، صـادر فقط عن حماسكم من أجل نيل جزاء أبدي، لعل يرضي جلالتكم الملكيـة العالية التجـربة، التلطف بطلب العون من الأب الأكثر قـداسة، كليمنت السيد الحاكـم، والذي هو بفضل الحكمة الربانية هو الحبر الأعظم للكنيسـة المسكونية الرومانية المقـدسة، والذي يعتقد أنه منصرف نحـو عون تلك الأرض والاهتمام بها أكثـر من جميع المسـائل الأخـرى، أرجـوكم، التمســوامنه، أن يكرس نفسـه لإصـلاح

أوضاع الأساقفة، والناس جميعاً وكهنة المسيحية جميعاً، من أجل أن يتحدوا بفضائلهم الدينية والدنيوية، (وهذا ما ينبغي أن يفعلوه)وأن يتكرسوا روحياً ودنيوياً، بالقتال بشكل متواصل، فبذلك سيكون من الممكن — بفضل الرب— تسريع نيل تلك البلاد بوساطة نصر يدوم بشكل مستمر، على أعداء الإيمان الكاثوليكي.

ومن مثل سليمان يبدو أن هذا ممكن الصنع، بوساطة سؤال رب الجيوش إعطاء الحكمة الحقيقية والوحيدة، ولسوف يمنحنا هذا، إذا لم نطلب— وينبغي أن لانطلب— المزيد من واردات الذهب والفضة، بل السلام الحقيقي في القلوب والأجساد، ومن ثم سلام المعرفة، وفهم وإدراك كامل، وكذلك فضائل أخلاقية.

٤٠[23]: وينبغي أن يكون السعي للوصول إلى غاية اصلاح الأوضاع مسعى تقوياً عالياً، والحبر الأعظم مثقل جداً، ومشغول كثيراً بالعناية بالمسائل الروحية، إلى حد أنه من الصعب أن نتصور أن لديه متسعاً من الوقت لإدارة أموره الدنيوية من دون الحاق الضرر بواجباته الروحية، ولهذا يتوجب أن يعهد بادارة شؤون الحاصلات، والموارد، والدخل الذي يبقى بعد أعمال الانفاق وبعد دفع الأجور المعتادة وحسمها، والذي يصله بشكل معتاد، ويبقى بين يديه، إلى ملك كبير، أو أن تحول إلى أمير كبير، أو إلى أشخاص آخرين لتكون بمثابة وقف دائم، ويتوجب اتخاذ الاحتياطات المحكمة، حتى يمكن التفكير باتخاذ ضمانات من أجل البابوات المستقبليين، بحصولهم على عطاء سنوي دائم وبدون نقصان، وينبغي أن يحصل الدفع في أحواز ميراث الوقف البطرسي، وذلك حسب الوقت الذي يراه مناسبا، أو يقوم باختياره، وعندها ينبغي للبابا، الصانع للسلام العالمي والمرتقي به، أن لايقوم بإثارة الحروب، وأن لا يكون سبباً لموت الناس فجأة، أو للموت في حرب مرعبة، وسوف يكون لديه وقت وافر للصلاة، ولأعمال

الاحسان، وللدراسة، وللقراءة، ولتعليم الكتابات المقدسة، ومن أجل اصلاح الذين هم دونه، ووقت وافر لإدارة العدالة، ولرؤية أن العدالة تقدم إلى جميع الكاثوليك، ووقت وافر لتأمين سلام دائم إلى جميع المؤمنين بالمسيح، وبذلك يمكنهم العيش بسلام أحدهم مع الآخر، وأن يجاهد بأمانة من أجل استرداد ميراث الرب المصلوب وحمايته، ولن يجاهد البابا المقدس بعد هذا من أجل جمع الثروات، ولن يعاق في تأديه واجبه بالعناية بالأشياء الروحانية، ولسوف يمارس حياة تأملية، وكذلك حياة نشطة، بعون الرحيم معطي جميع الأشياء الجيدة.

٤١[24] : على السيد البابا أن يتقصى أيضاً حول دخل الكرادلة والموارد المالية المتنوعة التي يتمتعون بها بلا مساءلة أو ريبة، أو فضائح أو عار، وعليه أن يفرد لهم— وهذا ما يستطيعه بكل سهوله— ما يكفيهم للعيش من وقف ميراث بطرس المبارك، في ظل شروط مشابهة لشروطه، وإذا ما تبرهن عدم كفاية ذلك، يمكن للسيد البابا أن يحصل لهم على تعويض كاف من أملاك الكنيسة المسكونية، وبالتحديد من أملاك الديرة المعفاة، وأملاك الأساقفة الذين يتلقون سيامتهم ومباركتهم من الكرسي الرسولي، ومقابل هذا يمكن لهؤلاء الكرادلة أن يوفروا على أنفسهم الانشغال بخدمات عديدة، وبنشاطات كثيرة، مما اعتادوا على القيام به في مجلس الكرادلة، وكذلك الاهتمام بقضايا الانفاق، مادام ذلك قد سحب من مجلس الكرادلة، ولن يعودوا بحاجة بعد الآن إلى مقاربة هذا الموضوع من أجل هذا الغرض، ويمكن أيضاً للكنيسة المسكونية أن تسهم في مسيرة معايير النظام الجديد الذي يجري تفحصه من أجل أن يكون نافعاً للكنائس، ولسوف يضع هذا حداً للقضايا المديدة المتعلقة بالمرشحين في الانتخابات والطلبات الأخرى لمجلس الكرادلة، التي غالباً ما يجري الاحتفاظ بها هناك لمدة طويلة بسبب الهدايا التي يستمرون بمنحها، ولقد اعتاد هؤلاء الكرادلة على

الانفاق على مراكزهم والاحتفاظ بها من خلال هذه الهدايا غير المنتظمة والرسوم.

٤٢[25] :وبعد تنفيذ هذه الاصلاحات، ينبغي اتخاذ قرار أنه إذا ما قام البابا أو الكرادلة بتحصيل هدايا أخرى إضافية، ينبغي انزال عقوبة قاسية بهم، كما أنه لايجوز لهم الاحتفاظ بالهدايا إذا منحت لهم، والمتوجب هو انزال أقسى العقوبات بمقدمي الهدايا وبالذين يتسلمونها، وينبغي أيضاً تحديد عدد المطايا مع الخدم لدى الكرادلة.

وينبغي أيضاً الإعداد بوجوب تخصيص جزء من ممتلكات وأوقاف جميع الكرادلة المتوفين والأساقفة، من الكبير إلى الادنى، وأن يكرس هذا الجزء ليضاف إلى التمويل المعدّ من أجل الأرض المقدسة، حتى يتم تحريرها بالكامل، وتحصينها كلياً، وإلى هذا ينبغي أن يضاف جميع الممتلكات العائدة إلى رجال الكهنوت الذين يتوفون بدون وريث أو وصية.

٤٣: وينبغي أيضاً أن يطلب من جميع رجال الدين المنتفعين إعطاء ربع ممتلكاتهم إلى التمويل المذكور.

٤٤: كما ينبغي أن يحول إلى التمويل المذكور جميع الأملاك المهجورة، أو التي ليست داخلة ضمن ملكية واحد من الأفراد، أو التي هي محولة إلى شخص غير معروف، أو هي ديون غير مقرر أمرها لأنها حق لأناس ميتين من غير الممكن ايجاد ورثتهم، أو هي منح صارت إلى أشخاص غير معروفين، وتركت بدون مالك محدد، وأملاك أخرى لايمكن بأية طريقة الاحتفاظ بها أو الحصول عليها من دون إلحاق الأذى بإنسان ما.

٤٥[26]: وينبغي أيضا العمل على تحويل وقف مواريث عدد من الأساقفة، لأن هذه الأوقاف قد استحوذوا عليها من أجل خدمات عسكرية، وأمكنهم المقاضاة من أجلها في المحاكم المدنية، نعم تحويلها

بالطريقة نفسها إلى لجنة وصاية وحفظ مناسبة، مقابل عائد مالي سنوي دائم، وإذا لم يمكن إيجاد المستحقين الحقيقيين لهذه الأوقاف على الفور، ينبغي تسلمها ووضعها مع دخولهم المقررة تحت الوصاية لمدة سنتين أو ثلاث سنوات، من أجل التمكن من معرفة قيمتها بشكل أفضل، وبذلك يمكن تجنب امكانية التزييف بتقدير القيمة من قبل الذين حولوا المواريث إلى شكل دائم، وعلى كل من يتسلم اقطاعات عائدة إلى أساقفة، أن يسجلوا أملاكهم الخاصة لتكون بمثابة ضمان إذا لم يقم بدفع الاعانة السنوية المتفق عليها، يجري تحويل الضمان إلى الكنيسة ليكون ملكاً دائماً لها، وسيضمن هذا الاجراء الكنيسة من التعرض للخسارة في دخلها بوساطة التزييف.

وفقط لو أن العدو القديم أخذ يعاني، من المتوجب تنفيذ هذه الاصلاحات، فوقتها سيرى أنه قد خدع بهذه الأعمال الإجرائية، وأن أحابيله، وإغواءاته قد أعيقت بذلك كثيراً، وإذا ما امتلك الأساقفة بوساطة هذه الإجراءات، دخلاً أقل من ذي قبل، فإنهم لن يخسروا شيئاً لأنهم سوف يوفرون أكثر بكثير— حتى من الجانب المالي— عن طريق رواتب المحامين، والوكلاء، وفي النفقات الشخصية من أجل رؤساء المحاكم، ومسائل أخرى كثيرة، هم بالعادة يثقلون بها بسبب أراضيهم الموروثة.

وبعد تفحص هذه الاقتراحات بعناية— مثلما فعل كاتب هذه الرسالة شخصيا، وتفكر فيها— لاشك أن الأساقفة سيكونوا قادرين على استغلال هذه الاصلاحات من أجل زيادة الموارد العظيمة التي تتدفق على أكياس نقودهم، إلى حدود لم يتمعوا بها حتى الآن، ومع ذلك سوف يتمتم بعضهم— وقد أثارهم الشيطان— ضد هذه الاقتراحات، ويسعون عبثاً للحصول على مسوغات وأعذار كلامية وفذلكات أخرى حتى يتمكنوا من تجنبهم: آمل من الذي يعرف الأشياء

جميعاً منذ الأبدية، أن يتفضل بنعمته بالقتال ضد هذه الاعتراضات.

وبهذا الاـصلاح، ـسوف يجد بعض الأـساقـفة اـلذين اعـتادوا على الانـفاق على عشرـين أو أكـثر من عشرين ـمن الحاشـية والخدم، وعلى نفقات أخرى كثيرة، سوف يقتصرون على الانفاق على أربعة.

وسوف يكون بعض المحـامين العاملين في المحاكم المدنيـة هم الأكثر خـسارة بهذا الاـصلاح، لأن الأساقـفة، الذين ـسوف يستـحوذون على أوقافهم من الآن فصاعـدا على شكل مبلغ سنوي محدد، لن يكونوا بعد الآن مسؤولين عن الدفع لهم الرواتب المعتـادة والنفقات الأخرى، التي اعتـاد هؤلاء المحامـون على تسلمهـا من مصادر كثيرة، وبطرق متعـددة مباشرة وغير مباشرة.

٤٦[27]: وإذا ما تحققت هذه الاصلاحات فإن جميع مصالح ومنافع الذين يعبدون المسيح سـوف تكون قد تأسست بمثـابة هدف واحد هو ذلك الهدف، وبذلك يتجنبـون نشـوب النزاعـات ووقائعهـا، ولسـوف تتـوجـه جميـع جهـودهـم نحـو دعم الايمان المسيحي والـرفع من شأنه، وسوف يكون هذا متماشيـاً مع المنطق لأن الفيلسوف يقـول: « العالم هو وحـــدة، مثلما الجيش هو وحـــدة»، ويعـــدّ الجيش وحـــدة بسبب اتحاد تنظيمـه، لأن هدف الجيش الذي يسعى إليه القـادة، ويعملون من أجله هو النصر، وعلى كل رجل في الجيش أن يأخذ بهذا الهدف ويناضل بكل قواه من أجل الوصول إلى هذه الغاية، وإذا ما نفذ هذا كما ينبغي، فنادراً — إن لم يكن مطلقاً — ما سيخفق الجيش في مساعيه وتحقيق أهدافه.

ووفق هذه الطريقـة ينبغي توجيه قـوى العالم نحو هـدف واحد، أي نحو الخالـق الجبار للسموات ولـلأرض وللأشياء كلهـا، وحسبما يقول بوثيـوس Bothius كل إنسـان يسعـــى من أجل هذا الهدف، غير أن عـدداً كبيراً مـن الأشخـاص الأشرار يقترفـون الخطأ، وينشـــدون ذلك

الهدف في الحانات، وفي بيوت الدعارة، وفي أعمال اللصوصية وفي النهب، وفي السيمونية، وفي الأعمال الأخرى غير القانونية، ويقترف هؤلاء الأشخاص الأخطاء باتساع، ومثلهم مثل الذي يسعى لاصطياد السمك في الجبال، ولصيد وحوش الأرض في البحر، والذي ينشد ذلك الهدف، ويبحث عنه حيث هو يجده، وبما أن هؤلاء هم — أو هكذا ينبغي — أكثر الناس كمالاً، مثل الأساقفة، عليهم السعي وراء هذا الهدف ونشدانه لا في الحروب، ولا في الأعمال القضائية، ولا في المشاحنات، ولاسيما حول المسائل الدنيوية، بل في قراءة الكتابات المقدسة وفي تعليمها، وفي الصلوات، والأعمال المتعلقة بيوم القيامة، وذلك حسب طرائق مريم ومرتا، والذي عليهم السعي في سبيله هو السعادة الدينية والدنيوية، وذلك حسب عبارة الفيلسوف، وإذا ما قاوموا الاصلاحات المقترحة، وناضلوا من أجل العودة إلى مشاحناتهم الدنيوية، ومشاغلهم الآنية، فإن الكلمة التي قالها المخلص عن مثل هؤلاء الناس يمكن تطبيقها عليهم، وأعني بذلك قوله:«ليس أحد يضع يده على المحراث، وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الرب»،(لوقا: ٩ / ٦٢).

٤٧ [28] : ولسوف يكون هذا الاصلاح ممجداً جداً، ومتوائماً مع أوامر الرب القدير،«الذي ينبغي أن يكون عمله أوامر بالنسبة لنا»، وذلك تماشياً مع قول الرسول، ذلك أن هذا العمل يمكن البرهنة على أنه حاسم.

وإنني أعتقد أن ما كتب في العهد القديم هو نموذج وأساس للعهد الجديد.

وأعتقد أبعد من هذا بأن الرب أعطى أرض الميعاد — التي صارت تعرف بالأرض المقدسة، لأنها تقدست بحضور الرب وعمله ودمه بها — إلى الأسباط الاثني عشر من بني إسرائيل، لأنهم خدموه، وحافظوا

على عقيدته، وشريعته ووصاياه.

وأعلن أيضاً عن إيماني بحقيقة أن أبناء لاوي من كهنة ولاويين، قد بشروا بشريعته وراعوها،وخدموا الرب بعناية أكبر من الآخرين، ومع هذا قضى الرب أن يكون لهم حصة في توزيع هذا الميراث، بل أمر يوشع بتقسيمه بين الأسباط الأحد عشر، وجرى تعيين سبط لاوي للقيام بعبادة الرب، وتوجب عليه أن يرضى بنيل عشر حاصلات الأسباط الأخرى، وقد فعل هذا حتى لا ينشغلوا ويبتعدوا عن عملهم اللاهوتي بالعمل في زراعة الأرض.

٤٨: وبناء عليه إذا ما حصل الأساقفة مقابل ميراثهم الوقفي على ما يكفيهم من المال للعيش — بالحقيقة بقدر ما كانوا يحصلون عليه من قبل بعد اقتطاع النفقات والرسوم المعتادة وإذا ما رفضوا هذا بسبب أنهم ربما يمكن أن يحصلوا على ثلاثة أضعاف أقل مما اعتادوا الحصول عليه في ظل النظام القديم،(وهذا ما لا أعتقده، لكنني مقتنع تماماً أنهم سيحصلون على دخل أكبر من ذي قبل)أو لن يكونوا غير متوائمين مع قواعد تعاليم الرب؟ وإنهم إذا ما وضعوا جانباً تعاليم الرب وحكمته، بسبب أن موقفهم يسير بالاتجاه المعاكس، أو هو مضاد لأعمال الرب ولتعاليمه، أو لن يرفضوا بحق من قبل الرب الذي سوف يقول لهم:

«لقد رفضتم الفرصة التي قدمت من أجل خلاص أرواحكم، وخلاص أرواح الذين أنتم مسؤولون عنهم، واخترتم طريق الهلاك لأرواحكم، ولأنكم هكذا، انظروا إلى الخلف، فأنتم لاتستحقون ملكوتي، وبتصرفكم هكذا أنتم لم تصغوا إلى أوامري، ومبادئي، وآرائي، وقد رفضتم أن تحبوني، وأن تحبوا جيرانكم من كل قلبكم، وسعيتم وراء تسويغ لإخفاقكم الواضح في أن تحبوا من صميم قلبكم، وإنكم لم تدركوا أن الفيلسوف، الذي يستخدم المنطق المجرد قد كتب:«الذي يقدر التهنئة من أجل سعادته التأملية، يستحق الطعام، واللباس،

والأشياء الأخرى الضرورية لقوام الحياة، لكن لبس هناك من حاجة لأن يكون سيد البر والبحر»، وإنكم حتى لم تدركرا أنه في قانون الآباء المقدسين، قد ضرب مثل جيد بسقراط، ذلك الرجل الذي جاء من طيبة، وألقى الثروات في البحر، من أجل أن يتمكن من التفكر والتعبد وهو غير مشغول البال، وهو لم يرفض الثروات فقط، بل إنه لم تتوفر لديه الرغبة فيها، مع أنه كان مشغولاً دوماً بالمشاحنات، والمحاكمات، والحروب، ولقد رفضتم ثروة سلام ستكون بدون أدنى شك أقل إعاقة للتأمل».

فكيف يمكن للأساقفة أن يجيبوا، وكيف يمكن لهم أن يسوغوا أنفسهم، إذا ما رفضوا القيام بتنفيذ اقتراح الاصلاحات؟.

[29]: وإذا ما جرى تبني هذه الاقتراحات، لن يتمكن أعداء السلام، كما يبدو، من تقديم مسوغات مقبولة لإعاقة مثل هذه الاصلاحات، ولسوف يشعرون بالاحراج، ومن المحتمل كثيراً أنهم سيخدعون برغباتهم، وذلك على الرغم من قدرتهم على رؤية كل شيء وتذكره في الحاضر، وفي الماضي منذ بداية الدنيا، وإذا ما حاول أي إنسان الاعتراض، سوف توجه إليه النصيحة بأن يقوم بمحاولته بحجة تعدد القراءات، وأخطاء النساخ في الكتابات المقدسة، علماً أنه لا يمكن نشر الكتابات المقدسة، من دون أن تكتب في أوقات مختلفة، حتى من قبل الكاتب نفسه، ولا من دون أخطاء إضافات أو حذف، وذلك حسبما يقول القانون المدني، ومرد هذا إلى وئام الحركات في السموات، مع تبدل توجهاتها، وكذلك إلى الأجسام السماوية،ولكن بما أنه بالنسبة للهدف الذي ننشده«لايوجد تغيير، ولا أثر للتبديل» فإن الأساقفة لن ينظروا إلى قراءات متنوعة، وإذا ما رغبوا في استخدام وسائل المقارنة هذه، ولسوف يجري توجيههم من قبل المنطق الصحيح، وليس بالأمثلة، والقول:«لقد تولى آباؤنا المقدسون الكثيرون، وأساقفة الكنيسة

الرومانيـة المقدسة، والكنائس الأخـرى، والذين كانوا أقـدم منا وأكثر حكمة، تولوا إدارة المواريث الوقفية على هذه الشاكلة، ونحن نرغب في تقليـدهم بالعيش، في ولاية المواريـث الوقفيـة بالطريقـة نفسهـا»، ومن الممكن إجابتهم كمايلي:«هذا ليس بقيـاس، لأن الآباء المقدسين كانوا من ذوي العزم، وقد أداروا شؤونهم الدنيوية والدينية بشكل مقنع، وعندما تتبع المحـدثون مثلهم كـان مـا فعلـوه هو زيادة المشـاحنات زيادة كبيرة وذلك مع الأخطاء الانسـانيـة، ووفقـاً للقـانون المدني ليس علينا إعطاء اعتـبار«لما صنع في روـما، ولما لم يصـنع، بل علينا أن نهتم بما صنع، وبما ينبغي أن يصنع»، و«علينا أن لا نتردد في تبنـي طرائق جـديدة، عنـدمـا تكون فوائدها واضحة».

[30] أو لم يقل ابن رشـد بأن العـرب قد عـانوا من الشرور، لأنهم اعتقدوا بوجوب إطاعة شرائعهم عالمياً، ولا يجوز تعديلها بأي حال من الأحوال؟ أولم يتشكل كل قـانون وكل نظام للشريعة المدنيـة وفقاً لما هو جـيد ومفـيد؟ وفي الحقيـقة نادراً ـما يمكن إيجاد كل شيء في هذاالـعالم يمكن أن يكون جيداًونافعاً في كـل مكان، وفي كل زمان، ولكل إنسان، وعلى هذا تتنوع قـــوانين البشر وشرائعهم، وفقـــاً للمكان وللـزمــان، وللحالات الفردية، وقد قال كثير من الفلاسفة بأن هذا ينبغي أن يكون هكذا عندمـا تتطلب المنافع ذلك بوضـوح، ولقـد غير الرب، الذي هو رب المـعارف كلـها، والذي هو معلم الآباء المـقدسين، والـفلاسـفة، في العهد الجديد أشيـاء كثيرة، كان قد أمر بها في العهـد القديم، ليعلمنا أن نعمل مثلها، وأن نفعلها من دون تحريف، وقـال القانون الرسولي، الذي جـرى إعلانه من قبل الآباء المقـدسين المتقدمي الذكـر، هذا في كثير من الكلمات من ذلك:«ينبغي أن لا نـعد أنه أـمراً مشـجوباً، أن الـقوانين البشرية تتغير أحيـاناً مع تغير الوقت، لأنه حتى الرب نفسـه غيّر أشيـاء كثيرة في العهـد الجديد، كان قـد أمـر بها في القديـم»، وعرض القـانون

المدني الأمر وحدّده على الصورة التالية:«كل تحديد في القانون المدني هو خطير، لأن الذي لا يمكن تغييره هو غير كاف»، وتقول قاعدة أخرى:«في شريعتنا مبادىء عامة تتعدل بالاستثناء».

وبما أن الأمر كان هكذا، فينبغي أن يكون الأسلوب لوضع القوانين: بما أن القانون العام قد سنّ من أجل الصالح العام، فإنه إذا بدا أن أي شيء فيه كان قاسياً بلا مسوغ أو مختل، أو هناك نتائج ظالمة من تطبيق ذلك القانون بدقة في قضيةخاصة تحت القاعدة، لتند كان، وينبغي أن تكون القاعدة في مثل هذه الحالة، اتخاذ قرار مخالف مباشرة، خشية أن ينشأ ظلم من القانون العام، أي أن تقول ينبغي تطبيق قانون خاص على قضايا خاصة، وبحدود، وتعديل القانون المنشور بشكل عام عندما تستدعي ذلك حالة خاصة.

أولم يقرر القديس أوغسطين — معلم الانكليز، حسبما يُقرأ في قانونه — أنه لن يقوم بسيامة أي رجل دين، ما لم يقم هذا الرجل بالتخلي عن ممتلكاته، ومن ثم ممارسة الحياة الدينية بمثابة راهب؟ وقد وجد فيما بعد، أن عدداً كبيراً، كانوا من أجل أن تتم سيامتهم، يتظاهرون بأنهم سيفعلون ذلك، لا بل يفعلون،وبالفعل كانوا غير ذلك، ولهذا، ولكي يتجنب نتيجة النفاق الشريرة قال:«من المؤكد أنني أنا الذي قررت، أنه لن تجري سيامة أي واحد ما لم يفعل كذا وكذا، ولكن بما أنني علمت أن عدداً كبيراً هم مخادعين، اشهدوا أمام الرب، وأمامكم، أنني مغير لقانوني، وهكذا غير هذا الرجل القديس قانونه في وقت قصير، وتشريعه بسبب سوء تطبيقه،ولقد كان القانون قانوناً جيداً، فقط لو أن رجال الدين لديه راعوه بشكل جيد.

واعتاد كثير من الأساقفة على الدفاع عن مواريثهم الوقفية، متخذين ذلك حجة من أجل الانخراط في الحروب، وفي المحاكمات، ولقد أهملوا واجباتهم الروحية، أو على الأقل أعطوا إهتماماً أكثر لمواريثهم الوقفية،

وبسببهم تحملوا المزيد من النفقـات، وبذلوا المزيد من العناية، والجهـد، أكثر مما كـرسوهُ لواجبـاتهم الروحية، فلماذا لا يعهدون بـواجب الدفاع إلى آخـرين، محتفظين بـالدخل المعتـاد لأنفسهم بعـد دفع النفقـات والأجـور، ويكونوا بذلك مثل أولئك الأسـاقفـة الذين عهـدوا بمهمـة صيد الحيوانات الضارية إلى آـخرين، وعملوا من خلال آخرين، في حين احتفظوا بغنيمتهم؟.

٤٩[31]: وإذا ما اعترض إنسـان قائلاً:«هناك بعض الأسـاقفة الذين لايهملون العناية بـواجبـاتهم الروحيـة مـن أجل الدفـاع عن أمــورهم الدنيوية»، يمكن للانسان أن يرد على هذا بالقول: إن هذا مما لايحتج به، فقد اعتـاد الذين تولوا صياغة الشرائع والقـوانين على الاهتمام بالأشياء التي تحدث باستمـرار، وليس بشكل نادر، وصحيح أن بعض الأساقفـة يهتمـون أكثر من آخـرين بهذه الانحـرافـات، والذي يهتم أكثر وأكثـر، وبمواظبة أكثر يكرس نفسـه للحروب وللمحاكمات، والذي هو ممدوح أكثر في أعين العيـون الدنيوية، إنه هو الذي حكمتـه جنون بنظر الرب، ومثل هؤلاء الناس قـد دفعـوا وتأثروا بهذه الاعتبـارات إلى حـد أنهم نظروا إلى مجدهم الدنيـوي، على أنه جائـزتهم الكلية، وقد اقتنـع آخرون بتقليـدهم بطريقة تستحق اللوم، وفي الوقـت نفسه يتـابع العدو القـديم للسـلام بكل الاعتبـارات، وعـدو الأرواح، يتــابع أعماله وجهـوده مع جيشـه المتحــد، ويبـذل كل جهـد مستطاع لديـه من أجل تدمير أرواح الناس.

وإذا كــان الشيطان يستثير الأرواح السبعـــة التي هـي أســوأ منه شخصيـاً،من أجل جذب وإفسـاد فـرد واحد، كم سيجمع من الحشـود أكثر، ومن قوى جيشه، من أجل إعـاقة هدف هذه الرسالة، التي سوف تقاوم فـرصة عظيمة لا مثيل لها من أجل دمـار الأرواح؟ فهو يرى كل شيء في الحاضر، ويتـذكـر كـل مـا حـدث من قبـل، وبارع في علم

استخـــلاص المستقبل من الماضي ومـن الحاضر، ولســوف يكـون من الصعب جداً تجنب جيشه من الشياطين مع جميع إغراءاتهم، ومعيقاتهم، وإغـواءاتهم، لكن كما ذكـرنا من قبـل إن هذا لن يكون مستحيـلاً، لأن الشيطان نفسه الذي يعدّ والد الكذب، وجميع الكذابين هم أولاده،(مثلما الرب هو الصدق، والأشخـاص الصادقون، مادامـو كذلك هـم أولاده) يكذب في كثير من الطرق عندمـا يتــولى إقناع الأسـاقفـة بمناقشـة من الواضح أنها متناقضــة، ويخدعهم من خلال الكذب، مثلما خـدع والدنيا الأولين، ومن المؤكد أن هذه أزمة أخلاقية، ولهذا فإن النتيجة الحقيقة لا يمكن الوصول إليـها بوسائل التظاهر والمراءاة، ولقد ـجرت العادة بين القوانين العامـة أولاً، ثم عندما ينجم أي تناقض أو ظلم مضر في قضية خاصـة تحت مبادىء أو قـواعد قـانون جـرى تطبيقه بحـذافيره، جرت العـادة صياغـة قـانون خاص يتـولى تعديـل القانون العـام، ومثل هذا، عندمـا تظهـر تناقضـات أو شرور أخرى تتبع وتـأتي عادة من مـراعـاة شريعة أو قـانون عالمي، ففي العادة، والأمـر الأفضل، إتمام إعادة النظر الدقيقـة من قبل الذي لديـه السلطة لفعل ذلك، وبناء عليـه على المشرع الأعلى للقـوانين أن يقـرر أولاً مـا هـو مطلوب من أجل تقـدم الأرض المقدسة، وإنقاذ المصالح العليا العامة للكاثوليك.

٥٠[32]: وتحتاج الأوضـاع بين الأساقفة أيضـاً إلى الإصلاح حيث ينبغي في المقام الأول، أن يقوم الأساقفة بالاستحواذ على جميع الادارات والأعمال ذات الطبيعة العلمانية، وأن يضعوها في أيديهم، وينتزعوها من الرهبـان، ثم أن يأمـروا بإدارتها من قبل هيئة إداريين علمانيين، يمكنهم أن يتولوا اختيارها بناءً على نصيحة ثلاثة أو أربعة من رهبانهم، ممن هـم حكماء ومجربين، ومتميـزين على البقيـة، وزيادة على هذا على الأسـاقفـة النظاميين، ومثلهم الأسـاقفة المدنيين — لأسبـاب قوية جـداً — عليهم فوراً وبدونْ تأخير، تشكيـل هيئة وصاية على شؤونهم الدنيـوية، وسبب

هذا، أنهم اعتادوا مـن وقت إلى آخر أن يشغلوا أنفسهم حـول المحاكم، وبذلك ابتعدوا عن تأملاتهم الدينية.

٥١ : وإذا مـا احتج كل من الأساقفـة المدنيين والأساقفـة النظاميين، أنه مضر لمصـالحهم أن يقـومـوا بعمليـة التحـويل هذه إلى هيئة وصـاية دائمـــة، من الممكن إقناعهـم بالقبـــول مـن قبل أباطرتهم، وملـوكهم، وأمرائهم، حيث يمكن لهؤلاء النظر نحـو الخلف ومن ثم أن يروا بأنهم قد صرفوا شطراً كبيراً من دخلهم، ومنتجاتهم، وموارد ممتلكاتهم — في كل سنة ـمن السنوات — في إدارة أراضيهم، وفي الـــدفاع عنـــها، وفي مبـاشرة أمـــور العـدالة، وإصـدار الأحكام، ولقـــد سمعت أن مـوارد ومنتجات مملكة نافار، تصل إلى مبلغ خمسين ألف ليرة تورية، وبصعوبة بالغة قد يصل إلى ملك الفرنسيين — لأنه يحكم من خلال الآخرين — مبلغ خمسين ألف سولدي Solidi، بعد حذف نفقـاته، ونفقات الإدارة والدفاع.

٥٢ : وافترضوا أن واحداً من الناس قـال للملوك وللأمراء:«إذا كان أي واحد منكم طلب سن مثل هذا القانون ضد الأساقفة، عليه الالتزام بهذا القـــانون نفســه، ولنفترض أنكم أول مـن قـام بتحـــويل ممتلكاتهم الدنـيوـية، وبذلك ضربتم مـثلاً جـيداً للأـساقــفة، وإلاّ ـحافظوا على الصمت تجاه هذه القضيـــة، وربما يمكن أن يجيـب، إنه مثلما لا يستطيع الأسـاقفة الخلاص من مسـؤولياتهم بالعهـدة إلى آخرين بإدارة الأشيـاء الروحية، كـذلك الأمر بالنسبة إلى الأمراء فيما يتعلق بالأشيـاء الدنيوية، لأنه مثلما أعطيت ثروات الكنائس إلى الأسـاقفـة، وعهـد إليهم بها، من أجل تقديم العون بكل وسيلة لتوجيه الأرواح وقيادتها، كذلك أعطيت الممتلكات الدنيوية إلى الأمراء، وعهد بها إليهم، من أجل أن يتمكنوا في كل مكان من حـراسة السـلام في بلدانهم، والدفاع عنهـا، ومقاومـة كل شر مهما كان نوعه، وإصدار الأحكام، وممارسة العدالة بمكافأة المحسن

في كل مكان، ومعاقبة الشرير وتقويمه، والأمراء — لاسيما الذين لا يرون، ولا يعترفون بمن هو أعلى منهم على الأرض في المسائل الدنيوية لديهم سلطات قضائية، ولقد اعتادوا على التفوه بأحكام أشد قسوة في قضايا تتعلق بتقصير موظفيهم، وأعنف منها في قضية أي من الآخرين، فهم يرون عزل هؤلاء الموظفين من مناصبهم بسبب ذنوب صغيرة اقترفوها، وذلك وفقاً لطرائق الرهبان الذين هم في ظل الخوف من العزل،والعقوبات التي ينزلها المقومون والمحققون من خلال إجراءات قصيرة، ولايمكن إنزال مثل هذه العقوبات بشكل جاهز بالذين يشغلون مناصبهم بوساطة ولاية دائمة، ولهذا من الأحسن جعل مثل هذه التعيينات أكثر جاهزية للعقوبة، وأقل جدية في اقتراف الاعتداءات الجدية، مع تحريات أقل، ويمكن نقلهم باستمرار أكثر.

وحيثما كان الأساقفة متورطون، إنه أفضل بكثير أن يحكم عليهم من قبل آخرين بدلاً من أن يقضى عليهم من قبل أنفسهم، وأن يتولى ممارسة أعمالهم الادارية آخرون، فمن الممكن بيسر استخراج أدلة ضد شخص ما ممن يتولى ممتلكات لصالح الأسقف، من استخراجها من الأسقف مباشرة، وفي الحقيقة أصر عدد كبير من الأساقفة في عدد كبير من القضايا على أنه لا يجوز معاقبتهم من قبل أمير دنيوي، من أجل جريمة، بسبب أعمالهم الشخصية(لابل إنهم يقولون بأنه لا يمكن معاقبتهم من قبل مثل هؤلاء الأمراء) بسبب أي عمل شخصي مهما كان نوعه.

٥٣ : فضلاً عما تقدم، إنه أسهل إبداع طريقة إجراءات قضائية ضد الآخرين الذين بين أيديهم ممتلكات لصالح الأساقفة، من القيام بذلك ضد الأساقفة أنفسهم، فالآخرون سوف يخافون خوفاً شديداً من النفقات، والغرامات، والعقوبات.

زيادة على هذا،سوف يبقى الأمراء بلا عمل، ما لم ينشغلوا بحكم

رعاياهم، وهكذا يمكننا أن نفترض أنهم غالباً ما سيمتلكون الوقت من أجل تبديده في الحروب وفي أعمال شهوانية مما يمارسه الناس الذين ليس لديهم أعمال، ومثل هذه الفرص ينبغي بالحري تجنبها، بدلاً من السعي من أجلها، واختيارها.

٥٤ [32] : وينبغي القيام بمحاولة استدعاء جميع الرهبان المتسكعين في الأماكن وفي الرعويات غير الرهبانية، للعودة إلى ديرهم، من أجل أن يمارسوا الحياة الرهبانية هناك، وخشية من أن تتناقص الصلوات في مثل هذه المؤسسات غير الرهبانية، ينبغي تعيين قسيس في كل واحدة من بيعهم، وينبغي أن يعيش هؤلاء القسس حياة متواضعة، كما عليهم تأدية الواجبات الدينية هناك كل يوم.

٥٥ — ما الذي ينبغي أن يصنع بممتلكات الرعويات غير الرهبانية، أو التي فيها مجرد ثلاثة رهبان أو أربعة فقط؟ فإذا كان الدير بحاجة إلى رعاية رهبانية كافية من أجل نقل الرهبان المقيمين إليه في بعض الأحيان، لأسباب محلية تتعلق بسوء السلوك في الدير، فلابأس من تأسيس دير رهباني مع مؤن قليلة جداً من أجل رهبانه، ووقتها سوف يخشى الرهبان من الإرسال إلى ها هنا، وسوف يسلكون ويتصرفون بشكل أحسن في ديرهم خوفاً من إرسالهم للعيش في دير، الدخل المعين له قليل جداً.

٥٦: لكن إذا كان الدير ليس بحاجة إلى مثل هذه الرعاية الرهبانية، وكان عدد رهبان الرعوية قليل جداً، من المتوجب تحويلهم إلى دير، ليتولوا خدمة الرب داخل الدير المغلق.

وينبغي أن يعين من أملاك الرعويات المحولة لصالح الديرة مبلغ يعادل النفقات الفعلية لعدد كبير معلوم من الرهبان كل سنة، وعلى هذا سوف تكون القداسات وتنفيذها بداية وممارسة ذات شكل أفضل،

ولسـوف تتمكن الديرة من استرداد أولادهـا الذين كـانوا يحومـون من خارج الديـر وإليه، فهم لن يعودوا بعـد الآن مثقلين بالمسائل الـدنيوية، ولسـوف يمارس الرعـاة والرؤسـاء كثيراً من العناية المفـرطة من أجل الخسائر الروحية، وسوف يتغلبون على متاعب كثيرة جداً.

وبهذه الطريقـة سـوف تكون جميع ممتلكات دير مـا بأيدي شخص واحـد، أي بأيدي الذي من واجبـه إدارتهم، وهو لن يخشى من تقـويم أبنائـه أو إرغـامهم على مـراعـاة النظام بسبب أمـوال مخبأة في أكيـاس أموالهم عن طريق الممارسـات المنحرفة التي تقدم ذكرها، فبـوساطة مثل هذه الأموال كانوا قد اعتـادوا على النضال، والعصيان والتمرد من أجل خلع رعـاتهم، وإثارتهم، والتشكي ضـدهم، فبهذه الطريقـة يكونوا قـد بددوا معظم الممتلكات الديرية، وأودعـوها في أكياس أمـوالهم، وذهبوا بها، بعدما يكونوا قـد كرسوها في خارج الدير، وغـالباً ما يخسرونها مع أرواح كل من المودع والمتسلم، وقـد حرضت هذه المخـالفات الروحيـة الكبيرة، كـاتب هذه الكلمات لأن يفكر، ولأن يكتب من أجل الصـالح العـام، مع أنه قـد تسلم، ولربما سـوف يتسلم في المستقبل أجـوراً كبيرة وكثيرة من مثل هذه الممتلكات، إذا ما أعطاه صانع الحياة حياة مديدة.

٥٧ [34] : وما الذي سوف يصنع بممتلكات مثل هذه الديرة التي بقيت بعـد القيام بعمليـات الحسم المقترحة؟ قـد يجيب إنسان: إنه وفقـاً لمبادىء الآباء المقدسين، ليس رجـال الدين النظاميين وغير النظاميين أصحـاب أمـلاك لاهوتيـة، لكنهم يتـولون إدارتها فقط، ويمكنهم أن يتسلمـوا منها — بقـرار من الكنيسـة — الطعـام، واللباس، والأشيـاء الأخـرى الضرورية لقـوام الحيـاة، والمتبقي هو ملك للفقـراء، وهو من أجلهم، وكل الذي احتفظوا به عـن طريق الاداريين هو إجحـاف بحق الفقراء، أو أنه استخدام من أجل استعمالات غريبة، أو جرى الاحتفاظ به من أجل إيذاء المسيح والفقـراء الذين هم رعـاياه، وهذا كله سرقـة،

واختلاس، ودنس.

وتبقى الحقيقة هي أن هؤلاء الرعاة البعيدون، وتقريباً جميع رجال الدين يسيئون استخدام ذلك المتبقي من الممتلكات العائدة إلى الكنيسة وإلى الديرة، وبناء عليه ينبغي أن يفقدوا طوال الوقت الامتيازات،أو — لنتكلم بصدق أكثر — فرصة إدارة ممتلكات من هذا النوع، وفقاً لرغباتهم، ولسوف يمنع هذا الكهنة العلمانيين من كنز مثل هذه الثروات الهائلة، من أجل إيذاء الفقراء الذين غالباً ما يرونهم قرب كنوزهم، غير أنهم لا يشفقون حتى على التعساء الذين ربما كانوا يهلكون من البرد والجوع.

ويتوجب أيضاً أن يطلب من المجمع المقدس أن يرسم بوجوب تحويل الجزء الأكبر من ممتلكات الأشخاص المتوفين، مع المتبقي من الممتلكات العائدة إلى الرعاة المتقدمي الذكر، تحويلها إلى المراكز الواسعة المتقدمة الذكر، من أجل الأرض المقدسة وما يتعلق بها، مما يساعد على إصلاح الكومنولث الكاثوليكي كله، وتوحيده حقاً، وهذا الهدف ربما سيكون الأسرع تطبيقاً وفق الطريقة الموضحة أدناه.

[35] : لقد جرت أعلاه مناقشة الاجراءات المطلوبة من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، لكن الاجراءات التي سوف تتطلب راحة سكان تلك البلاد لم يجر عرضها ولا بحثها.

ولنفترض أن الناس الذين سكنوا في تلك البلاد، عاشوا عيشة نكداء،(فقد كتب: لاتعطي الأمكنة الحصانة للناس، لكن الناس يعطون الحصانة إلى الأمكنة)، فكيف يمكن لمملكة ولسلطة مقترفي الشرور البقاء، ولنفترض أن الناس اجتمعوا هناك بشكل عملي من جميع أقطار العالم تقريباً، وشرعوا في ممارسة حياة شريرة، وعودوا أنفسهم على مثل هذا النمط من العيش؟ وعوضاً عن تغييره، ثبتوه بمثابة عادة، هي ذات

طبيعة أخرى، بما أنها تغير الطبيعـة، ومن أجل تجنب هذا الشر، يبدو أنه مفيد جـداً إلى كل إنسان أن يعثـر على من يعترف له، قادر على الحديث بلغته الخاصة، وعالي الثقافة، أي أن يكون طبيباً للأرواح.

٥٨ : وطبيباً أيضاً من أجل داخل الجسد وخـارجه كذلك، ونادراً ما يمكن العثـور على أنـاس من هذا القبيل بيننـا محنكين وبارعين في مثل هذه المسائل، وبسرعة ـسوف يصبح هؤلاء أثرياء بيننا، ولن يعبروا إلى هناك بأعداد كافية، لأنه لا يوجد حتى ما يكفي من أجلنا.

٥٩ [36] : ولسـوف يكـون مفيـداً بالنسبـة للذين على رأس مملكة القدس أن يتـوفر لديهم كثيراً من الكتـاب الذين يعرفـون اللغة العـربية ويحسنون الكتابة بها، مع معرفة لغات العالم الأخرى، وقد قيل يوجد في البلدان الشرقيـة بعض الناس من الكاثوليـك، هم ليسـوا تحت طاعـة الكنيسـة الرومـانيـة، وهم لا يتفقـون معنا في بعض أركـان الايمان التي تتمسك بها الكنيسة الرومـانية، ويدعى أسقفهم الأعلى الذيـن هم جميعاً تحت طاعتــه، مثلما نحن تحت طاعــة الأسقـف الرومــاني، البطريرك، ويحكى أن لديه تحت طاعته تسعمائة أسقف، وإذا صح هذا، يكون تحت سلطانه أكثر مما لدى السيـد البـابـا، وسـوف يكون نافعـاً لو أن هؤلاء الأسـاقفة، قـاموا مع أتبـاعهم، وعدد كبير آخـر ممن ابتعد عن الكنيسـة الرومانية، ولم يعودوا مطيعين لها، بالسعي للاتحاد مع الكنيسة الرومانية، وتقديم الطاعـة لها، والدخول في حظيرتها الإيمانيـة، ولسوف يكون هذا الأمل عبثـاً، ما لم تمتلك الكنيسـة الرومانيـة كثيراً من الرجال، يجيـدون معرفـة لغاتهم، فمن خلال هؤلاء يمكنهـا التواصل معهم، ولن تستطيع الأرض المقـدسـة وحكـامهـا الحصـول على منفعـة كـاملة من عـونهم وتعاونهم مـا لم يستحوذوا أيضاً على عدد كبير من الأشخـاص المجيدين للغاتهم، أي مثلما قال أفلاطون حول هذا الموضوع:«أعطي الكلام لك، لأنه من خـلاله يمكن التـوصل بسرعة إلى تحقيـق موقف واحـد وإرادة

متبادلة».

ولقد قضى الرب وقرر أن يكون الحبر الروماني، نائبه، وخليفة بطرس على الأرض، هو الرأس للكنيسة المسكونية، وأن يطيعه الجميع، وذلك حسبما أعلن المتحدث باسم الآباء المقدسين وأوضح، وبناء عليه يتبع هذا أن الرب قد قضى، ومازال قاضياً، بأن يتم تأمين كل شيء ضروري ويفضي للوصول إلى هذه الغاية، وإلاّ يكون ما قضى به لم يتحقق تماماً، وإذا ما قلت العكس سوف تكون هرطقياً.

لكن كيف يمكن للحبر الروماني -جذب هؤلاء الناس الشرقيين، إلى الوحدة، وهم أيضاً لا يمكنهم، وكيف يمكنه إزالة الأخطاء من قلوبهم، ما لم يكن ذلك من خلال مترجمين عقلاء وأمناء، ينبغي أن يفهموا أولاً لغة الجانبين، وأن ينقلوا الرغبات المتبادلة للطرفين؟ ويتوجب على هؤلاء المترجمين أن يعرفوا كيف يمكنهم التجاوب بعقلانية كبيرة مع اعتراضات البرابرة حتى يمكن تدمير مواقفهم العدوانية الخاطئة، وينبغي أن يكونوا قادرين على إقناعهم بنقاشات وحجج لا تقبل الجدل، وبقوة جذب حقيقة الإيمان المسيحي.

وسوف تكون هناك إصلاحات أخرى كثيرة توصل إلى هذه الغاية، وهي سوف تظهر مما سيأتي، وبوساطة الخطة التالية — مع معونة الرب — سيكون من الممكن الوصول إلى هذه الأهداف أخيراً، لكن ليس على الفور.

وبما أن البابوات الرومان يتسلمون بالعادة مناصبهم السامية في سن متقدم، وهم منشغلون كثيراً بالعناية بالرعية الكبيرة التي عهد بها إليهم، ولا يمكنهم — بالإضافة لما لديهم من أعمال — تعلم اللغات مثل هؤلاء الناس، حتى لو أن البابوات كانوا يحسنون هذه اللغات، فإنهم لا يمكنهم الارتحال إلى هؤلاء الناس، كما لا يمكن لهؤلاء الناس القدوم

إلى عند البابا، هذا ولا يوجد ـتراجمة معدين من أجل هذه المهمة، كما لا يمكن تحصيلهم مقابل كل أموال الدنيا، ما لم يكن قد جرى إعدادهم من قبل، ولعلهم لن يكونوا قادرين على إظهار أية نتائج فعالة خلال حياة الذي بدأ بتنفيذ هذه الخطة، وهكذا فعل موسى، فهو لم ير أرض الميعاد، بل — كما كتب — عمل من أجل الاستيلاء عليها من الخارج، وعلى كل حال، ينبغي — على هذا — على الحبر الأعظم عدم إهمال وضع هذه الخطة المرحب بها موضع التنفيذ، ولو أن الرب سبب الإصابة بالأمراض، وبعث بالموت بسبب الذنوب، هل سيقوم أبو الرحمة — لسبب قوي — بإطالة حياة الذي باشر هذه الخطة، لأن أهدافها وغاياتها جديرة بالثناء، أو لم يكتب :«تعلم وكأنك ستعيش أبداً، وعش كأنك ستموت غداً».

٦٠[37] ويسعى الأب الأعلى قداسة، السيد بابا روما، كليمنت الخامس من أجل إقامة وحدة حقيقية للديانة المسيحية، الأمر الذي لايمكن تحقيقه على الفور بجهود الناس، ومن أجل الحصول على هذه المنافع، ومنافع أخرى لايمكن تعدادها، ولايمكن تصورها كلها مسبقاً وذكرها، ولعله يرضيه أن يأمر — بعون الرب — بزيادة المقترحات التالية، وإتمامها، أو تغييرها، وذلك حسبما يرى الأمر مناسباً هو مع مستشاريه العقلاء، الذين يعرفون تمام المعرفة أوضاع العالم.

ويتوجب تأسيس مدرستين أو أكثر من أجل الأولاد، والعدد نفسه للبنات، في كل مقاطعة، وذلك وفقاً للامكانيات المتوفرة والمتاحة من أجل هذا الهدف، وحسب حجم السكان، على ممتلكات ديرة أمثال الداوية والاسبتارية، فهناك ينبغي تأسيس هذه المدارس التي هي أفضل شيء مناسب لهذا الهدف، والطلاب الذين سيجري اختيارهم للتعلم هناك، ينبغي أن يكونوا في الرابعةِ أو الخامسة من أعمارهم، ويجري اختيارهم من قبل فلاسفة عقلاء، يمكنهم إدراك إمكاناتهم الطبيعية من

أجل التقـــدم في تعلم الفلسفـــة ودراستهـــا، وينبغـي أن يقبل في هذه المدارس أطفـال من أصل نبيل من الجنسين، إذا مـا وجـدوا، وبقدر مـا يمكن توفرهم، ويجري بعـدهم قبول الأطفـال الآخرين، وهؤلاء ينبغي تعليمهم بشكـل متــواصل، وفـق المنهج المبين أدناه، وهو منهـج يمكن تغييره، وإتمامه، وتحسينـه من قبل رؤوس حكيمة، وسـوف يجري قبول هؤلاء الأطفال مع شرط أنهم لن يعودوا مطلقاً إلى أبويهم، ما لم يسددوا جميع النفقات التي أنفقت عليهم، وسيجري إرسال بعضهم من مدرسة إلى ـمدرـسة، وأخيراً إلى الأرض المقلـسة، وإلى أراضي أـخرى تـتولى الكنيسـة الرومـانية المقـدسـة تحديدها، من خـلال الذين جـرى تعيينهم للقيـام بهذا العمل، وسيجـري الانفاق على الطلبـة وعلى أسـاتذتهم من أملاك الديرة المذكـورة، ومن خلال مراكز الأمـوال الموقفة على الأرض المـقلـسة، والتي ورد ذـــكرها من قبل، ويجري تعيين الاداريين المشرفين على المراـكز المالية، ـمن قبل رؤساء الأـساقـفة المحليين، وذلك بناء على نصيحـة الأسـاقفـة المسـاعـدين، ذوي الخبرة، فهـؤلاء سيرون من هو مناسب للعمل.

٦١ : وأول مـا ينبغي تعليمه إلى هؤلاء الأطفـال هو اللغة اللاتينيـة، حتى يتملكوها بشكـل جيـد، أو على الأقل حتى يحسنوها، وبعـــد هذا ينبغي تدريب بعضهم على تعلم اللغة الاغريقية، تدريباً دقيقاً، وبعضهم على اللغة العـربية، وهكذا بالنسبـة إلى اللغات الأخـرى، لاسيما اللغات المستخدمة من قبل الشعـوب الكاثوليكية في الشرق، وسيكون بالامكان في النـهاية، بمساـعدة هؤلاء الشـباب، الذين تدربوا على الحديث وعلى الكتابة بلغـات جميع الشعوب، للكنيسة الرومانيـة، وللأمراء الكاثوليك أيضـــاً، الاتصـــال من خـــلالهم بجميع النـاس، وجـــذبهم إلى الإيمان الكاثوليكي، وإلى الاتحاد مع رأسها.

وينبغي تدويـن أسماء جميع الشبـــاب الذين تـدربوا على النحـــو، مع

تفضيل للأصغـر سناً، وإذا مـا تـوفـر بعض الذيـن تدربوا على المنطق، فـذلك هو الأفضل، وينبغي اختيار بعض هؤلاء وتعليمهم بكل سرعـة مبـادىء الإيمان، والقداسـات، والعهد القـديم والعهد الجديد، ومـا أن يكملوا دورة الدراسة هذه حتى يمكن إرسالهم إلى الأرض المقدسة، من أجل التقدم في دراسـة الكهنوت، وبذلك يتولون العناية بالأرواح، ومن بين صفوفـهم يمكن تزويد الكنائس والناس فبعضهم ينبغي تدريبهم في ميدان الطب، وآخـرون في كل من الجراحة الإنسـانية والحيـوانية، وبهم يمكن تقديم العون إلى الجيش، وإلى جميع السكان من كلا الجنسين.

[38] : وينبغي تعليم الفتيات الطب والجراحة، والمواضيع الضرورية التي تشكل مقدمة إلى هذا، ومع هذه التدريبات، ومعرفة الكتابة، سوف يجري تبني هذه الفتيات، اللائي من أصـل نبيل، والأخريات اللائي هن متميـزات بالبراعة، واللائي هن جميـلات وجـذابات بالوجه وبالقـوام، تبنيهن كبنات أو حفـيدات ـمن قبل الأسـمراء الكـبار في بلدانهن، وفي الأرض المقـدسـة، وفي البلدان الأخـرى المجـاورة لها هناك، وبعـد هذا يجري إلباسهن على حسـاب المراكز المالية المتقـدمة الذكـر، حتى يظهرن كأنهن بنات أمـراء، وإثـر هذا يمكن تزويجهن بشكل مـوائـم من قبل الأمراء الكبـار، ورجال الدين، والأعيان الأغنيـاء الآخرين،وعليهن أن يعـدن ويتعهدن أنهن بعـد أن يتزوجـن من هؤلاء الرجال القيـاديين أو الأعيان الآخرين، سـوف يقمن — أثناء حياتهن إذا كان ذلك ممكناً — بتسديد المبالغ التي أنفقت عليهن، إلى المراكز الماليـة المتقدمة الذكر، وإذا كن غير قـادرات على فعل ذلك، ينبغي أن يوافقن على إعـداد ترتيبـات للتسـديد، أو تسـديد أي جـزء ترك من دون دفـع عند مـوتهن، وبهذه الوسيلة يمكن لهذه المراكـز الماليـة أن تتـزايد بدون حـدود، ويبـدو أنه سيكون أمـراً رائعـاً بالنسبـة لـلأسـاقفـة الشرقيين أن يتخـذوا مثل هذه الزوجات، لأن من عـادتهم الزواج، ولم يرتضوا مطلقاً بتقليـد الرومان

وبقية رجال الدين الغربيين في التخلي عن امتيازاتهم بالزواج.

وزوجات قد امتلكن مثل هذه الثقافة، واستحوذن على أسس الإيمان مع الأسرار المقدسة وفقاً للاستخدامات الرومانية، لا شك أنهن سيتولين تعليم أولادهن وأزواجهن من أجل الارتباط بالايمان الروماني، وللاعتقاد والتضحية وفقاً لها، ولسوف يستخدمن المناقشات ويستغللن الفرص بشكل فعال أكثر ومؤثر من الخداعات التي مورست من قبل زوجات سليمان عليه، الذي مع أنه كان أحكم الرجال وأعقلهم، قدنه نحو عبادة الأوثان، وعلى هؤلاء النسوة، القيام — من خلال حبهن لأوطانهن الأصيلة — باتخاذ ما يلزم من ترتيبات من أجل زواج عدد كبير من الفتيات من هذه المدارس، من أولادهن، ومن شخصيات قيادية أخرى في البلاد، وبشكل خاص إلى كهنة سوف يترقون في المستقبل إلى مرتبة الأسقفية، وينبغي أن يكون لديهن شمامسة يتولون أعمال القداسات والغناء وفقاً للطقوس الرومانية، ولسوف يتولين بوساطة هذه الأساليب ويتمكن من جذب السكان في تلك المناطق إلى الطقوس الرومانية، وهن سوف يؤثرن بشكل خاص على النساء، اللائي سوف يتلقين مساعدتهن من خلال ممارسة الطبابة والجراحة، ولاسيما في أحوال وهنهن السرية واحتياجاتهن، ومن غير الممكن أن يحدث سوى — وقد تفوقن على غيرهن من العقائل، وكن أكثر نبلاً وثروة، وبتن معروفات في كل مكان ومشهورات بمعارفهن في الطب والجراحة، والعلوم التجريبية — أن يجذبن سيدات القوم اللائي بحاجة إلى مشورتهن، وينلن إعجابهن لبراعتهن وفوائدهن لهن، فيحببنهن لهذه الأسباب، ومن ثم يقمن بجذبهن، أو بالحري للاتصال بهن، ومن ثم سوف يكن مسرورات بالاتحاد معهن والتوافق على الأخذ بأركان الإيمان والقداسات.

٦٢ [39] : وأيضاً على أي بابا مستقبلي، عندما يحين الوقت وتتيسر

الأمـور، ويصير لديه أشخـاص يتقنون لغـات الكاثوليك الشرقيين، أن يقوم باستخدام عدة أفـراد من هؤلاء في مجلس الكرادلة ممن تتوفر فيهم الفـصاحة والمقدرة الأدبية، فمن خلال هؤلاء يمكنه أن يكتب إلى الأساقفة، وإلى الشخصيات القيادية الأخـرى في تلك البلاد، هذا ومن الممكن بسهولة الحصول على متدربين علمياً بالاغريقية، فعندما يتوفر في بعض المدارس البعيـدة، عـدد من التلاميـذ المؤسسين بشكل جيـد بالاغـريقية واللاتينيـة، وقتها يتوجب اختيـار الذين يبـدون بينهم أنهم واعـدين أكثـر، ولديهم قـابليـة أكبر للتعلم من الآخـرين، اختيـارهم للدراسـة والسماع، وفيها بعـد لتعلم مـواضيع أخـرى، بحيث يتعلم بعضهم القانون الكنسي والقانون المدني، وآخـرون للفلك مع عدة علوم في ميـادين الرياضيـات والطبيعيـات، وآخـرون بالطبـابة، وآخـرون باللاهـوت، وينبغي فصل المدارس المكرسـة لهذه العلـوم إحـداها عن الأخـرى، خشية أن يعقن بعضهن بعضاً من خـلال التحاسـد، أو من خلال أمور أخرى، لأن الفيلسوف قـد قال في كتاب الخطابة:«الفلاسفة متحاسـدون بشكل طبيعي»، ووقتها إذا مـا أراد البابا أن يرسـل واحداً من النواب، في مهمة صعبة إلى بلاد الإغـريق — وأعتقد أنه ينبغي تبني السياسة نفسها في حالة اللغات الأخرى والبلدان — عليه أن يبعث في الوقت نفسه مع النائب اثنين أو عدد أكبر من الأشخاص البارعين جداً في كل فرع من فروع المعارف، فهؤلاء سيتفوقون على خبراء تلك البلاد في المناقشـات، وفي تقديم النصـائح، والمبـاحثات، وفي كل سبيل آخـر، وبذلـك لن يكون هناك مـن يستطيع أن يتصـدى لحكمـة الكنيسـة الرومانية، وسوف يقـوم الذين يعتمدون في الشرق على المنطق، بامتداح حكمـة الرومـان والخوف منهـا، مثلما أطرت ملكة الشرق(سبأ) حكمـة سليمان.

٦٣ [40] : وإحدى نتـائج تأسيس مدارس من هـذا النوع، وإرسال

أشخاص متعلمين من كـلا الجنسين، وإرسالهم إلى الشرق، سـوف توفر إرسـال السلع الثمينة، الوافـرة في تلك المناطق، لكن النادرة بيننا وذات القيمـة العظيمـة، ولسـوف تشحن إلينـا إلى الغـرب، بكميـات كـافيـة، وبأسعار معـقولة، وسيكون هذا فور غدو العالم ـكاثوليكياً، وهناك كثير من المنتجات التي تعدّ نادرة وثمينة، لعدم تـوفرها لدينا، هي وافرة جداً في أماكن أخرى، وينظر إليها هناك على أنها قليلة القيمة.

وإذا ما سعى الانسـان إلى معرفة سبب هذه الحقيقـة، سيجد الجواب هو نفسه الذي ـقدمه الفيلسوف حول ـما يتعلق بأسباب وضع العناصر الأربعة بقوله:«لم يقض الرب المبـارك والممجد، الذي خلق للانسان كل مـا هو مـوجـود في العـالم السفلي، بأي شيء عبثـاً، وهكذا تولى توزيع هباته في هذا العالم».

وإذا مـا أراد إنسان، إرضـاءً لرعـونته، وتنفيـذاً لإرادته الشرهة، أن يمتلك في هذا العالم كل شيء أراده، سوف يفضل البقاء هناك بالأسفل، بدلاً من التحليق نـحو وطنه في الأـعالي، لأن رغبـته ستكون مثبـتة على المركب الأكثر انخفـاضاً، وهكذا سـوف يمارس الانسان من هذا القبيل حيـاة مضطربة، لأنه لم يجر توجيهـه نحـو الخالق، أولم يوضح بوثيـوس Boethius هذا جيـداً عندما قـال:«إن الذي ينبغي أن يعترف بوجـوده لوحده في العالم هو الذي يبقي على النظام ويحافظ على الطبيعة»؟ وبناء عليه قـال بهذا الصدد: شرار الناس غير موجـودين بالفعل، والذنب هو لا شيء، ومن هنا قرر أحكم الرهبـان توماس الأكـويني — كما سمعته يقول في إحدى مواعظه:«كل من يقترف ذنباً هو عبد للذنب، وكل عبد هو أدنى من سيـده، وبما أن كل ذنب هـو لا شيء، فإن كل مـذنب أقل من لا شيء»، وعـرض الفيلسـوف هذا كمايلي بقوله:«العـالم هو وحـدة بسبب توحـد منظمـه، مثله في ذلك مثل جيـش»، فـواجب الذي يدمج جيشاً في وحدة أن يفعل ذلك من خـلال وحدة الهدف الذي يسعى من

أجله ويناضل، وهو النصر، وهذا من حيث المبدأ يقع على كاهل قائد الجيش ورئيسه، ومثل هذا إن واجب جعل العالم وحدة، يقع بشكل رئيسي على كاهل ملكه.

[41] : وعلى كل حال، إنني أشك أن يكون هناك رجل ذي عقل سليم يمكن أن يعتقد في هذه الأيام، وفي هذا الجيل، يمكن توفر ملك دنيوي واحد لكل العالم، يمكنه أن يحكم كل شيء، ويمكن للجميع أن يطيعوه على أنه رئيسهم الأعلى، وإذا ما توفر ميل نحو هذا الاتجاه، سوف تكون هناك حروب، وثورات، وتمزقات بدون نهاية، ولن يكون هناك أحد قادر على قمع هذه الاضطرابات بسبب كثرة الناس، ومسافات المناطق المتورطة، والفوارق المحلية، وميل الناس الطبيعي نحو الصراع، ومع أنه كان هناك أشخاص أطلق عليهم اسم ملوك الدنيا، أنا لا أعتقد أنه وجد أي إنسان قد أطاعه الناس جميعاً منذ أن شغل بنو البشر الأرض وسكنوها، وكما أعتقد، ما من إنسان قرأ أن الغربيين على هذا الجانب من بلاد الاغريق قد كانوا رعاياً للملك الاسكندر، أو خضعوا لسلطانه، لكن من المعقول بالنسبة للمسائل الروحية، يمكن أن يوجد — لابل ينبغي أن يوجد — أمير واحد، وملك، يمكنه أن يسوس بمشاعر روحية ممانعة سلطوية في الشرق، وفي الغرب ،وفي الجنوب، وفي الشمال، ولايمكنني أن أرى كيف لهذا أن يحدث، مالم تتوفر الاعدادات من أجل تعلم اللغات، إما وفق الطريقة التي عرضت أعلاه، أو وفق طريقة ما أفضل، حتى الرب القدير نفسه الذي قد ضرب لنا مثلاً عندما علم بالأعداد وبالأمثلة وأنواع أخرى من الأحاجي، قد أعطى في موعظته لحوارييه ورسله، معرفته بجميع اللغات وبجميع أنواع الحكمة، لأن هؤلاء كانوا سيتولون التبشير بالانجيل إلى جميع الناس، وقد قال لهم:«عندما ستظهرون أمام الملوك والحكام لا تهتموا كيف أو بما تتكلمون، لأنكم تعطون في تلك الساعة

ما تتكلمون به»[متى :١٠ / ١٨ — ٢٠ ، باختزال].

٦٤ : لم يوجد، ولا يوجد، ولن يوجد، أي واحد إلى جانبه، يمكنه أن يعطي مثل هذه الأعطيات العظيمة، ومثل هذه الفضائل العظيمة، فله وحده حفظت قدرة صنع المعجزات، وبالنسبة له مامن شيء مستحيل، يمكن أن يتماشى مع طبيعة الأشياء، وطبعاً هو لا يمكنه صنع أي شيء يكون في الوقت نفسه موجوداً وغير موجود، لكن وجود الافتراضين المتعارضين في الوقت نفسه أمر صحيح، وكذلك تعارضهما بالنسبة إلى الحقيقة، وفي الحقيقة، لم يوجد قط مخلوق كان بإمكان ذاته صنع أقل المعجزات، لكن الرب القدير، أعطى بطريقة إعجازية المبشرين الذين اختارهم ليرسلهم إلى جميع أرجاء العالم، معرفة جميع اللغات والقدرة على التحدث بها، كما لو أنهم كانوا من السكان المحليين لعدة مناطق، وفعل هذا من أجل أن يجعل الناس جميعاً يؤمنون، ويتعمدون، ومن ثم ليكونوا رعايا لبطرس، أمير الرسل، جاعلاً من جميع المؤمنين كومنويلساً واحداً.

٦٥ : لايمكن لخليفة بطرس، نائب المسيح، والذي دون سواه المقلد الوحيد له، أن يمنح المعرفة بشكل مفاجيء وإعجازي، فلماذا إذن لا يقوم بإتخاذ إجراءات للتزويد بالمعارف اللغوية والقدرة على التحدث في أي منها، بعدما أطلع على وسائل لجعل الطلاب يعرفون، ويفهمون، ويمكنهم التكلم بجميع اللغات، حتى يجري إرسالهم إلى الخارج للقيام بأعمال التبشير؟ وهذه الوسائل لن تكون متوفرة له فقط، لا بل من السهل الحصول عليها، وقليلة التكاليف، وفيما يتعلق به، قليلة المتاعب، وسيقدم هؤلاء إلى الناس الذين سيبشرون بينهم منافع أخرى، وفوائد ليس فقط إلى أرواحهم بل أيضاً إلى أجسادهم، التي سوف تنتفع بشكل خاص من الطبابة ومن الجراحة، ولسوف ينال مؤسس ومنظم هذا العون وهذه الخدمة أعظم جائزة أبدية وسيتمتع بها، حتى وإن لم يكمل

— أو لم يصل إلى — هدفه المنوي بقيام اتحاد كامل للمسيحيين بالايمان وبالطاعة، ولسوف تبارك الرحمة السماوية بداية هذا العمل ومتابعته، وإكماله.

٦٦ : ومن أجل أن يحقق مصمموا هذا المركز الموصوف به أهدافهم، ينبغي إصدار أمر بوجوب تلاوة مزمور كل يوم في كل واحدة من مدارس المركز على انفراد لصالحهم، شرط أن تكون تلاوة معتدلة، ومثل هذا قداس للأحياء وآخر للأموات، وبذلك يأمل كل واحد من المؤسسين ومن الموصين من الأحياء ومن الأموات بنيل غفران يومي.

٦٧ [42] : ولسوف تكون المنافع الاقتصادية الناتجة عن المركز المقترح ذات فوائد عظيمة لجماعات سكان تلك البلدان الشرقية، فهم سوف يصدرون منتجاتهم، وبذلك سوف يربحون من ذلك أكثر بكثير مما لو كرست هذه البضائع بشكل تقوي إلى الفقراء، الذين إن وجدوا سوف يكونوا نادرين، آخذين بالتقدير من جانب أول العدد الهائل للمعدمين، ومن جانب آخر ندرة التوابل والمنتجات الشرقية الأخرى التي نحتاج إليها، وسوف يجري تأمين هذه السلع إلى جميع الكاثوليك بأسعار معتدلة، ولسوف يتم صنع هذا دون مضايقة أي إنسان وإيذائه بشكل فعال، لأن كثيراً من المخاطر المعروفة والمصاعب في البر وفي البحر سوف تتوقف، فبعد إتمام سحق العدو في الأرض المقدسة، والقضاء عليه بنعمة من الرب، يمكن لحاكم تلك البلاد، أن يأمر — وأن يشرف على التنفيذ — بشحن جميع منتجات تلك البلاد بمراكبها إلى هذا الجانب من البحر، وبذلك تصبح التوابل وبقية المنتجات متوفرة، وبالمقابل من الممكن نقل منتجاتنا إلى هناك، ويمكنه أيضاً تنظيم أسعار الشراء وأجور النقل، وبذلك يكون بالإمكان تقدير أسعار عدد كبير من السلع، وكذلك الحد من زيادة الأسعار اليومية مع جشع التجار.

٦٨ : ويمكن للسيد البابا، والكرادلة، ورجال الدين الكبار، وكذلك الملوك والأمراء الذين ستوضع المدارس في مناطقهم، وأيضاً رعاة الديرة الذين من ممتلكاتهم سوف ينفق جزئياً على هذه المدارس، يمكنهم من خلال طلبة هذا المركز تحصيل ليس التوابل فقط، بل كل شيء نادر وثمين يرغبون بالحصول عليه من الشرق، وبالنظر لما تقدموا به من قبل من كرم وإحسان، سوف يجري تزويدهم بهذه المنتجات بدون تكاليف تقريباً.

[43] : لماذا علي أن أكتب حول منافع هذا المركز، إذا كان مؤسسوه وطلابه يرغبون بالانتفاع منه ومن امتيازاته في توزيع المنتجات، فمن غير الممكن أن يتصور إنسان حي لوحده جميع منافعه أو أن يكتب عن ذلك، مثلما قال الفيلسوف:«لا تتكاثر الشياطين بشكل طبيعي، بل بطرائق غير طبيعية».

٦٩ : في الوقت الذي يتبع فيه بعضهم سياسة إنزال الأذى بالمسلمين، بشن الحرب ضدهم، والاستيلاء على أراضيهم، وسلب ونهب ممتلكاتهم الأخرى، لعل الفتيات المدربات في المدارس المقترحة، يمكن أن يعطين بمثابة زوجات إلى القادة المسلمين، إنما مع احتفاظهن بإيمانهن، خشية من مشاركتهن أزواجهن في الكفر، وبجهودهن — مع عون الرب — وبتبشير الرسل — وبذلك يمكن أن ينلن مساعدة من الكاثوليك، لأنهن لا يمكن لهن الاعتماد على المسلمين — يمكن أن يتمكن من إقناع أزواجهن ، وجرهم إلى الإيمان الكاثوليكي، وهكذا قليلاً قليلاً، من الممكن جعل عقيدتنا معروفة بينهم، ولسوف تناضل زوجاتهن بحماس شديد من أجل هذا، لأن لدى كل واحد منهم كثيراً من الزوجات، فجميع الأثرياء وذوي السلطان بينهم يمارسون حياة شهوانية، هي لغير صالح زوجاتهم، اللائي ترغب كل واحدة منهن أن يكون لها زوج خاص بها(وهذا مالا يجب أن نندهش منه) بدلاً من

مشاركة سبعة زوجات أو أكثر في زوج واحد، ولهذا السبب — حسبما سمعت مراراً من التجار الذين يترددون على بلادهم — من الممكن بسهولة التأثير بقوة على نساء تلك الطائفة، وجذبهن نحو طرائق الحياة لدينا، من أجل أن يكون لكل رجل زوجة واحدة.

٧٠ [44] : عندما يتحقق إقامة سلام عالمي ووئام بين جميع الكاثوليك الخاضعين للكنيسة الرومانية، وفق الطريقة المقترحة، وعندما تتناقص الحروب والمخاصمات بالوسائل التي سيأتي شرحها، وكذلك من خلال التأثير الذي قضى به موجد الأشياء كلها، سوف يكون إثر هذا الكاثوليك في أوضاع أكثر قدرة فيها على إخضاع الأمم المختلفة، فهم لن يكونوا بعد الآن قادرين على شن الحرب أحدهم على الآخر، ولن يخشوا من إمكانية مثل هذه الحروب، بسبب العقوبات القاسية المعدّة لهم، والمعني بذلك: فقدانهم لأراضي أسرتهم مع ممتلكاتهم الأخرى، ولهذا السبب، من المحتمل كثيراً، أن يقوم الأمراء المتحمسون، على الفور، بدمج قواهم وتوحيدها ضد الكفار، أو على الأقل إرسال جيوش لا تحصى من المحاربين من جميع الاتجاهات، حتى تبقى بمثابة حاميات دائمة في الأراضي التي سوف يتم الاستيلاء عليها، وبهذه الطريقة سيزداد كومنولث الكاثوليك الخاضعين للكنيسة الرومانية زيادة عظيمة جداً، في وقت قصير،وذلك في مواجهة جميع الآخرين الذين يفتقرون إلى تنظيمات اتحادية، وإحسان نحو الرب، ونحو جيرانهم.

ولا شك أن الاهتمام بدراسة الفلسفة، والحض عليها بقوة في جميع أرجاء كومنولثنا، من الممكن أن يسهم كثيراً في الوصول إلى هذه الغاية، فلقد شايعت زهرة الروح العسكرية التعلم والتمذهب من مملكة إلى مملكة: من الهنود إلى الآشوريين، ومن الآشوريين إلى الإغريق، ومن الإغريق إلى الرومان، ومن الرومان إلى شعوب شمالي الألب (Cismon tane)وذلك حسبما نقرأ في تواريخ الأقدمين، وإذا ما قامت الطائفة

الكاثوليكيــة بتكويـن كـومنـولث واحــد في جميع الممالك والأمــاكن، وشجعت الدراســة في جميع الأمـاكن الموائمـة، ينبغي أن تكون النتيجـة امتـلاك هذا الكومنولث خـلال مـدة من الزمن السلطة على العـالم كله، وستتعـاظـم هذه السلطة وستـزداد صـلابة مع مـرور السنوات، ومن المؤمل — لا بل من الممكن التحقيق — أن هذا سيتبلور في ظل المملكة الروحية وطاعتها وليس في ظل المملكة الدنيوية.

٧١ [45] : من الممكن — لا بل من المتـوجب — أن يحدث طلاب هذه المؤسسات تقـدماً كبيراً أكثر من الآخـرين، وهذا واضح من حقيقة أن أساتذة المركـز البارعين والمجـربين، سوف يبحثـون عن تبني برنامج متسـارع بسماته، وبطرائقه، وبدراسـاته، وبوسائل الحصـول على الخبرة، ويتـوجب اختيــار صبيـان في الرابعـة، أو الخامســة، أو الســادســة من أعمارهم، أو أسن مـن ذلك، تكون رؤوسهم حسنة الشكـل والتكوين، وهم أهل للتــقدم، على شرط أن يكونوا ممن لن يـعادوا إلى آبائهم، إلاّ بإذن من المركـز، ويتوجب أن يتلقى مـائـة، أو أكثر من هؤلاء الصبيــان تدريباتهم في مكان واحد، مجهز بشكل جيد من أجل هذه الغاية

وأن يدرسوا أولاً ويتـدربون على ترتيل المزامير، وأن يقومـوا فيما بعد في الجزء الثـالث من النهـار، بالغناء وبأعمال قـريبـة من ذلك ومشـابهة، ويتوجب تعليمهم في ساعات أخرى من النهار مبادىء النحو اللاتيني(الدوناتيــزية Donatus) وأن يكون ذلك وفق الطـرائق والعــادات الرومانية، وأن يتعلمـوا أيضاً الفروع الأخرى من فـروع النحو، وعندما يستمع أحـد الصبيان كتاب كـاتو Cato وكتب نصوص صغيرة أخـرى، عليـه أن يحضر أربعــة دروس طويلة في اليــوم، أو إنهاء هذه الدروس، وعليه أن يصغي إلى بعض النـصوص الرئيسية، وبعد هذا إلى واحـد آخر يقـوم بإعـادتها، وعليه أن يردد وراء المعيـد، مثلما يفعل إزاء النصـوص التي يتقنهـا، والـذي ينبغي أن يقـرأ له أولاً تصريف الأسماء

وأحكام اللهجات، وبعد هذا عليه أن يعيد تلاوة كل ما يطلب منه، وأن يفعل ذلك على الفور، وفقط في المساء يقوم بكتابة مواضيع إنشاء باللاتينية.

وعندما يبدأ الصبيان في إحراز قليلاً من التقدم في هذا، عليهم أن يتكلموا دوماً باللاتينية، فيعوّدوا أنفسهم على هذا في جميع الأوقات والأماكن، وبعد الانتهاء من النصوص الصغيرة، يتوجب عليهم سماع التوراة في أشكال أولية، وليكن ذلك ثلاث مرات أو أربع مرات في اليوم الواحد، وأن يكتبوا مواضيع إنشائهم من مؤرخيه ومن شعرائه على التوالي، بما أنهم سيكتبون مجرد تدريبات، وعندما تحل الأيام المعدة للإعراب، عليهم أن يعربوا أولاً [أغاني] Gradualما بعد الـ Bre-viary ، إنها ليس الـ Missal، باستثناء ما هو موجود في التوراة، وبعد الانتهاء من الـ Breviary عليهمّ إعراب الحكايات الذهبية للقديسين[ليعقوب دي فورين Voragine المتوفى حوالي سنة ١٢٩٨]، وبعض الأشعار القصيرة، المنتخبة من حكايات الشعراء، وعليهم كتابة مقالات قائمة على هذه الحكايات، ويظل أفضل نقلها إلى اللاتينية مرة ثانية، وبهذا سوف يكونوا أكثر اعتياداً عليهم في المستقبل، أكثر من التمارين المعتادة التي هي بلا فائدة، وبهذا لن يكونوا قد ضيعوا وقتاً حتى الآن، ولسوف تكون المقالات التي كتبوها ذات فوائد دائمة بالنسبة لهم، وبعدما يكونوا قد فرغوا من سماع التوراة كلها، عليهم أن يعيدوا اثنتي عشرة صفحة منه كل يوم، ومثل هذا حكايات القديسين، وبالنسبة للشعر عليهم نظم بعض الأبيات البسيطة، لكن ليكن ذلك لوقت قصير، وعندما يأتي الوقت أخيراً، ويصبحوا جاهزين لسماع المنطق يتوجب إسماعهم الأعمال الشعرية خلال ثلاثة أشهر الصيف، وليكن ذلك أن يستمعوا في اليوم الأول كاتو Cato، وفي اليوم الثاني ثيودولوس Theodulus ، وفي الأيام الثلاثة التالية توبياس

Tobias ، وهكذا بالنسبة للشعراء الآخرين، وعليهم الاستماع لستة دروس في كل يوم من أستاذين، وينبغي عليهم فهم هذه الأشعار من قبل أنفسهم، كلهم تقريباً، وذلك بسبب أن القصص والشروح سوف تقدم بلغة بسيطة، لأن الذي هو مطلوب من هذه الكتب تراكيب الجمل فقط، وأشكال من المعرفة صالحة لأي شاب، عندما يبدأ بصنع بعض التقدم، ويمكنه أن يقرأهم ويفهمهم، ولديه الجاهزية لتقبلهم كأشعار رومانسية، وإذا ما أبدى بعض الشباب الاستعداد للتقدم، عليهم العمل في هذا المجال ليلاً ونهاراً لمدة سنة كاملة، إنما باستثناء الأوقات المخصصة للراحة، ولسوف يتمكن معظمهم، بعون الرب، من إكمال هذه التدريبات في جميع فروع المعرفة قبل وصولهم إلى سن العاشرة، أو على الأكثر سن الحادية عشر، وآخرون في سن الثانية عشر على الأكثر، وفي أثناء دراسة الموضوعات الموصوفة آنفاً، على الصبيان سماع[رسالة] دكتورنيل Doctrinale [النحوية]، وليكن ذلك في أوقات يختارها أساتذتهم، وليركزوا بشكل خاص على ما يتعلق بالضمائر والأفعال، وآخر ما عليهم تعلمه هو [رسالة] Graecismus [النحوية حول التفاعيل السداسية]، وليقتصر ذلك على فهم معانيها الأدبية، لكن من دون الإصرار على أية جوانب أخرى.

٧٢ [46] : ولدى إكمال الطلبة لهذه الدراسات، ينبغي تحويلهم إلى مدرسة أخرى، حيث يبدأون دورات تعلم المنطق، وعليهم أن يشرعوا في الوقت نفسه بتعلم الإغريقية أو العربية، أو أي لغة أخرى، حسبما يوجههم المؤسس الجديد للمدرسة ويختار لهم، ولدى دراستهم لأي لغة جديدة، عليهم أن يتعلموا أولاً أشكال كلماتها، مع بنائها النحوي.

أما فيما يتعلق بالمنطق، فعليهم أن يتعلموا أولاً الرسائل المعيارية، والشروح الموجزة لها، وينبغي اتخاذ احتياط أن يتولى شخص بارع بهذا

الفن اختصـــارهم لهم وايجازهــم، وأن يوضح المسألـة الإشكاليــة التي طرحها الفيلسـوف في كل واحد من كتبـه حول المنطق، وأن يكون هذا الايضـاح محكماً، وبذلك لن تحتـاج الرسـائل بعـد سماعهـا خـلال دورة الدراسـة مـرتين أو ثلاثة، إلى شرح مكتـوب، وبعـد هـذا يتـوجب أن يستمعـوا إلى الكتب مرة أخـرى على شكل محاضرات منتظمـة، وينبغي إنجاز هذا كله مع بلوغهم الرابعة عشرة من العمر .

وليشرعـوا بعــد هذا بتعلم العلوم الطبيعيـة، وبسبـب إسهـابَ هذا الموضـــوع وعمقـــه يستحسن اعتماد كتـــاب«الطبيعيـــات للـراهب ألبيرتوس[مــاغنوس Magnus]، الذي يحتوي فعلياً جميع ما فكر به الفـلاسفـة مع إضـافـات كثيرة، واستطرادات، وينبغي اختصـار هذا الكتـاب بقـدر الامكان، إنما شريطة أن يكـون هذا الاختصـار واضحـاً بقدر يستطيع فيه الانسـان المهتم أن يفهم هذا المختصر، من دون العودة إلى النص الكامل، وعلى الشبـاب الاستماع لهذا المختصر كـامـلاً خـلال العـام الأول على شكل أربعـة محاضرات في اليــوم، من دون أسئلة، ثم يستمعون إليـه مرة ثانيـة مع أسئلة، ثم يقومـون بعد ذلك بسماع الكتب حسبما جرت العادة بقراءتهم في المدارس.

ولســوف يكون أيضـاً مفيـداً لهم أن يتـوفـر لديهم أسئلة مختـارة من كتـابات الراهب تومـاس[أوف كـانتمبري Cantimpre ، نشط ما بين ١٢٢٨ — ١٢٤٤] وسيغر [دي برابنت، ت ١٢٨٣] وبـاحثين آخرين، وينبغي أن تدمـج كتـاباتهم كلهـــا في مصنف واحـــد، حـــول المســـائل الأسـاسيـة: أشكالها، وتكوينهـا، وعموميـاتها، وفسـادها، وحـول جميع مشاعـرها ووظائفها، وحـول مزايا الأرواح، وأعمالها وطبيعتهـا، وحول عناصر الطبيعة وأعمالها، وحول الأجسام السماوية، وطبيعتها، وتأثيراتها، وحـركتها، وبعض المواد وفق هذا التسلســل واستيعابها بسبب ترتيبهـا، ولـسوف يـكون من الصعب ـجداً ترتيب المادة وـفق هذه الطريق، علماً

بأن ذلك سوف يكون مفيداً جداً على الطريق إلى التعلم، هذا التعلم الذي من الممكن تحصيله بسهولة، وفي وقت قصير، بهذه الوسائل، وما أن يحصل الانسان على هذا التعلم، سوف يتمكن من الاحتفاظ به، وتذكره بعقله متى شاء.

٧٣: وعندما تكتمل هذه الدراسات، عليهم الشروع بسماع محاضرات في علوم القيم والأخلاق، والمقصود بهذا : القيم (المونوستيكا -Mono stica)، والأخلاق، والخطابة، والسياسة، وتكون هذه المحاضرات مثلما تقدم فيها خلاصات واختصارات، فلقد رأيت الأخلاق في عشرة كتب اختصرها المعلم هيرمان الألماني(كان نشطاً سنة ١٢٥٠)، وبعد هذا العرض المبدئي، سوف يستمعون إلى نصوص الكتب التي تشكلت من قبل من محاضرات، مع أسئلة أعدت مثلما حدث من قبل بالنسبة للأسئلة الطبيعية، وذلك مع قليل من المناظرات قد كتبت من كل واحد من العلوم، لأن الحشد من المحاضرات قد يفضي إلى الفوضى في الثقافة وفي إصدار الأحكام الصحيحة، أكثر مما يقود إلى المعرفة.

٧٤ : وبعد إكمالهم لهذه الدراسات خلال عام واحد، عليهم الشروع بالاستماع إلى محاضرات بنصوص التوراة المشروحة، مرتين في اليوم، وذلك مع كتاب الـ Summae في الصباح، مع أسئلة متجاوزة الأسئلة المتعلقة بالطبيعيات، ويتبع الذين سوف يصبحون مبشرين هذه الدورة التعليمية لمدة عامين أو ثلاثة أعوام، وإذا ما قام بعضهم بذلك، سيكون كافياً للآخرين اتباع هذه الدورة مرة واحدة لمدة سنة، أو حتى لمدة أقصر، وبعد هذا يتوجب على بعض الأفراد استماع محاضرات بالقانون لمدة عامين، مما يمكنهم من سماع المجلدات الخمسة كاملة، وعليهم بعد هذا استماع نص الـ Decretum والـ Decretals الـ Decretum مرتين في اليوم، والـ Decretals مرة واحدة، ويمكن للذين خططوا ليعيشوا بمثابة رجال دين في بيت الرب، التخلي

عن دراسة القوانين، لكن لا يجوز لهم التخلي عن الـ Decretum والـ Decretals، ويمكن للذين خططوا لحياة مدنية التخلي عن دراسة الطبيعيات، وأن يهتموا أكثر بالقيم، وبالقانون المدني والقانون الكنسي، وعلى كل من أراد الاستماع إلى محاضرات بالطب، أن يفعل ذلك بعد الفراغ من محاضرات الطبيعيات، مع أنه سيكون مفيداً أن يتجاهلوا التوراة والـ Summae، بما أن هذين الكتابين يتعاملان مع المبادىء التي هي أسس جميع العلوم، وحسبما قال الفيلسوف:«جميع العلوم متداخلة»، ولسوف يكون مفيداً جداً أن تكون عارفاً بمبادىء جميع فروع المعرفة، أو على الأقل أن لا تكون جاهلاً بها جهلاً تاماً، علماً بأنه سيكون مفيداً جداً لو أنهم حملوا الكتب معهم، وعلينا أن نفترض أن بعض المستمعين سوف تكون الكتب معهم، وأن بعض هؤلاء الذين ليست لديهم الكتب سوف يحصلون عليها، زيادة على هذا، لأنهم امتلكوا أساساً ممتازاً في العلوم، سوف يتقدمون كثيراً من خلال الكتب التي تعلموها اعتماداً على أنفسهم، بعد تركهم المدرسة.

٧٦ : ولسوف يكون مفيداً بالنسبة للطلاب الذين نالوا تدريباً قصيراً، والذين سوف يكونون قضاة وحكاماً لمدن كبيرة ولشعوب، أن يكون معهم قوانينهم في مجلد واحد، كتبت فيه القوانين بشكل واضح ومختصر، وبوضوح لمرة واحدة من دون تكرار للقضايا المتشابهة، ويحتوون على أقوال باتة، من الممكن قراءتها وفهمها من دون شرح أو تعليق، ومن الممكن صنع هذا، بوضع جميع القوانين التي هي من نوع واحد تحت عنوان واحد، بطريقة يتمكن فيها أفراد ذوي ثقافة جيدة من فهمهم وتملكهم من دون أستاذ، وسيكون مفيداً امتلاك الـ De-cretum والـ Decretals بشكل مختصر، بحيث يتمكن الطلاب الذين لديهم وقت قصير من تناولهم وفهمهم بشكل مختصر، بعيداً عن القو انين المتداخلة والمضطربة، والقوانين العامة والقوانين الخاصة حول

أي مـوضوع من المواضيع مهما كـان، وسـوف يتمكنون بمساعـدة هذه المختصرات، مضـــاف إليهـــا الخبرة، من حكم أنفسهـم والآخـــرين بمثابةمواطنين جيدين بتوافق مع القـوى العامة والخاصة المثبتة بوساطة العـادات، ومع الإفادة من هذه الخبرة، يمكنهم متـابعة دراسـاتهم حتى الاكتمال وذلك بعد حصولهم على كتب القانون.

ولسوف تكون هذه المختصرات والمختارات بمثابة كناشات للطلاب الفقـراء، وللذين هم بالعـادة منشغلين بفـروع المعـارف الأخـرى، مثل الفلسفـة واللاهوت، ممن لا يمكنهم تكريس الوقت المعتـاد والضروري من أجل تملك مواد مجلدات كبيرة، فحيـاة الانسان حقبة قصيرة، ونادراً ما تسمح له مشـاغله بالمسائل الروحية والمسائل الدنيـوية بإكمال دراسته ومعارفـه حول التفاصيل الكثيرة جـداً المتعلقة بالقـانون المدني والقانون الكنسي، وذلك بالاضـــافـــة إلى الفلسفـــة واللاهوت، ومـع هذا يمكن لأشخاص تحقيق إكمال مـا يصبون إليه من معـرفة، بمتابعـة دراساتهم، وفق الطريقـــة المقترحـة من قبـل، ويستطيعـون قبل وصـــولهم إلى سن الثلاثين أن يصبحـوا بارعين جداً في القانـون المدني، والقانون اللاهوتي، وخبراء بطرائقهم في الـوعظ، وعندمـــا تكون دراســـة الكتـــابات عن العهـدين القـديم والجديد، وحيـاة القـديسين قـد استكملت في مـرحلة الطفـــولة، ثم جـــرى تكرارها في محاضرات رسميـــة حـول كتـــاب الـ Summae لمدة سنة، وقتهـا يمكن حسبما تقـدم الوصف، بعـد دراسـة الفلسفة، أن يصبحوا منذ الطفـولة جاهزين بشكل كبير لفهم، ولتقديم، ولتنفيـذ ما يلزم في عـدد من طقـوس أعمال الوعظ، في كثير متنوع من أيام الأعياد، ولسوف تصبح طرائق الوعظ لديهم عادية جداً إلى حد أن تصير وكأنها طبيـعة ثانية، وينبغي أن يترافق هذا ويتماشى مع الأ خذ بما جاء في القـصة الفلسفية التي حكت كيف درب أ فلاطون الأطفال على أعمال الفضائل، حتى غدت هذه الأعمال بمـرور الأيام طبيعة ثانية لهم،

وقد اندفعوا للقيام بهم وتنفيذهم، وكأن ذلك عملاً طبيعياً، وقد أوضح ذلك بقوله:«العادة طبيعة أخرى»، أي أنها تغير الطبيعة.

[48] : لقد أعلنت عدة قوانين مقدسة عن الخبرة، أنها سيدة الأمور، وقد وضح أنها هي التي توجب على الأساقفة الذين هم قادة الكنيسة، أن يتدربوا بشكل دقيق في الفلسفة وفي اللاهوت،وفي القانونين، وفي استخدام وفي ممارسة المعرفة من هذا النوع وهذا واضح بالنسبة للذين لاحظوا عجز الأساقفة الذين تعلموا، وبشكل متقن جداً، القانون المدني فقط، من دون القانون الكنسي، والشريعة اللاهوتية.

٧٧ : ويصح الشيء نفسه وينطبق على الذين أتقنوا فقط القانون الشرعي، مثل اتقان بعضهم فقط للقوانين الناظمة للرهبان.

٧٨ : وينطبق الحال نفسه ويصح بالنسبة للذين حصلوا على معرفة الفلسفة واللاهوت، ويتوجب على الأسقف القيام بهذا شخصياً، وليس من خلال الآخرين، وذلك من أجل ممارسة الأعمال التي لها علاقة بالتأمل، والأعمال المفيدة، من أجل أن يكون أكثر تأثيراً، وتهذيباً، وأن يكون أكثر خشية، وتوافقاً مع كلمات الانجيل:«يسوع ابتدأ يفعله ويعلم به»[أعمال : ١ / ١]، ومع أنه كتب من قبل المحامي الأعظم:«فاختارت مريم النصيب الصالح الذي لن ينزع منها»،[لوقا : ١٠ / ٤٢]، إن هذا لا يكفي من أجل الأساقفة في علاقتهم مع الخاضعين لهم وتحت طاعتهم.

وإذا ما أراد أسقف أن يتفرغ كلياً للتأمل وفق أسلوب مريم وطريقتها، عليه أن يدخل في إحدى طوائف الرهبنة الديرية، أو أن يعيش في الصحراء، تاركاً للآخرين عصا الأسقفية، وإذا ما كان بعض الأساقفة مكرهين على أن يكونوا عاملين في منحيي الحياة، وأن يتباركا وفقاً لهما، يتوجب عليهما أن ينالا من التدريب ما فيه كفاية من أجل

حاجتيهما في المسائل المرتبطة باتجاهي الحياة هذين، وذلك بقدر ما يمكن للطبيعة البشرية أن تتفهم وتحصل من مبادىء المعرفة، ولا يجوز لأي إنسان عندما يحصل على ما يكفي من معلومات، أن يحدد غايته النهائية بالحصول على الكمال، حتى يستريح عندما يصل إليها، لأنه لا يمكن أن يوجد في العالم إنسان بهذا الكمال، بل الذي يوجد هو الذي يحصل المزيد من الفائدة من المزيد من التعليم، والرب وحده هو الذي يمكنه تحقيق الوصول إلى غاية الكمال.

٧٩ [49] : ولسوف يكون مفيداً بالنسبة لبعض طلبة هذا المركز أن يتعلموا في مجال علوم الرياضيات — بقدر ما يراه الاختصاصيون في هذه العلوم موائماً وكافياً، وبشكل مختصر — بسبب كثير من تطبيقاتها العملية — وينطبق هذا بشكل خاص على المسائل التي تناولها الكتاب الصغير الذي صنفه الراهب روجر بيكون، بعنوان«حول منافع الرياضيات»، وبيكون من رهبان طائفة الـ Minorites ، ويتوجب الاهتمام الزائد والخاص بالموضوعات التي يمكن أن تكون ذات فائدة من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، ومن المتوجب على كل كاثوليكي، خاصة المتعلمين، أن يعرفوا مظهر، ووضع، ومكان العناصر، وحجمها وسماتها، وتراكيب الأجرام السماوية وحجمها، وسرعة الشمس وحركتها وتأثيرها، وكذلك القمر، والنجوم الأخرى، وأن يعرفوا كم الأرض صغيرة، إذا ما قورنت بها، وكم هي عظيمة إذا ما قورنت بالانسان، وهذا كله من أجل الانسان عندما يتعجب من هذه الأشياء، يمكنه أن يحمد خالقها، وأن يقمع رغباته الدنيوية وأن يتشامخ ويتكبر بسبب الأشياء الدنيوية، لأن جميع الأشياء في هذا العالم، والأشياء التي هي هنا من تحت، تعدّ لا شيء عندما تقارن به، وهكذا ينبغي أن تقدر.

٨٠ [50] : لنفترض أن أحدهم سوف يعترض، وسيقول مثل عدد

كبير آخر:«إن طرائق التعليم التي اتبعت حتى الآن كـانت كافية لآبائنا، الذيـن ربطات أحـــــذيتهم، الكاتـب الحالي لهذا العمل غير جـــــدير بفكهـا»،وسيكون الجواب: الاقرار بأني بالفعـل غير جدير بفكهـا، ومع هذا إنه قــد تحرك برغبـة طبيعيــة من أجل استرد د الأرض المقــدسـة والحفاظ عليها، وغالباً ما قام كاتب هذا العمل بالتذكر والتأمل حول ما هو ـضار وـما هو مفـيد لهذا المقـــصد، مثل ـحدائقي ـقام أولاً بـتدمير النبـاتات الضارة، ثم الأشـواك، ثم الأعشاب، وقـام بعد ذلك بزراعـة الحبوب ومزروعـات أخرى، استهدف أن يحصدها عنـدما ستثمر، ولهذا بحث بهذه المسائل، وبالطرائق المتقدمة الذكـر المتعلقة بالتعليم، كوسائل مفضية للمسـاعدة على الحفاظ في الأرض المقـدسة، وللإستيـلاء عليها، ففي تلك البلاد سوف يكون الطلاب غير قادرين على نيل أي تقدم، أو القدرة على امتلاك الوسائل من أجل إحداث التقدم، حتى تصبح البلاد غير مضطربة ومتحـررة من الحروب، وأيضـاً لـن يتمكنوا بسهـولة من إيجاد أساتذة يقـومون بتدريبهم من أجل إحداث تمـدم سريع في ميادين العلوم العمليـة النـافعـة، لأن كل أستـاذ سـوف يـرغب[في ظل النظام القائم]بأن يبقي الطلبة يتعلمون منه لوقت طويل.

وسيعتقد كل أستاذ بشكل عام بأن موضوعه هو الأكثر أهمية ومنفعة من جميع الموضوعات الأخرى، وفـوق هذا يعتقد كل واحد بشكل عام بأن المعلومـات التي يمتلكهـا، والتي يرغب بتملكهـا بشكل كـامل هي كافية لأن تقـوده هو شخصياً مثلما هي كافية للعـالم أجمع، ولقد نسي أنه ليست المعـارف العظمى لوحدها ضرورية لقيـادة العالم بل أيضـاً الخبرة العملية.

كما أن معرفة موضوع من المواضيـع مشفوعة بالخبرة العملية لموضوع آخر لن تكون كافية، ـمالم يكن الموضوعان متصلان ببعضهما بعضاً، ولا يمكن تحقيق هذه القــرابة والصلة، مـالم يتم اختـزال طريقــة الدراسـة

ووقتهــا، للسماح للذين لديهم معلومــات نظرية بالحصــول على الخبرة العمليـة بسرعــة كبيرة حتى يتمكنوا من تملكهـا واستخـدامهــا لوقت طويل، قبل أن يبـدأوا بالعمل بشكل أحمق من خـلال انحـدار قـواهم العقليـة، وقدرتهم على إعطاء حكم سليم، فقـد قال الفيلسـوف:«تشيخ أدوات المشاعـر، لكن الفضائل لا تشيخ»، ولهذا علينا أن نكـون قادرين على إدراك ضرورة الاحتراز ضـد الأحـلام المجــردة، علماً بأن المعـرفـة ليست أدوات طاقة، بل هي حـاجات للأدوات، وتنحدر هذه الأدوات وتضعف بسرعـة من الرطوبة ومن البرد، وهي تضعف أكثـر في البلدان البـاردة، من ضعفها في البلدان الدافئة، ولهذا يمتلك الشيـوخ في المناطق الدافئة مشاعر عامة أكثـر، وقدرة أفضل على التذكر، وتجميع الأمور من الذين يعيشــون في بلدان باردة، وبين جميـع المناطق، المناخ المعتــدل هو المفضل، بما أن التطرف في المحيط يضعف القوى العقلية للانسان.

٨١ : وللأسـباب المذكورة من قبل، يتـقدم الشباب بسر عة كبيرة في العلوم ويصلون إلى الخبرة العملية بنشاط كـامل، ومع توقع حياة مديدة توافقـاً مع مسلمات القـانون، والطبيعـة، وبعـد نيلهم أولاً للمعلومـات النظرية، وبعــد ذلك للخبرة العمليـة، المســاندة للمعلومــات النظرية، سوف يكونوا وقتـذاك قادرين على حكم عقول وأجسـاد الآخرين، لمدة طويلة، بسبب تـدريبهم الخاص من أجل المهمـة، لأنه كما كتـب«مـا من أحد يصبح متفوقاً بشكل مفاجىء».

٨٢ : يتوجب على الوقحاء أن لا يكونوا متـشوقين لعدم الموافقة على الشروع بمثل هذه التحسينـات العظيمــة، بل الـذي بالحري عليهم — بفضل نعــمة الرب — السعي ــجا هدين لتحسين وإكمال العمل غير الكامل من أجل المنفعة العامة، أو إذا مـا طرحنا القضية جانباً، يتوجب عليهم وقتها بذل الجهد في سبيل شيء أكثر مواءمة، وأكثر فائدة عملية، بقــدر مـــا يسمح الهدف الأســاسي، وعليهــم الحث على ذلك بلطف

وفصاحة، وقد قال الفيلسوف مؤيداً لهذا — مع أنه قد اكتشف شخصياً بالبراعــة طرق الحكمـة، ومبــادىء رفض القيــاس المنطقي — :«من الصعب اكتشاف مبادىء أساسية، إنما ما أن يتم اكتشافهـا سوف يكون من السهل الإضــافـة إليهــا»، وتماشيـاً مـع هذا وتوافقـاً قــال المشرع القانوني:«إن الذي يقوم ببراعة بتحسين الـذي جرى اكتشافه، ليس أقل جدارة بالمدح من الذي عمل الاكتشاف أولاً».

٨٣[1 5] : ولسوف يكون مفيـداً إبقاء الضعفاء جـداً، غير القادرين على عبور البحـر، في كل مدرسة من مدارس هذا المركـز، وعندما يتعلم هؤلاء أكثـر من برامج الدراسـة الموصـوف، وذلك بقـدر مـا تسمح به الظروف، يمكنهم القيــام بتعليم الآخــرين، وأن يصبحـوا في النهــاية رؤســاء للمـدارس، وينبغـي طلب عـدد كبير من أسـاتذة الاغــريقيـة والعـربية والكلـدانية، مع أسـاتذة آخـرين للغـات أخـرى تعدّ مفيـدة، وعليهم القيـام بتعليم آداب لغاتهم إلى أكثـر طلابنا ألمعية، وإلى آخـرين، يمكن أن تكفيهم دراســات أدنى لـلأدب وإلى اللغـة الأم، بقــدر مــا يمكنهم من العمل كمترجمين ـكلاميين لغير المتعلمين، وأعتـقد، أنه كما نرى بين لاتينياتنا عدة لغات أم متنوعـة، موجودة تحت آداب كل لهجة، سـوف يكون مفيــداً بالنسبـة للذين يرون أن لـديهم القـدرة على تعلم اللغات الأجنبية، أن يتعلموا اللغات العمـومية الأكثر بين هذه اللغات، مثل الفرنسية بين لاتينياتنا.

٨٤[52] : وينبغي تعليم التـلاميذ الأشد بنيـة بين تلاميذ هــذا المركز الفنون العسكرية، وبالنسبـة للآخـرين الذين يتبين مع مـرور الأيام أنهم متخلفين في دراسـة الآداب، ينبغي تعليمهم الفنون الميكانيكيـة، خاصـة الفــروع النافعــة منهــا، والمفيـدة لفن الحرب، مثـل فن الحدادة، وفن النجـارة، ذلك أن الفيلســوف يقـول:«فن الحرب أكثـر نبــلاً من جميع الفنون الميكانيكيـة، وذلك بسبب نبل الهدف الذي يسعى مجتهداً نحـوه،

والذي هو السلام»، وينتمي إلى فن الحرب أكثر من سواهم: الحداد. ومنتج الأسلحة، ومثل هذا واضح أن فن النجارة من أجل فن الحرب يعتمد على هذين الفنين.

وينبغي أن يتعلم كيفية صناعة مختلف الأدوات، مثل المرايا المحرقة، والأدوات الأخرى المفيدة في أثناء القتال، واعتماداً على الاقتراحات التي وردت في الكتاب الصغير المتقدم الذكر، أي كتاب«حول منافع الرياضيات»، من الممكن تحقيق هذا وصنعه بمعونة كل من فني الرياضيات والعلوم الطبيعية، فبوساطة هذه الفنون يمكن صنع أشياء لم يسمع بها قط في هذه المناطق الغربية.

ومن الممكن أيضاً أن يتدربوا على كثير من الحرف اليدوية المفيدة من أجل استرداد الأرض المقدسة، والاستيلاء على المناطق المجاورة لها، لأن عدداً كبيراً من الرجال البارعين وذوي الخبرة في هذه المسائل قد ارتؤي أنه ـمرغوب فيهم، ومن غير الممكن أن يكون إنساناً واحداً ـقادراً على إتقان هذه الحرف اليدوية كلها، وهذا واضح مما رأيناه دوماً نحن وأجدادنا.

ومن المؤ كد والواضح لكل ذي بصيرة، وما لا يمكن لانسان أن لا يلاحظه، أ نه من النادر و جود إنسان بارع في حرفتين يدويتين، ولم يوجد قط من أتقن ثلاثة حرف، فكيف على هذا أن يوجد إنسان بارع في جميع الحرف، التي هي بيننا لا يمكن تعدادها؟ وإذا ما انعدم هذا في الحرف اليدوية، انعدم أيضاً في جميع مقاصدها، وأسبابها، وتنوعها، ويتبع هذا القول أنه لا يمكن لإنسان واحد أن يتولى تدريس جميع الحرف اليدوية، أو أن يكون مؤلفاً لها جميعاً، ويبدو أن مرد هذا وسببه هو أن صانع الطبيعة، قد رغب في إزالة كل مناسبة من مناسبات التشامخ والرغبة في السعي وراء الأشياء المتوفرة في هذا العالم، وأن يعطي تسويغاً، وسبباً، ومناسبة لكل إنسان، لاحتمال أن يكون هو

نفسه ممتلكاً لممتلكات ومخترعاً لحرف يدوية من دون توفر المزيد من الشره والحسد، فوق الحد المقبول، وبذلك جعل الأشياء اللامحدودة مسؤولية إنسانية، مثلها في ذلك مثل اللغات — والآداب وكذلك العاميات — والأماكن والمناطق، وضاعف أيضاً الحرف إلى حد أن لا إنساناً واحداً، ولا مائة، ولا ألفاً، ولا مائة ألف، ولا مائة مرة ألف ألف، يمكن أن يكون فيهم كفاية للصالح العام، والازدهار العام، في إطار المعنى العام للعبارة، لن يكون رجال منطقة واحدة، أو مملكة، أو ثلاث ممالك، أو عشر ممالك فيهم كفاية لبعضهم بعضاً.

وهذا صحيح، إلى حد يبدو الأمر فيه أن جميع رجال هذا العالم هم بشكل عام مسهمون بشكل متبادل في خيرهم العام، ويتبع هذا أن على الناس أن يكونوا متسامحين، وبلا شره ولا حسد لأي إنسان في حظه السعيد الطبيعي، وأن يكونوا مثل الحيوانات الأليفة التي تتسامح مع بعضها بعضاً، وهكذا قام مخلص الأرواح جميعها بالتعبير عن إرادته، عن طريق أفعاله أكثر منه عن طريق أقواله، وقد وجهنا بكلمته وفعله بما يتطابق ويصح مع ما قاله الرسول:«كل عمل من أعمال المسيح ينبغي أن يكون توجيهاً لنا»(من روما : ١٥ / ٤)، وقد جاء حول رسالته، وكتب حول تعليمه:«ابتدأ يسوع يفعله ويعلم به»(أعمال: ١ / ١)، وقد حذرنا القانون المدني بقوله:«ليس مهماً كيف عبر الشعب الروماني عن إرادته، سواء أكان ذلك بالكلام، أم بالأوامر والأفعال ذاتها».

وبناء عليه ينبغي تعليم تلاميذ المركز مختلف أنواع الحرف التي ستكون ذات فا ئدة في استرداد الأرض المقدسة، والمحافظة عليها، وفي سعادة سكانها، بحكم كونهم المؤسسين لنظام يكون مناسباً في أوقات الحاجة الماسة، وعلى هذا التجهز وشراء معدات من مناطق نائية عبر البحر، تكون مفيدة جداً لتلك البلاد، وهي معدات نادراً ما توجد — إن وجدت — في داخل حدودها، ولقد قيل بشكل عام أن كل شيء

نادر، يعدّ ثميناً، ويحدث أن جميع الأشياء الضرورية والمفيدة لوجود الانسان ولسعادته، قد تتوفرْ بكثرة في بعض الأماكن وتنعدم في مناطق أخرى، فهكذا خلق الرب العظيم والرائع جميع هذه الأشياء للانسان، وهكذا وزعهم حتى لايجعلهم الانسان المعاق بالأضاحي هدفاً له، ورغبة لأن يعيش دائماً هنا بالأسفل.

٨٥ [53] : وينبغي تعليم جميع فتيات المركز، مثلهن مثل الذكور، النحو اللاتيني، والمنطق بعد ذلك، ولغة أجنبية واحدة، وينتقلوا بعد هذا إلى تعلم أسس العلوم الطبيعية، وأخيراً إلى الجراحة والطبابة، والذي أعتقده أن مثل هذه التدريبات — باستثناء النحو و الجراحة — ينبغي أن تعطى إلى الفتيات اللائي يظهرن أكثر قابلية للتعليم، ولديهن امكانات أفضل من سواهن، وينبغي أن يتعلمن أيضاً من كل علم من العلوم الأجزاء التي لها علاقة بالطبابة وبالجراحة، وبطريقة قابلة أكثر للفهم، وأكثر وضوحاً، وأكثر سهولة أيضاً، آخذين بعين التقدير ضعف جنسهن، ولأنهم ينضجن بسرعة اكبر من الذكور، ويحصلن بسرعة أعظم على مثل هذا الكمال، مما هو ممكن للذكور، ونرى الشيء نفسه في الاشجار وفي النباتات الأخرى، ويؤيد هذا ماقاله الفيلسوف، لدى حديثه عن هذه القضية في كتابه«حول الحيوانات» : «ينضج الذين أعمارهم أقصرْ بسرعة أكبر» .

ويمكن لبعض البارعات من هؤلاء الفتيات اللائي يظهرن أنهن قد لايتحملن عبور البحر، البقاء هنا بشكل دائم حتى يتولين المسؤولية عن الأخريات، وبمساعدتهن يمكن الاهتمام بالأخريات بإخلاص أكبر، وأن ينلن قسطاً وافياً أكبر في تعلم كل المعارف النظرية و العملية المتعلقة بالجراحة وبالطبابة، وبالمسائل التي يعرف أنها ذات علاقة بفن، وبحرفة التمجيد والتأليه.

٨٦: بالنسبة للفتيات المقرر أن يتزوجن ممن غير آخذ بمبادىء

ايماننا، التي تتمسك بها الكنيسة الرومانية، وتبشربها، وتراعيها، ينبغي أن يتعلمن المبادىء حسبما تأخذ بها الكنيسة الرومانية، وأن يحملن معهن جميع المبادىء مختصرة، وقد كتبت بوضوح، وبطريقة يمكنهن فهمها بما فيه الكفاية، ولن تكون المعرفة نفسها مضرة لا بل قد تكون مفيدة، لعدد كبير من تلاميذ المركز المتقدم الذكر، الذين لم يتلقوا تعليماً وافياً في اللاهوت، زيادة على ما تقدم، سوف يكون مفيداً أن يبقى في المدارس العديدة الخاصة بالطبابة والجراحة، التي تأسست من أجل الفتيات،، فتاتين، برعن في تعلم الطبابة والجراحة أكثر من البقية، وغدون أكثر خبرة في هذين الفنين، أن يبقين للقيام بالخدمة، ولسوف يتولين تعليم الأخريات في كل من الأمور النظرية والتطبيقية، وبذلك عندما تقوم الفتيات بمغادرة المدرسة، يمكن وقتها أن يمتلكن بعض الخبرة العملية، وذلك بالإضافة إلى المعارف النظرية، ومن الممكن لهن أن يتعلمن في المدرسة — وليس بعد ذلك — بسهولة أكبر، وأن يحصلن على كثير من الخبرة، التي بدونها سوف تكون المعارف النظرية ذات فوائد ضئيلة، ويؤيد هذا ما قاله الفيلسوف:«لقد رأينا في الشؤون البشرية أن الذين لديهم خبرة من دون معارف نظرية يتقدمون أكثر من الذين لديهم معارف نظرية في موضوعهم، من دون خبرة تطبيقية».

٨٧[54]: وبالطريقة نفسها سوف يكون مفيداً إذا ما نال الطلبة الذكور لهذه الموضوعات بعض الخبرة العملية فيهم، وهم ما يزالون في المدرسة، وينبغي إقامة حانوت صيدلي هناك، حيث يجري إعداد الأدوية، حتى يتعرف الطلبة إلى الأعشاب والعقاقير الطبية الأخرى، وإلى كيفية إعداد الأدهان، واستخراج الزيوت، والوصفات الأخرى العامة، وبذلك عندما يتركون المدر سة سيكون لديهم الاستعداد الكافي لممارسة هذه الخبرة.

٨٨ : ويتوجب إعطاء طلاب المعارف اللاهوتية بشكل خاص،

فرصاً وافرة لممارسة ذلك الفن بالقيام بوعظ رفاقهم الطلبة، وبتقديم القداسات إلى الأسن منهم، وبعقد المقارنات القصيرة بين النصوص بين آونة وأخرى.

٨٩[55] : وقد يسأل الانسان كيف يمكن إعطاء طلاب القانون في وقت قصير ما يكفي من الخبرة العملية التي تمكنهم من إصدار الأحكام ورفع الالتماسات، وهذا يحتاج إلى وقت طويل خاصة للحصول على مثل هذه الخبرة، فهذا ما يعرفه تماماً الذين أنفسهم يعملون بالممارسات هذه، وإذا لم يكونوا من العاملين، لا بد أنهم قد رأوا أعمال الآخرين، وقدموا الاهتمام الأعظم من أجل التعلم منهم، وهذا واضح ومشروح من قبل رأي هوغتون Hugution المعروف كثيراً، ذلك أنه كان أستاذ قوانين كبير، حيث قال:«سعيد هو الذي يجعله رعب الآخرين حذراً».

ويبدو من الصعب جداً إيجاد مخرج فيه كفاية ومواءمة، يكون سهلاً وليس ثقيلاً جداً، ومع هذا إنه من الممكن الانجاز، لكن مع صعوبة، ولهذا قال الفيلسوف:« ليس للمسألة المبدئية شكلاً في ذاتها، لكنها هامة بالنسبة إلى جميع الأشكال»،وبناء عليه استفاض وزاد فقال:« المسألة هي التي في حال الفعالية، وهي التي تشكل الفعل والاتمام لأي شيء جرى ترتيبه بانتظام»، فنحن نرى مصباحاً من الشمع، مهما كان شكله، يتلقى جميع اشكال الفعالية الهامة بشكل متعادل من خلال براعة النحاتين، وليس من خلال تقديم الأشكال الأخرى.

٩٠: وهكذا قضى خالق الأشياء كلها، أنه بالنسبة للفعالية في كل شيء، من الممكن تملكها في وقت قصير عن طريق خبرة قصيرة تأتي بو ساطة ممار سة للمسائل و للأسباب، روحياً ودنيوياً، وذلك مثلما الحال في كثير من الأشياء الأخرى التي ماكانت بسبب انعدام الفنيين أن تأتي إلى الوجود، ويستهدف الإسراع بالحصول على الخبرة العملية،

في إصـــدار الأحكام، وفي تقــديم الالتماســات، ويتطلع نحــو ازدهار الأرض المـقدسة مع سكانها، ومع أنه مناسب وصحيح أن يستولي على تلك البـــلاد أناس من كثير من البلدان، لكـن إذا مـارغب كل إنســان وسعى إلى تطبيق عـــاداته وشرائع بلاده التـي جـاء منهــا، أن يمارس إجراءاتها القانونية، سوف يحدث اضطراب عظيم بين السكان، ولسوف ينجم عنه مناسبات لاعـدّ لها ولا حصر من الخلافات، وإنه لأمـر مقرر بشكل عام أن يفضـل كل إنسان تفضيلاً عظيماً، شرائع بـلاده التي جاء منها، وعاداتها، ونظمـها، مع أنها قد تكون أقل مواءمة ـمما هو عائد إلى بلد آخر، وهذا ما عبر عنه أوفيد بقوله:

لست أدري بأي سحـر جميل، الموطن يجذب جميع الناس، ولا يسمح لهم بنسيانه

وقد كتب الفيلسوف يقول:«كل شيء ليـس هو عادة مؤلم»، ولسوف ينظر الإنكليز، والألمان، والإسبان، بعين عدم الـرضا، إذا ما جرى تبني عادات الفرنسيين وطرائقهم المتعلقة بالقضــاء، وستنجم خلافات لا عدّ لها ولا حصر من التباينات بين عادات ومذاهب الإجراءات، وفي النهاية ـسوف تتفـجر الحروب بين الأـخوة، الذين ينبغي أن يكونوا واـحداً في المسيح، وعلى وفاق مع ما قاله الرسول:«وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة»، [أعمال:٤ / ٣٢].

ولهذا، يبـــدو من الموائم مـن أجل تجنب مناسبــات الاضطـرابات والحروب، التخلي عن العـادات الخاصة والطرائق العـائدة لأية شعـوب هاجرت إلى هناك حديثاً، واستبـدال ذلك بطرائق للإجراءات القضائية، هي قبل كل شيء سهلة، وأقل إرهاقـاً، وأقل تبديداً[للجهـد وللوقت]، وأقصر، ويمكن لسكان الأرض المقدسة — المتمـركزين في وسط أعداء السـلام — أن يجدوها أسهـل من الجميع بالفهم والتـذكـر، والتـدرب عليهـا، ومن الممكـن من خـلالها الحصـول بسرعـة على خبرة عمليـة،

ويمكنهم بعد هذا اتباع طريقة الإجـراءات القضائية نفسها في المحاكم المدنية واللاهوتيـة، ويمكن وقتها تحديد الأسئلة وفقـاً للشرائع المكتوبة، والقوانين المدونة، كما يمكن إزالة المعيقـات، والحيل، وإطالة الإجراءات القضائية الموجودة بالعادة في كل مكان آخر، إزالة كاملة.

وبوساطة هذه الطريقة — التي سيـجري شرحها بالتفصيل أكثر فيما بعد — يمكن لطلاب هذا المركز، الحائزين على خبرة في ممارسة القانون — حسبما تقدم البحث — أن يصبحوا على الفور قضاة لديهم ما يكفي من الخبرة، ومرافعين عن قـضايا في أية محكمة من المـحاكم، وهذا أمر لم يسمع بمثله من قبل، ويمكن بـوساطـة هذه الطريقـة لذوي المراتب من الكهنة أن يكونوا مستشارين ومرافعين في بعض القضـايا القانونية، وأن يفعلوا ذلـك أثناء مكـوثهم في كنـائسهم، أو في منـازلهم، ومن دون أن يدخلوا إلى أمـاكن المحـاكمات، ولن يتمكن المرافعـون العمـوميـون من إفـراغ أكياس أمـوال المتقاضين، كما هـي العادة في كل مكان آخـر، ولن يأخـذ البت في القضـايا أمـام المحـاكم وقتـاً طويلاً، قـد يتجـاوز عمـر الانسـان، كما أنهم لن يكونوا قادرين لمدة طويلة على إعـاقة الاهتمامـات بالعلوم وبالفضائل، وبالأعمال الأخرى المتعلقة بالسلام.

٩١[56] : وـسوف أـقوم الآن بشرح هذه الـطريـقةالموائـمة ـجداً في متابعة القضايا القضائية: على أي صاحب ادعاء في قضايا هامة، أن يقوم بعـد استدعـاء الدفـاع إلى مكان القضـاء، أن يضع أمـام القاضي نقـاط الاتهام نقطة نقطة، مما يود أن يبرهن على صحتـه، ومثل هذا في القضـايا الأقل أهمية، عندما يكون الدفاع قد استدعي وهو موجود:

لقد ادعى«ب» ويريد أن يبرهن على صحـة دعواه ضد«ت»، ويطلب أن يصـدر حكم من قبلكم على«ت» نفسـه، إلى حد مـا يستطيع البرهنة عليـه، أي أن«ب» نفسه قـد أقرض«ت» المذكـور مبلغ مـائة مـارك من الفضة الاسترلينية بعد ما عدّ المبلغ وسلمه إياه.

٩٢: بند: ــقام«ت» المذكور بحضور«ب» المذكور، بالاعتراف في أوقات أخرى بأن ما ورد أعلاه صحيح. بند: أقر «ت» المذكور، أنه سوف يعيد إلى«ب» المذكور مائة مارك استرليني صحيح، للسبب المتقدم. بند: لقد رفض«ت» المذكور إعادة دفع المال نفسه، مع أنه قد طولب به مراراً.

٩٣: هذا هو جوهر الشكاية كلها، ومن الضروري الانتهاء عند هذه النقطة، حيث يتوجب على القاضي نقل بنود الشكاية إلى الدفاع، من أجل أن يقوم بعد استعراض القضية كلها، بالإقرار بالجرم، أو برفض التهمة بالطريقة التي يرغب بها،فإذا كانت التهمة زائفة بسبب أن المال لم يجر تعداده قط ولم يجر بالتالي دفعه إلى المتهم، فوقتها يمكنه إنكار كل التهم، وينتظر من المدعي تقديم البراهين.

فإذا كان المال قد جرى إقراضه بالفعل، وتمّ الدفع بالفعل، لكن القرض قد ألغي، وهناك إيصال به، وقد سدد، أو تمت ترتيبات أخرى مع أشخاص آخرين، مع نية تجديد القرض ، يمكن للدفاع أن يقول: إن«ت» مقر بأن قرضاً مقداره مائة مارك من الفضة، قد دفع له منذ سنة خلت، وأنكر بالوقت نفسه جميع التهم الأخرى، وقال إنها غير صحيحة من جوانب أخرى، حيث عزم على أن يبرهن ضد«ب»، أنه دفع من بعد وسدد القرض إلى«ب» نفسه أو أن«ب» قد أعفاه من الدين، بنية جعله هبة، أو أن «ب» قد حلله من جميع التزا مات الماضي أو أنه عين مثل هذا المبلغ نفسه إلى آخر، مع نية تجديده وبذلك فرض على نفسه عدم المطالبة بالدين المذكور، وعلى هذه الشاكلة يسير الاستئناف وذلك وفقاً لما تتطلبه طبيعة الحقائق.

وإذا مارغب المدعي تقديم أي شيء عن طريق الدفاع، عندما يكون رد واستئناف الدفاع قد قدم إليه، على هذا المدعي القيام بتقديم إضافات إلى دعواه، وتقديم هذه الإضافة إلى الدفاع، ووفق الطريقة

نفسها يمكن للدفاع أن يضيف مايود إضافته، سواء أكان سنداً لقضيته أو غير ذلك، وتقديمه إلى المدعي، وأخيراً يتوجب على القاضي التأكد أن الحقائق نفسها لم تقدم بشكل مكرر، وأنه لم يتقبل مسائل لاعلاقة لها بموضوع الدعوى أو مقحمة فيها، وإذا وجد شيئاً من هذا القبيل، عليه رفضه، مع أية عبارات غير لائقة أو فيها إهانة، أضيفت من قبل المحامين، بعد هذا ينبغي تقديم البراهين ذات العلاقة من قبل الطرفين:أولاً بعرض الاتهام، ثم الاتهام المعاكس، وليتم ذلك تحت القسم، وبعد هذا يأتي دور تقديم الشهود ووثائق البرهان، وإذا ما أراد الطرفان المتنازعان، تقديم أسانيد إضافيه، بعد تقديم هذه الوثائق و الشهادات، ينبغي السماح لهما بفعل ذلك للمرة الثانية، التي ستكون بالفعل الإبراز الثالث للشهادة من كلا الطرفين، ولدى اكتمال هذه الاجراءات، على القاضي إصدار الحكم.

٩٤ : وقد يقول إنسان:«من الواضح أن طريقة الاجراءات هذه بعيدة عن الموائمة، وأدنى من الطريقة المعتادة التي كانت متبعة بشكل عام فيما مضى، ولا يبدو أن تحصيل الخبرة العملية في طريقة الاجراءات الجديدة من الممكن نيلها بسرعة»، وأنا مقتنع أن ذلك ممكناً، وأننا بتبني الطريقة المقترحة سنوفر كثيراً من الوقت، ومن خدع المحامين، ومن الواضح من جانب واحد فقط أن قصر الأمور على الكتابة، يجعل شكوى مكتوبة واحدة كافية للادعاء، وللمناقشات ولفحص الشهود، ومع إمكانية إبداع طريقة رسمية لرفع الشكاوى فهي لن تطوي المناقشات، والنقاط التي حولها سيجري فحص الشهود، وقد تعوّد الطلبة على التعايش بسهولة أكبر مع الشكايات، وأسرع من القدرة على استيعاب المناقشات والشهادات، ويمكن لهذه الأمور كلها أن تصبح معروفة بالطريقة نفسها، عن طريق المذهب المقترح.

٩٥ : فضلاً عن هذا: من الممكن للقضايا التي تقدم بها الطرفان أن

تدخل في الكتـاب السنوي للقضاة، ومـن الممكن صنع نسخة منه، بعـد إدخال الخلاصـات النهائيـة فيها، لتخصص للاستخـدام من قبل رجال الإدعـاء، وأخرى من قبل رجـال الدفـاع، وبهذه الطريقة نفسهـا يمكن توفير نسختين إضافيتين، وجعلهما تحت تصرف الشهـود من أجل إيداع شهـاداتهم، حيث من الممكن فحص الشهـود العـائـدين لكلا الطرفين، وأخذ شهاداتهم في الوقت نفسه.

٩٦: وسـوف تكون هذه الطريقـة في تسيير الأعمال القضائيـة مفيـدة جداً للشـاب في تحصيل الخبرة العملية في وقت قصير، بلا جهد تقـريباً، وإذا كـان السيـد المقـدس الحبر الرومـاني يرغب في الأخـذ بطـريقـة الاجراءات هذه، فإن كاتب هذه الرسـالة على استعداد لتقديم إجراءات للإدعـاء والدفـاع في كل قضيـة قـد ناقشهـا اللورد روفـريدوس Rof-fredus في كتابه الصغير حول القـوانين، وذلك مع جميع القضايا المثارة من قبل، ولم يتعين لها حـل، أو من حـوادث نجمـت حتى الآن، وهذه الخطة عـرضـة للتصحيح من قبل الـرؤوس الحكيمـة بالمسـاعـدة مع المصنف، وإذا مـا استكملت ووضعت للتنفيـذ، فإن الأرض المقـدسـة سوف تنال المنفعـة عن طريق أن يصبح سكانها جميعـاً متعلمين للقانون بشكل جـيد، وخبراء في أعمال الإدعـاء، وفي إصـدار الأحكام، وفي الوعظ، وفي التـألق بالحكمـة اللاهوتيـة، ويمكنهم الحفـاظ على هذه الدرجـة العـاليـة من الكفـاية لمدة طويلة، في الحقيقـة للجـزء الأكبر من حياتهم، وذلك عوضاً عن الإخفـاق بسرعة، فقط لدى الشروع بالتقدم، كما رأينا مراراً في الماضي، وما زلنا نرى.

ولسـوف تسهم الخطة المقترحـة بتملـك العلوم واستخـدامهم بشكل يختلف عن الطرائق المستخـدمة حتى الآن، وذلك بتقديم تأثير كبير على الوئـام في إدارة الأرض المقدسـة، وبعـد إعطاء التقدير المستحق لجهـود هذه الخطة، والاهتمام الزائـد بالتدريبـات والخبرة العملية التي تعطيهـا،

وذلك مع فوائدها، وبعد تكريس المزيد من الجهد لها أكثر مما يقدره أي إنسان، إنني أعتقد — أنه بعون الرب — أن الكومنولث الروماني كله، لاسيما الخاضعين إلى الكنيسة الرومانية، سوف يتبنون هذه الطريقة لاختصار الاجراءات القضائية، وتلطيفها بقدر ما يراه أكثر الناس حكمة مفيداً.

٩٧[57] : ومن الممكن حشد حججاً قوية ضد هذا الاقتراح — وهو احتيال قد يتمتن بخدع الشيطان وحيله، مع معاونيه الذين لا عدّ لهم ولا حصر — ومع ذلك على سبيل المثال :«أنك بالطريقة المختصرة التي وصفتها، والتي شددت على التوصية بها بمثابة طريقة مختزلة من أجل تسريع الأعمال القضائية، إنك تقوّم عن سابق تصور وإصرار كثيراً من القوانين التي سنت بعد صعوبات جمة، فهي ستصبح وقتها بلا فائدة، وبدون هدف، ولا حاجة لشغلها صفحات الكتب».

ومن الممكن مواجهة هذه الحجة بطرق عدة، فبعض القوانين قد أظهرت كيف يمكن بها تسوية القضايا القضائية، فهذه لم تتغير، وكذلك لم تتغير صلاحياتها، ولم تدمر عدم فائدتها بهذه الخطة، لكن هناك قوانين أخرى، تميل نحو إثارة المشاحنات، وتسبب لأسباب أخرى إثارة التناقضات، ويتبع ذلك عدد لا يحصى من الاحراجات التي تتولد من تطبيقها في أيامنا، ومن المفترض أن يتولد المزيد في المستقبل، لأن الشرور لدى بني البشر في تزايد، ومثل هذه القوانين سوف تمحق بوساطة هذه الخطة، إذا ما وضعت قيد التنفيذ، إنما لن يجري محق القوانين التي هي موجودة في«مجموع القوانين المدنية»، فهؤلاء يشكلون قاعدة جيدة من أجل الحجج القانونية، وهي أفضل من القوانين التي سوف تلغى، بكل ما تعنيه الكلمة، وهؤلاء أيضاً سيكونون موائمين كثيراً لعدد كبير من القضايا القضائية، هذا ولن يكون انحرافاً، في ظل مثل هذه الظروف، الابتعاد بعض الشيء عن بعض المواد النظامية في

هذه الشرائع والقوانين.

وبهذه الخطة سوف تصبح سلطات هذه القوانين عظيمة جداً في الأرض المقدسة، لأنهم لن ينالهم التعديل بوساطة العادات بالمحاكم المدنية، مثلما حدث للقوانين حتى الآن هناك، ولسوف يحافظون على مكانهم أكثر من ذي قبل، لأنهم سوف يتغلبون على العادات، وسوف يجري اتباع الطريقة نفسها من الاجراءات في كل من المحاكم اللاهوتية والمدنية، وسوف تكون الطريقة الاجرائية في تسيير القضايا القضائية رسمية واحدة في جميع أرجاء تلك البلاد، لأن تسوية القضايا القضائية، وسن القوانين التي سوف تحكم بموجبها مثل هذه المسائل سوف لن تتغير، ولسوف تتم المحافظة على صرامة القانون دونما إفساد أو تلف، ولن يجري تحديد المواد التي تستخرج منها الأحكام، ولن يسمح لهذه الأحكام بالصدور ما لم تصدر عن براهين هذه المواد، محصلاتها وبراهينها التالية، وهكذا يمكن للجدليين المنطقيين أن يقولوا عن القياس المنطقي، عندما يطرحون القاعدة المطلقة بأنه لا يمكن الوصول إلى نتيجة عندما يمكن لمحصلة معاكسة الوقوف مع السابقة، وإليكم ما يقوله المشرعون : من مائة برهان يظل خمسون يتوالدون أو بكلمات أخرى، ولنستخدم هنا تعبيراً عاماً:«الحقيقة المفقودة، لا يبرهن فقدانها على أنها موجودة».

وعلى الانسان مراعاة هذه القاعدة بدقة، كلما كان من الضروري إصدار حكم، سواء استمرت الشكاية أو جرت البرهنة على صحة ما قاله المدعي أو ما قاله الدفاع، وإذا ما تركنا إصدار الحكم يعتمد على الحظ، نكون قد اقترفنا غلطة بحق طبيعة الحكم بالذات، وإذا ما ظهرت هذه الغلطة، يصبح الحكم الصادر لاغياً بوساطة القانون نفسه، ولهذا قال الفيلسوف:«في قليل حداً من القضايا تكون الأ صداء وبالتالي الأحكام منطقية، وتظهر بشكل جيد»، وهذا واضح من حقيقة أن كل

محاججــة تنبني وتتبرهن بناء على قــوة القيـاس المنطقــي، والذي ينهي المحاججـة هو الأشد اختصاراً بينها جميعاً، وتأتي بالضرورة بالقضية إلى محصلة ذات شكل وبنيـان ينتمي إلى جميع المحـاججـات، ولهذا السبب طرحنا من قبـل أن على طلاب هذا المركـز أن يتعلمـوا فن المحــاججـة والمناظرة، مع قليل من الفلسفة، حتى يمكنهم مـعرفة طبيـعة البراهين وفن المقارنة، مع كيفية إيصال القضايا إلى محصلاتها، بمقارنة المحصلات التي عرضها المتشاركون، وأن يعـرفوا كيفية تقرير فيها إذا كانت الأسس صحيحـة، وفيها إذا كــان من الممكن أن نستخـرج من صحــة الأسس صحـــة المحصلة التي من الضروري أن تتماشــى مع الأحكام المقـــررة أعلاه، ومن هذا المنطلق حدث أن كثيراً من القضاة البارعين في القانون، لكن غير القادرين على دراســة العديد من القضايا القضائيـة، قد اعتادوا على إحالة القضايا إلى آخرين أقل براعة وأقل خبرة، وهكذا بعدما تقدم إليهم تقارير حولها، يصدرون أحكـامهم على أساس الخلاصات الموجزة للاقتراحـات وللبراهين، وبذلك يفـرضون حكماً متسـاوقـاً مع البرهان، ومتناسباً.

لأنه كما يـــقول الفيلــسوف:«العـقل البشري بسيط وغير مجزأ، وإلى حيث وجهت اهتمامــه توجـــه بشكل كلي»، ولهذا السبب يفهم في وقت واــحد شيـئاً واــحداً فقط، أي في كل لحـظة من اللحظات، ولهذا على الانسان أن يقـدر السبب وراء طلب الانصاف القضـائي، وفيما إذا كان هذا الطلب قـانونياً، ومتسـاوقـاً مع القانون وغير متعـارض، ثم فيما إذا كـان قـد بني على حقيقـة، وأخيراً، إذا مـا تبرهنت صحتـه، هل صحـة المحصلة المطلوبة والمستخـرجـة من الضروري اتباعهـا؟ وبوسـاطة هذه التحريات والتقديرات لا يمكـن للعقل البشري أن ينخدع لدى إصدار الحكم، عنـــــما تكون الشكاوى، والبراهين، والالتمـــسات الواردة في المحصلة قد عرضت وفق هذه الطريقة.

ولقد قيل بأن معظم الأحبار الرومان الأعظم قداسة، قد اعتادوا على التفوه بالأحكام مرفقة بالمنطق الأصح، وبالبراعة الفلسفية، مع أنهم لم يتولوا قط دراسة القضايا القضائية، ولعل سبب هذا أنها أعطيت إليهم وسلمت من الأول الذي بدأ يفعل ذلك، أو أن ذلك ولد فيهم، أو وهب إليهم بنعمة ربانية.

٩٨: ومع أن المنطق يجهز ويعلم طرائق صحيحة للتعلم، وللفهم، ولمعرفة جميع العلوم، ولتعليمها، مع ذلك يحدث في حالات نادرة، أن إنساناً ما، بحكم مواهبه الطبيعية، يمكن أن يمتلك حكماً صحيحاً صادراً عن منطق طبيعي، إلى حد أن قدرته القضائية، وطريقته المنطقية في التفهم هي متفوقة، وأكثر سمواً من براعة الآخرين، أو مساوية لها، ومن الممكن سوق برهان على صحة ذلك مما قيل بأن جالينوس قد كتب به إلى أبوقراط قائلاً:«ما من إنسان يمكنه، أو أمكنه، فهم فن الطبابة، ما لم يعرف المنطق أولاً، باستثناء أبوقراط وحده لأنه متفوق جداً بالذكاء».

وينبغي على الملوك، والأمراء الآخرين الكبار، والقضاة، التفوه بالأحكام وفقاً لنظام منطقي ما، وعليهم -عدم الاصغاء إلى المشاكسين المنحرفين والمخادعين، ولا إلى الخدع المتغيرة للمدعين، ولا إلى كلامهم المعسول والبارع الذي يتفوهون به بطلاوة وبراعة، مع طرائقهم الخاصة بالكلام وبالضحك، ولا بحركاتهم وبإيماءاتهم التي تنم عن التوسل، أثناء أحاديثهم، والتي إذا ما دونت سوف تصل إلى شيء لا يتجاوز كلاماً أجوفاً وفارغاً قصد به التأثير، وترافق مع تغيير بالنبرات، مثل الصراخ الذي يشبه الرعد أحياناً، وعوضاً عن هذه الطرائق، إنه أفضل بكثير أن يجري تحري القضية من خلال، وبوساطة سجل مكتوت بشكل دائم، وذلك بدلاً من الاعتماد على الكلام العابر، فوقتها يمكن تقديم جواب محدد لشكاوى محددة وليس مجرد كلام انبعث على الفور

ثم زال وتبدد.

٩٩ [58]: تقدست الأرض المقدسة بالدم الثمين، وبالأعمال، وبالحضور الجسدي لمولانا يسوع المسيح، ولهذا من المناسب بأن تكون آمنة مستقرة أكثر من غيرها جميعاً، لأنها الأقرب والأحب إلى ملك السلام، الذي يقال بأنه أعطى لا شيء سوى السلام إلى حوارييه وإلى أخوانه، وعندما بفضل نعمة ورحمة ذلك المخلص نفسه، سوف تتوقف الحرب في تلك الأرض، لا بل حتى مع استمرار الحرب، يبدو من المناسب كثيراً أن تتوقف المشاجرات بين الكاثوليك المقيمين هناك بوساطة الطريقة المتقدمة الذكر، أو بطرائق أقل إرهاقاً وأذى، وأكثر فعالية وسرعة.

وجميع مساعي إعاقتهم وتأخيرهم مساعي شريرة، ويوجد الآن شرين أو أكثر، أحدهما لا يمكن تجنبه، والأقل هو الذي ينبغي أن يفضل، ولهذا يتوجب بموجب ذلك على الأب الكبير، أن يتفحص، وأن ينتخب وأن يتبنى نظاماً للاجراءات القضائية يكون أسهل وأقصر، وأقل كلفة، وإرهاقاً وأذى لأبنائه، وفي ضوء هذه الحقيقة، وبما أن السكان الجدد للأرض المقدسة لن يكون لديهم لا شرائع، ولا عادات، ولانظم خاصة بهم، يتوجب على الحبر الروماني المقدس، الذي هو الأب لجميع الكاثوليك، أن يتفضل ويتلطف بتأسيس النظام المتقدم الذكر إليهم، أو نظاماً أفضل، يتولى تسوية جميع خلافاتهم في أي محكمة من المحاكم، وبهذه الوسائل يكون قد فعل ما ينبغي لإخماد خلافاتهم، ثم عليه أن يغتنم الفرصة التي تهيأت بوساطة الاقتراحات المعروضة أعلاه، فيسعى للاقلاع بإصلاح عام روحياً ودنيوياً للأوضاع داخل الكومنولث المسيحي، وذلك حسبما يلهمه أبو الضياء، وينبغي أن يقوم بإصلاحاته بطريقة تعيش فيها هذه الاصلاحات لجميع الأوقات.

وإذا كان من المتوجب عليه إزالة الخلافات وإقامة السلام في مدينة

واحدة أو أسقفية،أو أكثر في مـقاطعة، أو حتى أكثر في مملكة، أو ربما في عشر ممالك — كم عليـه أن يعمل من أجل سلام دائم: روحيـاً ودنيوياً بين جميـع الكاثـوليـك؟ ومن غير الممكـن تحقيـق هذا الاقتراح العظيـم والرائع إلاّ من خلال الملك المحب للسلام، بما أنه صادر من عند الرب العظيم، ومن خـلال الذي عهـد إليه وحـده بكامل قـواه على الأرض، وبهذا الخصوص قال المانح المشهور للـقانون المدني:«لأننا كنا مشغولين بالاهتمام بالكومنولث كله لم يقع اختيارنا على شيء هام جداً» ، إلخ.

١٠٠[59] : على الرغم من حقيقة أن الكـاتب الحالي لهذه الرسالة سوف يتخلى عن المبلغ الكبير الذي يأتـيه من خلال عمله مستـشاراً في القضـايا التي تخص السيديـن الملكين الرائعين، ملكي فرنسـاء، وإنكلترا، وفي قضايا قـضائية لاهوتـية أخرى، وسوف يضطر لـعدم الاستمرار في مـوطنه الأصيل، إنه على الرغم من هذا كله على استعداد للقيـام بتنظيم القضـايا المذكـورة أعـلاه، لا سيما المدارس العـائـدة للمـركـز المقترح، وبمعـونة الربّ، وفضله سـوف يقدم المسـاعـدة في هذا العمل بكل مـا أوتيه من قوة، لعله يكون شريكـاً مسهماً في هذا المقصد الهام جداً، ومن ثم يغني مع المزمـور قـائـلاً:«أنا رفيـق لكل الذين يتقـونك ولحافظي وصـاياك»[مـزامير : ١١٩ / ٦٣]، وأتفق مـع الرسـول عندمـا يقـول:«فلنعمل الخير إلى جميع الناس بقـدر مانستطيـع»[غلاطيـة : ٦ / ١٠ بتصرف]، وأتفق أيضاً مع الذي اقترح القانون بقوله:« على الانسان أن يعمل كل مايستطيعـه لإنقاذ الحيـاة الأرضية لإنسـان آخر، دون أن يعيق خلاصه الأبدي».

١٠١ : وإذا ما بدا أنه من المناسب إقامـة حلف للسلام العالمي، وفق الطريقة التي جـرى شرحها، ينبغي أن يكون هناك قـراراً جماعياً من قبل مجلس للأساقفة وللأمراء يقضي ـبوجوب أن يحلف جميع الأساقفة مهما كانت مراتبهم، وكذلك الفرسان، العلمانيون حسب خدماتهم، أن يحلفوا

أيهاناً مهيبة بالمحافظة، بكل ما يملكونه من قوة، على حلف السلام هنا، وعلى فرض عقوباته، ومراعاتها بكل سبيل من السبل، وكل من يتمنع، أو يهمل هذا القسم، ينبغي أن ينال عقوبة الحرمان الكنسي الرئيسية، ويتولى فرض ذلك عليه بوساطة السلطات الرسولية، وبوساطة المجمع المقدس، وكل من يخرق في المستقبل حلف السلام هذا يتوجب مهاجمته بكل ـحدة بقوى جميع فرسان العساكر الدنيوية والروحية، حتى لا يمكنه المقاومة.

١٠٢ [60]: وبعد الانتهاء من هذه المسائل، إن الهم الثقيل الثاني للكاتب الحالي، متركز حول توجيه راهبات طائفة القديس بندكت، وهي جماعة من الممكن أن تتملص من إصلاح أحوال الكنيسة المعروض أعلاه، فبعد تقويم عادي للمخاطر الناجمة عن حياة العزوبية، وتكاليف الحفاظ على أرواحهن، وعلى التبريكات غير العادية التي يمكن أن يحصلن عليها، يبدو أنه من الموائم أن يقوم الحبر الأعظم، بناء على طلب من الأمراء الذين غالباً ما أسسوا الديرة من أجل الراهبات المكرسات، أو قدموا الهبات لهن، أن يقوم باتخاذ قرار في المجمع، إنه في الوقت الذي تتوفر فيه نفقات كافية للديرة الحاوية للعذراوات المعترفات، ينبغي إنقاص أعدادهن حتى لا يكون في المستقبل في الدير الواحد أكثر من ثلاث عشرة راهبة.

ومن المتوجب إنفاق الهبات المخصصة لديرة من هذا القبيل لصالح الفتيات اللائي سوف يتدربن وفق الطريقة التي تقدم عرضها، وينبغي إضافة أعداد الفتيات اللائي يحسن القراءة والغناء إلى أعداد الراهبات، ولسوف يكون هذا العدد كبيراً جداً، وبذلك لن تعاق القداسات اللاهوتية مطلقاً، ما لم يتناقص العدد وفقاً لطريقة طائفة المبشرين، وينبغي حماية المنح المعطاة إلى هذا النوع من الديرة والدفاع عنها، بوساطة المسؤولين داخل المركز العتيد المقترح، ومن المتوجب استخراج

مبلغ كاف لتقديمه للانفاق على الراهبات وعلى رؤسائهن حسبما كان الأمر من قبل، لكن ينبغي إيقاف جميع النفقات التي يمكن تجنبها، وكذلك النفقات التي هي بلا فائدة، وعلى الفتيات ذوات الحياة المدنية، اللائي يتبعن النظم المدرسية التي أوجدها مديروا المركز، المشاركة في الصلوات الصباحية وفي القداسات، ومن الممكن إعفاء الفتيات اللائي يبرهن أن تعليمهن أسهل من هذا الواجب.

وسوف تضع السمة الأخيرة لهذه الخطة حداً لكثير من الشرور المعتادة، ولا سيما ممارسة قبول الراهبات مقابل دفع المال، أو لاعتبارات أخرى، وكذلك اختيار الدير لشخصيات ذكية ليكن راعيات أو رئيسات، والترخيص بعدد كبير من التجاوزات الطبيعية وغير الطبيعية، وينبغي الاستمرار بالطقوس التعبدية في الديرة كما هي من قبل، وإجراء هذه الطقوس خارج الديرة بمساعدة الفتيات المغادرات للدير، وينبغي استخراج ما يزيد على ثلاثين ألف ليرة تورية سنوياً إلى صالح المركز المذكور، وإذا جاء المبلغ المستخرج أقل من هذا المبلغ العظيم، من الممكن، لدى وفاة الولاة الحاليين، ردفه من المبالغ المخصصة لهذه الديرة، وذلك بعد حذف نفقات نواب الأساقفة، وكذلك من واردات ومنتجات كثيراً من الكنائس الغنية، التي تحت إشراف هؤلاء.

ومن الممكن أن يحاول إنسان — بناء على تحريض من الشيطان — تعطيل هذا الاقتراح على أنه اقتراح شرير، قائلاً إنه من هذا الشر سوف تنبع شروراً أخرى كثيرة، وإذا ما أراد أن يدعم معارضته بوساطة مثل هذه المحصلات غير الممكنة، والمتناقضة، وغير المهمة، من الممكن إجابته بإقرار أن كثيراً من الشرور يمكن أن تنجم عن شيء جيد، إنما مع هذا، لا يجوز للانسان تجنب فعل الخير.

وحسبما ذكرنا من قبل، إنه لمن الواضح من آراء جميع الفلاسفة الذين علقوا على هذه المسائل، أنه من غير الممكن وجود صلاح كامل بين

الناس الذين يستخدمون قدرة حرية الارادة الممنوحة إليهم من قبل الخالق، ولهذا من المستحيل صياغة قانون عام يمكن من خلاله عدم اتباع كثير من الشرور، علماً بأن القانون بحد ذاته هو خير.

[61] : ويمكننا بوساطة إجراءات بارعة وحكم منطقي، أن نقرر أياً من هذين الخيارين سوف يكون أكثر مواءمة، وأعظم خيراً، ولنفترض أن لدينا بيتاً للداوية وبيتاً آخر للاسبتارية، ورعوية تابعة للقديس لعازر، وديراً للفتيات، مثل الذي رأيناه حتى الآن، ولنقم من جانب أول بتقويم الخير الذي يمكن أن يصدر عنهم، والشرور التي ترافق سوء استخدامهم، ولنقم من الجانب الآخر، بالطريقة نفسها، بتقويم الخير والشر الذي سوف يصدر عن الخطة التي تقدم وصفها، أو يمكن افتراضاً أن يصدر، ثم دعونا بعد هذا نعقد مقارنة بين شرور وشرور، وبين خير وخير، وبذلك يمكننا أن نختار بين شرين أو بين شرور أكثر — مهما كان عددها — الشر الأقل، وأن نختار بين سمات الخير المتنوعة أحسنها وأفضلها.

وبمناقشتنا المسألة بهذه الطريقة، ولدى وصولنا إلى محصلة من خلال المحاكمة المنطقية، وبعدما قدرنا الخير والشر تقديراً صحيحاً وعادلاً وصادقاً، ألن يقع اختيارنا وفقاً لهذا المنهج على الشر الأقل والخير الأكثر؟ وما من أحد يمكن أن يكون صالحاً ما لم يقم أولاً بالتخلي عن جميع الشرور، وفعل الخير بعد ذلك، ولهذا دعونا نقدر الخيروالشر الذي يمكن أن يصدر عن هذا الجانب وعن ذاك، ومن الممكن أن نعهد بسلطة الحكم والاختيار إلى طائفة الواعظين، وإلى طائفة القلة، لأن رجال هاتين الطائفتين، أكثر من سواهم من بين الناس الأحياء معرفة بأوضاع الجانبين، فبعد الاصغاء إلى الحجج المختلفة من كلا الجانبين، وبعد تفحص جميع الوثائق، والبراهين الاضافية، التي باتوا عارفين بها، إنني أعتقد أن من الممكن أن نحصل منهم على الرأي المعتمد والأكثر

صحـة، وبهذه الطـريقـة — كما أعتقـد — يمكننا الحصــول على أصح الأحكام المنطقية، وذلك بقدر ما تسمح قوانا البشرية الهشة به.

وبالتمسك بهذه الطريقة من الاجـراءات، يبدو من غير المحتمل إيجاد أي شيء، وتقـديم أي شيء يثـار ضد الكتّـاب، والرغبـات الطيبـة لهذا الاقتراح بالتغيير.

ومن المؤكـد أن الذين يختـارون الالتـزام الدائم بمقترحـات القـانون اللاهوتي حالهم أكثر كمالاً من الذين اختاروا الالتزام بظلاله فقط، ومن المؤكد أيـضاً أنه جـيد بها فـيه الكـفاية الالـتزام تمـاماً بظلاله، لكنه شر الالتزام بأقل من المقترحـات، وعليه يذنب الذين لا يلتزمـون تماماً بهذه المقترحات ويسقطون، ولـذلك ينبغي أن لا يختار الانسـان موقع الكمال التام، ما لم يعدّ نفسه قـادراً بشكل صحيح على الالتزام به تماماً، ونتيجة لهذا على بني البشر في أيـامنا — لا سيما مـن عنصر النســـاء لضعفهن المشهــور — أن يختــاروا الجزء الأسلم، خشيــة أنه في غيــاب الراعي وعصاه سـوف تتيه الشياه قـرب الغابة، فيفترسهـا الذئب إذا ما دخلت إليــها، لكن إذا بقيت في الخارج فـسوف تتلقى المدح والمكافأة، وإذا لم تفعل ذلك فسـوف تفترس، فأين هو الانسـان العـاقل والمجـرب الذي سيتطوع بإخضاع أولاده وتعريضهم لمثل هذا الخطر وهذه العقوبة؟

وكما قال الفيلسوف:«الحركات الأولى ليست في قدرتنا»، ففي الوضع الحالي للمشروع المرغوب به، من النادر أن يتمكن أي إنسان من مقاومة طغيان الشهوانية وقدرتها، ومقاومة الأقلية أدنى احتمالاً بتعويض أرض الآباء السماوية من انعدام المقاومة من قبل عدد كبير من المحتمل قيامهم بإلحاق الضرر بها، ولوفقـط أن الآباء المقــدسين — قبل إقــامتهم لهذه المصـائد — التي صنعـوها بمقـاصد طيبـة، عندمـا زادت من الذنوب وضاعفتها بحيث تجاوزت تعـاليم كل من العهدين القديم والجديد ـ لو أنهم فقط رأوا آنذاك هذه المصائد كما يرونها الآن، وهي مصائد نصبوها

متطوعين، وكذلك لو رأوا أعداد الذين أدينوا بسببها!، وبما أن الطبيعة البشرية نزاعة للابتعاد عن الإيمان، وميالة نحو الاعتداءات، ينبغي الابتعاد عن إغواءات الوقوع بالذنب، وأيضاً عن تدمير قطيع المسيح من خلال الابتعاد دوماً عن الذنب.

وبناء عليه يبدو أنه من الموائم تقديم حل لطيف ومساعدات لطوائف الرهبان المتسولين — مع أنهم لا ينشدون ذلك — من ممتلكات الكومنولث لكل من رجال الدين والعلمانيين، وبذلك يتحررون من كثير من الأفعال التي يقومون بها تحت ضغط الحاجة، ويمكنهم بذلك الحصول على الوقت من أجل التأمل، ويتوقفون من الآن فصاعداً عن التسول، فقد أمر الرب بتأمين موارد العيش إلى سبط لاوي، دون أن يكون لهم نصيب في ميراث آبائهم، مع أنهم استحقوا ذلك أكثر من الآخرين، وحبذا لو تقوم الكنيسة بتزويد الرهبان المتسولين بالخبز، والخمرة، وبما يكفي من الألبسة، والأحذية، مع فرصة نيل بعض الأعطيات، فلعل ذلك يكون كافياً لسد حاجاتهم الأخرى، آخذين بعين التقدير، العقل، والحكمة، والخبرة لدى بعض أفرادهم.

ولعله يكفي إتياننا على ذكر هذه المسائل، وطرح الوسائل الوحيدة بالتخطيط بشكل فعال للوصول إلى الغاية التالية، ذلك أن يقوم ذوي العقول الحكيمة بينهم، بتقدير الشر والخير الناجم عن فقرهم، وأن يختاروا الحل الأسلم، ومن ثم يضعونه أمام المجمع في ضوء معلوماتهم، وعندما يتناقش المجمع المقدس حول مستقبل الأمور غير المؤكدة، يمكنه أن يقرر المنهج الأكثر فائدة.

١٠٣[62] : وإذا ما أخفق المجمع في اتخاذ إجراء تهدئة للصراع الذي تفجر بين ورثة مملكة كاستيل، فقد يعيق ذلك فعلياً استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، وقد قيل بأن الذي يتملك المملكة الآن، موقفه غير عادل تماماً، فقد عقد اتفاق بين الابن الأسن للملك— الذي

انتخب امبراطوراً في أيـام الصراع — وبين ابنة القـديس لـويس، ملك فرنسا، وكان قد عقد اتفـاق، وجرت تسوية، أنه إذا ما مات ذلك الولد قبل والده، فإن الحفيد ينبغي أن يتولى العرش، وقد وافق على هذا الملك نفسه، وأساقفة وبارونات مملكته، ومـراغمة لهذه الاتفاقية، لابل مراغمة للعدالة العامة وللقـانون الطبيعي والإلهي، عندما مات هذا الولد، مخلفاً ولدين، قام الأب نفسه، أي جـد الولدين،فتوّج ابنه الحي، وبذلك حرم حفيـديه، وخـرق تعهده، وحنث بعهـده وبكلمـة الشرف التي أعطاها، فـذلك الابن المتوج لا حق له شرعيـاً بالمملكة، وهو متمسك بها بشكل مضر لخلاصه الآ ـخروي ولخلاص المؤيدين له، وفي ذلك إيذاء أيضاً إلى الوريث الحقيقي.

وهذا الذنب العظيم، واضح من خـلال جميع أدلة الحقيقة ذاتها، وهو مـشاهد بو ضوح من قبل جميع الذين يقـفون إلى جانب المغتصب، ولا يمكن لأي منهم ادعـاء الجهل، ولهذا عمل والدهـم الروحي، الذي هو غير جاهل بالحقائق، ومن واجبه تقديم حل، خشية أن يطلب دمهم من يديه، وربما يمكن إنجـاز هذا بسهــولة، ومن دون أي اضطراب، باتهام المغتصب بذنب الاغتصاب العظيم، وبأنه يقـوم بمراعاة المسلمين الذين يتـولون مملكة غـرناطة بتفـويض منه، مقـابل الجزية، والذين غـالبـاً مـا يقـومون بقتـل المسيحيين، ويمكن للمولى البـابا أن يقـول لهذا الذي هو تحت هذه التهمـة الشديدة، والمهدد:«مـن أجل صالح الأرض المقـدسة، نحن نرغب بمختلف الوسائل أن تقيموا السلام فيما بينكم».

ويبــدو أن هذا الخلاف من الممكن فضــه بكـل سهـولـة:بأن نجعل الحفيد الأول ولادة يتولى مملكة غرناطة، وأن يتولى أخاه مملكة البرتغال، أو مملكة أخــرى مـن الممالك الكثيرة التي هي بيــد المغتصب، ويمكن للمغتصب الاحتفاظ شخصياً بمملكة كـاستيل، بشرط أن يقوم بما لديه من قوات من الفـرسان والرجالة بتقديم العـون إلى مملكة غرناطة لطرد

جميع المسلمين منهـا، ولمقـاومـة المنفيين أينما تطلبت الحاجـة، وعليـه الالتزام بهذه الشروط تحت تهديد فقـدانه لمملكة كاستيل أيضـاً، وسوف تكون خطة مفيـدة القيام بإقناع الملوك المجـاورين لتلك البلاد، وأقصـد بذلك ملوك أراغـون، ونافار، ومايـروكا، والحكام الآخريـن حيثما كانوا في إسبانـيا، بمساعدة ملك غرناطة الجديد، والقـيام بمحاصرة المسلمين والضغط عليهم من كل اتجاه، وبذلك يمكن طردهم بكل سرعـة، وإثر هذا يترك الآخـرون من ملوك إسبـانيـا وأمرائهـا، ملك غـرناطة ليقـوم بالدفـاع عن بلاده، ويقـومـون هم، مثلما هو مطلوب من الآخـرين، بالعبـور إلى الأرض المقـدسـة، وتقـديم مسـاعـدة كبيرة هناك، وبهذه الوسيلة من الممكن للانـغدوك حـشد جيش كبير، يمكنه العـبور إلى سردينيـا، ليحررها من فـردريك صـاحب أرغـون، الذي يتوجب عليـه وقتها إعادة مملكة صقلية إلى ملكها الشرعي.

١٠٤ [63] : ومن أفضل الطـرق لتنفيـذ هذا المشروع القيـام بتنظيم أربعة جـيوش، تتوجه ثلاثة منها وتـسافر بحراً، أما الرابع وهو الأكبر فيتـوجـه عبر الطريق البري، وبذلك يحذو حـذو شـارلمان، والامبراطور فردريك الأول، وغودفري دي بولليون، ولقد قام أعداء الإيمان بحصار عـدة أمـاكن والتضييق عليهـا، ولهذا فإن قـواهم متفـرقـة، ولذلك من الممكن طردهم بسرعـة أكبر، ومن المحتمل أنهم عندما يسمعـون بأخبار حلف السلام المذكور من قبل، وأنه قد أقيم من أجل محقهم، وأن هناك حشـوداً عظيمة من النـاس تزحف ضدهم وسـوف تزحف، وقتهـا من المحتمل أن يتخلوا عن طواعيـة عن جميع أرض الميعاد بلا حـرب، وإذا مـا فعلوا هذا من دون تدمير للقـلاع ولأماكن السكنى الأخـرى، ومن دون سلب الكنائس ونهب مـا فيهـا من آثار وآنيـة مقـدسـة، يمكن إعفـاءهم من نيل موت عنيف، والعكـس سوف يكون إذا مـا أبدوا أية مقاومة، فوقتها سيجري سحقهم كلياً، ولن يترك لهم مكان في البلاد.

وبعـد هذا، سـوف يحسـن الأمـراء صنعـاً، في أن يتركـوا في الأرض المقدسـة قوة كافيـة للدفاع عنها، وأن يعـودوا عبر طريق بلاد الاغريق، فوقتـها سوف يكونون — بناء على نصيـحة الكنيسة الرو ـمانية — على استعداد للقتال بشدة لصالح اللورد شارل أوف فاليوس، ضد المغتصب غير الشرعي باليولوغـوس[أندرونيكوس الثاني — ١٢٨٢ — ١٣٢٨]، مـا لم يكـن على استعـداد للتخلي عن السلطة، وينبغـي أن يكون هناك اتفاق سلفي، بأن يقوم اللورد شارل — بعد الحصول على النصر، وبعد تملكه للامبراطورية الاغريقيـة — بمنح فرصة لمعونة الأرض المقـدسة، والدفاع عنهـا، كلما قامت الحاجة، لأنه سوف يكون الأقـرب إليها من غيره من الأمــراء،وعلى هذا ســوف يكون حملـه أخف بكثير، من حمل الأمـراء الأبعـد مســافـة منه، كما سيكون مفيـداً لملـك ألمانيـا، ولجميع الحمـلات المستقبليـة المسيحيـة التي ســوف ترسل لمســاعـدة الأرض المقدسة، حيث أيضاً من الممكن تنظيمها بشكل أكثر فعالية.

١٠٥ : وعندمـا — بنعمــة من الرب — تكون هذه المشـاريع قـد نفذت، ـسوف يكون الكاثوليك من العقلية نفسها ـقد صاروا متملكين لشاطىء البحر المتوسط كله، الممتد من الغرب طوال الطريق إلى الشرق على الطر ـيق الشمالي، مع الجزء الأعظم المـــصاـقب لأرض الميــعاد في الجنوب،ووقتها لن يكون بمـقدور العرب الإزدهار بشكل ـمادي، ما لم يشـاركوا مع الكاثوليـك في تجارات منتجاتهم، وينطبق هذا على أحـوال الشعوب الشرقية وعلى منتجاتها.

١٠٦[64] : ويتــوجـب أولاً فحص هذه الخطة المتصـــورة من قبل المشرعين المسيحيين مع نائب المولى يسـوع المسيح على الأرض، وخليفـة المبـارك بطرس، أمير الرسل، وسوف تصل إلى حـد الكمال بتوجيـه من الرب الذي هو قـائـد الجيـوش، ولعلـه يرضي صـاحب الجلالة الملكيـة المجربة، فيتلطف بعد انتهـاء هذه الحروب بنجاح، أن يطلب بصنع هذه

الأشياء، وأن يشرف على تنفيذها، مع الأفكار الإضافية التي -قد تأتي إلهاماً من ينبوع الحياة، الذي عنه تصدر جميع المباركات.

ويبدو من المرغوب فيه، من أجل تنفيذ هذا المشروع، الالتماس من البابا أن يعقد مجمعاً عاماً على هذا الجانب من الجبال، من أجل تفحص هذه المسائل، وعليه أن يدعو إلى هذا المجمع الأساقفة، والأمراء الكاثوليك المطيعين له، لا سيما الملوك والآخرين الذين لا يعترفون بسيد لهم على الأرض، دون أن ينسى الباليولوغوس المغتصب لعرش القسطنطينية، ومغتصب مملكة كاستيل، وولدي أخيه اللذان يناضلان في سبيل العرش، وملك ألمانيا وناخبيه، فمن هؤلاء سوف يتلقى المشورة، والعون، والاقتراحات المساعدة في قضية الاسترداد، والاصلاح، والحفاظ على الأرض المقدسة، وكذلك حول كل ما يفيد الكومنولث المسيحي العالمي.

وبعد تحسين هذا الكتاب الصغير من قبل العقول المفكرة لخيرة الخبراء من قادة الحرب، ينبغي تقديمه إلى المولى البابا، من قبل رجال عقلاء جداً، وخبراء بالشؤون الانسانية، يمكنهم الرد على جميع الاعتراضات، وتجنب تحريضات ملائكة الشرور، ويتوجب اتخاذ التدابير التي تضمن أن يعرض فقط على الخبراء والمستشارين المقربين من السيد البابا، لأن من المؤكد أن هذا الكتاب التقوي الصغير، سوف يلقى — بتحريض من الشيطان ومن حشده الشائن — كثيراً من الخصوم الذين لا قيمة لهم، والذين سوف يعارضونه، ولسوف يقاتل الشيطان مع مؤيديه بشراسة ضد هذا الاندحار، الذي هو أعظم ما عانوه منذ حادثة آلام، وقيام الكلمة المجسدة، ولا أعتقد أن الطبيعة البشرية لأي إنسان حي مستعصية على مثل هذه الإثارات ما لم تلق الدعم من أبي الضياء الأبدي، من خلال ثبات ونشاط قدرته التي لا حدود لها.

وسوف يلاقي هذا المشروع، الذي هو بحدود طبيعة الأشياء الممكنة،

النجاح، إذا — بنعمة من الرب — ما تعاون بحرارة، من أجل تحقيق هدف هذه الخطة، ولدى تنفيذها، الوصي الرئيسي على سلامة الكومنولث هنا على الأرض[البابا]، وأكثر الأمراء خبرة في فن الحرب، وفي استخدام وممارسة الأعمال العسكرية[إدوارد الأول]، وذلك من أجل إطالةعمر، ليس فقط الحياة الروحية بل أيضاً الحياة الدنيوية، ومن أجل الرغبات السعيدة للانجاز لدى هذين الاثنين اللذان يحافظان بتقوى عظيمة على مصالح الأرض المقدسة، ويعتنيان بها، وسط كثير من مشاغلهما واهتماماتهما، وينبغي على كل واحد يهمل في سبيل هذا الهدف الرائع الاستمرار على الاعتماد بقلوب مؤمنة تقية وبصوت واحد، على الخالق الأعلى للحياة، الذي من خلال نفوذه وعنايته وحفظه تعيش جميع الأشياء وتستمر تبعاً لطبائعها، وبالاستمرار بالأخذ بالنهج الذي منحهم كل الفضائل التي يمتلكون.

١٠٧[65] : وبعد الفراغ من هذه المسائل، تقفزبحدة إلى الذهن حقيقة أن الناس سوف يشعرون بعدم الرضا، وسوف يتمتمون، لأنه لا في الماضي ولا في الحاضر، بدا أن الهبات التي منحت إلى الأرض المقدسة مع المبالغ الأخرى التي جمعت من أجل عون الأرض المقدسة باسم الداوية والاسبتارية، وبطرق أخرى متنوعة، بدا بوضوح أنها لم تستخدم لصالح ما جمعت من أجله، ويستحسن إلغاء، أو توزيع المنح التي أديرت بإهمال،بشكل نهائي.

ومن أجل إيقاف هذه المخالفات، سوف يكون مفيداً إقامة صندوق تبرعات عام في الكنيسة الكاتدرائية لكل أسقفية، أي إنشاء غرفة خزينة، يجري فيها حفظ الأموال التي كرست لهذا الهدف، وحيثما توفرت الحاجة لأية مساعدة، من الممكن تقديم الأموال ومنحها إلى المقاتلين الذين يستعدون للذهاب إلى تلك الأرض، ويكون ذلك بناء على توصية من الأسقفية المحلية، ومن إدارة المركز المتقدم

الذكر،والمقصـود بالمقاتلين هنا، المقاتلين الذين ينتمـون إلى الأسقفية، أو إلى أسقفيات أخـرى، وهـم على نية عبور البحـر، وينبغي أن يبقى أعيان الناس في تلك الأسقفيـة، أو المقاطعـة، أو المملكة، على دراية بالأمـور، وأن تجري استشـارتهم مـع الأسقفيـة،وإذا مـا جـرى تنفيـذ هذه الاصلاحات، سـوف يجري تقديم المزيد — لا بل الكثير الكثير — من الهبات إلى المركز المتقدم الذكر، وينبغي إخراج الديون المستحقة له إلى النور، وهي الديون التي كانت قـد فقدت من قبل نظراً للسكوت عنها، وبالنظر لتزايد الأموال ـسوف يمكن العثور على المقاتلين الجاهزين في كل مكان، وعندما تتوفر الحاجة إليهم.

ومن أجل تحقيق نتائج أكثر جـاهزية، ينبغي اتخاذ قرار داخل المجمع يقضي بأن يعمل الأساقفة المحليـون، وغيرهـم من الأساقفة، والمبشرون، والـ Minorites، على حث وإقناع كل الناس مهما ـكانت مشاربهم في الحيـاة، على تطويع الناس البـارعين من كـلا الجنسين المفيـدين للأرض المقـدسـة، ومن حيثما جـاء هـؤلاء الناس،يجب إرسـالهم إلى السـواحل مجهـزين بجهاز حسـن على حساب الذين طوعـوهم، أو إذا تعـذر ذلك ليكن على حسـاب بعض المحسنين الأتقيـاء، وهبات أخـرى، ولسـوف يجري إرسـالهم عبر البحـر على حسـاب المركـز المتقـدم الذكـر، وينبغي إرسالهم على شكل مجموعـات في كل مجموعة مائـة رجل، قد ارتدوا زياً مـوحـداً، والأعـلام فـوق رؤوسهم، والأبواق تصـدح أمـامهم، وبهذا يمكنهم الذهـاب بشجـاعـة وحماسـة، وبذلك يـؤثرون على كثير من الآخرين حتى يلحقوا بهم، ويتوجب على الذين ينتمون إلى المدينةنفسها وإلى الأسقفية ذاتها، الاحتشاد في وقت واحـد ومكان واحد، وفي مكان واحـد فيما بعد للذين هم من الاقليـم الواحد نفسـه، وعلى الذين معهم زوجـاتهم، الاحتشـاد في جماعـة واحـدة، وينبغي أن يكون لكل جماعـة ضابط رئيس واحد، يقدم الجميع إليه طاعة مطلقة.

وإذا ما كان لدى بعض الذين يودون العبور بعض الأطفال الصغار، عليهم إرسال القابلين للتعليم منهم إلى المركز المذكور حتى يتعلموا فيه على حسابه، وعندما يكملون تدريباتهم ويتعلمون، يمكنهم اللحاق بآبائهم ومن المتوقع أن تكون مختلف المقاطعات، والمدن، والأماكن متشوقة للاستيلاء على المناطق التي ستمنح لهم في الأرض المقدسة، وأن ترسل عدداً كبيراً من المستوطنين لكي يستولوا عليها ويستقروا بها بكل سرعة، ومن أجل أن يكون هؤلاء كافين للدفاع عنها، وينبغي أن يكون جميع الذين أرسلوا إلى هناك مدربين، حتى يكونوا قادرين على الفور القتال بكفاءة كجنود رجالة.

١٠٨ [66] : ولدى توزيع المدن والمناطق، سوف يكون مفيداً عدم نسيان المبادىء التالية،وذلك من أجل الصالح العام، والمعني بهذه المبادىء أن يكون هناك اتفاق في داخل المجلس من البداية،أن يجري تخصيص المدن الحدودية والحصون القائمة على الجبهة في الأرض المذكورة، إلى الرجال الأعظم نشاطاً، والذين اعتادوا في مواطنهم على القتال[ضد المسلمين] من أمثال الإسبان وآخرين كثر، وبذلك فإنهم بقتالهم من وراء الدفاعات ضد العدو — بقدر ما تتوفر الحاجة — يمكنهم حماية حدود الأرض المقدسة، ومدنها، وحصونها، وأن يكونوا مستعدين دوماً لاستدعاء النجدات من الآخرين، إذا ما اقتضت الحاجة، وهكذا عندما تحاط الأرض المقدسة بسياج من المقاتلين الشجعان، من الممكن الدفاع عن حدودها بشكل فعال وتتمكن المناطق الداخلية من الازدهار، ويتوجب أن تحكم الأرض المقدسة — بمعونة الرب — بعناية وتقوى فيما يتعلق كلياً بالسيفين: الروحي والدنيوي، وباحترام الأماكن المقدسة كما ينبغي، وبإجلالها، وبإقامة القداسات فيها بشكل متواصل، سوف يكون من الممكن تهدئة غضب مخلصنا، الذي، برحمته غير المحدودة، ارتضى أن يعاني الموت جسدياً هناك، من أجل

إنقاذ الجنس البشري.

[67] : إنه لمن الواضح، ومما يمكن البرهنة عليه من الكتابات المقدسة، وبوساطة حجج دامغة، أن إصلاح الأوضاع الخلقية والقيم في الكنيسة العالمية ضروري، وذلك إذا ما أريد إيقاف الحروب، واسترداد الأرض المقدسة — ذات السحر الخاص الذي تبرهن الكتابات المقدسة صحته — وإسكانها من قبل المسيحيين.

إن ذنب إنسان واحد هو سبب ضعفه، ومن خلال التكرار، سيكون سبب موت المذنب، ومن الممكن البرهنة على هذا من خلال كلمة الرب عندما قال إلى الإنسان المريض:«لا تخطىء أيضاً لئلا يكون لك أشرّ»[يوحنا : ٥ / ١٤]، وبوساطة الفتوى المبنية عليها، وللسبب نفسه إن ذنب مدينة، أو ذنوب شيوخها هو سبب الخلافات، والحروب، والموت، والشيء نفسه ينطبق على ذنوب المناطق، والممالك، والامبراطوريات، لأنه مهما كانت العلاقة بين جزء وجزء، كذلك العلاقة بين كل وكل هي نفسها، والعكس هو صحيح، وحيث تتوفر الأسباب نفسها يتوفر الحق نفسه، وحيث يكون السبب نفسه، يكون التأثير نفسه، وذلك حسبما تعلن الشرائع، ويناضل منطق الفيلسوف في سبيله، وحسبما قال الرسول:«لأن كل ما سبق فكتب كتب لأجل تعليمنا»،[رومية: ١٥ / ٤]، ونحن نرى أن الكتابات المقدسة، التي هي وسائل الفهم، الذي هو، إيمان، تحتوي في سفري المكابيين أنه لمدة تزيد على سبعين سنة كانت هناك ذنوب كثيرة، وموت كثير، وأحزان عظيمة، كلها قد حدثت من أجل الخير، بسبب ذنوب الناس الأشرار، فكيف يمكن لرئيس الكهنة، الحاكم على الكنيسة كلها، الشاغل لكرسي بطرس، نائب مولانا يسوع على الأرض، الذي ناضل بحماس من أجل خلاص المذنبين،كيف يمكن له أن يفكر أن الأرض المقدسة يمكن استردادها وإسكانها من قبل المذنبين وذلك في الوقت الذي كتب فيه

من قبل النبي:«الأمـاكن لا تمنح القـدسية للناس، لكن الناس يمنحـون الأماكن القدسية»؟.

أولا يرى أن الكتابات المقدسة، التي تمقت الحروب، والوعاظ الذين يعلنون هذا بالـطول وبالـعرض، أنهم غيرـمؤثرين الآن، كما ـكانوا في الماضي؟ ولو أنهم كـانوا مـؤثريـن الآن وفيما بعـد، أو لـن تكون هذه الأمثلة نادرة جـداً، لو أن جميع العـالم الخاضع له أخـذ بعين التقـدير؟، أولا تظهـر أعـداد لا تحصى من إيضـاحـات الماضي وتجاربه منذ بداية خلق الدنيـا، وتري وتبرهن — مـا حـرمـه الرب — على بصيرة النظام الذي في الرؤوس الرئيسيـة لمثل هذا العـدد من الأعضـاء؟ ولسـوف تستمر هذه الحالة المتردية من الأوضاع، ما لم يسعى في سبيل — ويحقق بأقصى سرعة ممكنة إيجاد — سلام صحيح، وكـامل ومستمر، وإصلاح لأوضـاع الكنيسـة العـالميـة، وجميع كـومنولث المسيحيين الخاضعين له، بحكم كونه أبوهم الأعلى، ولقد جرى تقديم خطة محكمة إليه، ومع أنها غير كاملة ومختصرة، من الممكن إيصالها إلى حالة الكمال من قبله، أو أن يقدم بإلهام رباني خطة أخرى أفضل منها،

١٠٩ [68] : يتـوجب على الكـاهن الرئيس، الراعـي لجميع الناس، بحكم واجبه المتقيـد به، أن يؤسس، وأن يضاعف جميع الروابط الممكنة لإتمام السلام، بين أبنائه، فذلك سوف يليه قيام سلام عالمي دائم، ومن الممكن البرهنة على الصحـة المطلقـة لهذا الاقتراح، ليـس فقط بوسـاطة الاصلاحات اللاهـوتية، بل أيضاً بوساطة الاصـلاحات الفلسفية، لأن من المعـروف أن الفلاسفـة يعتمـدون على القانون الطبيعي، ويرفضـون القـانون الموسـوي، الـذي منح روحيـاً إليهم من قبـل بني إسرائيل، وبقيـاسهم الأمـور منطقيـاً للوصـول إلى محصلة ضرورية، وبـإقـامتهم مناظرتهم على السبب والتـأثير، توصلوا إلى محصلة لا يمكن دحضهـا، بأن هناك ـفاعل أو رئيس، هو الذي يتولى تحريك جميع الأشـياء لكنه لا

يحرك من قبل أحد منها، وهو المسبب لجميع الأشياء، وهو نفسه غير مُسبب، قد حقق وجوده فقط من خلال ذاته، وهي ذات خيرة، وبتوزيعها لخيراتها — وليس بشكل آخر — جعلت كل الأشياء تتسلم الخير منها وتشارك به، ومن جوهرها جاءت جميع الأشياء الخيرة والصادقة، والشيء نفسه ينطبق على جميع الفضائل التي قدرت في المحصلة، وندعو هذا الرئيس والمسبب الأول باسم الرب.

وفي أثناء حديث الفيلسوف في كتابه On meteors عن الرئيس، وحيث اقترح سبباً لتكوين العناصر قال هو الرب،وقال:«هكذا أوجدهم الرب الرائع والعظيم»، وقال في كتاب«حول السماء والأرض»:«لا يوجد شيء خلف السماء الأولى، غير مكان إقامة الرب، والأرواح، والفضيلة، والمجد إلى أبد الآبدين»، وأعتقد أن الرسول جيمس هو الذي قال عنه:«الذي معه لا يوجد تغيير، ولاأثر للتبديل»، والآن إنه هو الملك وصانع السلام ووالده، والشيطان هو والد وصانع الخلافات، والآثام، والكذب، ويتبع هذا بالضرورة أن جميع محبي السلام، والناس ذوي الفضائل، مهما كانت طبيعة الفضيلة أو سموها الخلقي، التي حصلوا عليها أو تمثلوها، يدعون أفاضل لأنهم شركاء في فضيلة الرب نفسه، وقد وصلوا إلى هذه الغاية قرباً أو التصاقاً تبعاً للدرجة التي شابهوه فيها، وشاركوه فيها بطبيعته، التي هي غاية بالبساطة، ومع هذا تحتوي وتتضمن جميع الأشياء ليس بسبب أنها كاملة، بل لأنها الأعظم كمالاً، والآن بسبب الاسم نجد أن الكمال هو الذي لا ينقصة شيء، ولهذا السبب القوي إن غاية الكمال، فريدة، لأنها تنطبق على واحد فقط، وذلك حسبما جاء في تعريف متفوق في الكتاب الخامس من«الميتافزيك»« يحتوي الكمال على كل شيء دونما نقصان».

ولهذا اعتقد جميع الفلاسفة أن جميع الفضائل في الرب في جوهره نفسه، والفضائل معه، وتصدر عنه، ويتشارك بها الناس من خلال

شبههم به، لكــن الفيلســوف يقــول:«الفضيلــة عــادة ليـس من السهل تغييرها»، ونجـد شهـادة على صحـة ذلك في الكتـابات المقـدسـة حيث جـاء«في حين يقــارب الجميع الفضـائل من أجل المكـافأة، الذي يحافظ عليها وحده يتوج»، فقليلة هي المنفعة التي يحصل عليها المخفق في صنع أعمال جيدة بما أن المقترف في نقطة واحدة يعد مذنباً بالجميع.

ليقم أبو الأرواح جميعاً، الرسول الرئيس، بقراءة كيف أن الناس، منذ بداية الخليقة حتى الوقت الحالي، قـد حرضوا بكل سهـولة وأثيروا نحو الآثام والحروب، فهل يرغب بجعل جميع الكاثـوليك يعيشون بسـلام، وأن يكونوا بالتالي أبناء الرب، وأن يبتعدوا عن الخضوع للشياطين؟ وبما أن الوعظ والعقوبات المعتادة غير فعـالة، عليه أن يمعن التفكير، بحكم الوظيـفة المسندة إلـيه، وأن يسعى في سبـيل ـسلام ـشامل، ثابت ومتين الأحـوال، في كل مكان من العـالم، سـلام يمكن أن يستمـر وأن يعيش أبداً، وعليـه أن يقـوم بتثبيت العقـوبـات من أجل خـرق السـلام، وأن تكون عقــوبات يخشى منهـا، لكــن أن تكون عمليـة، ونافعــة، وقليلة الأذى، بالنسبـة لاسترداد الأرض المقـدسـة والحفاظ عليهـا، وأن تفيـد بالوقت نفسه كمذكر ومحذر دائم.

[69] : إذا كانت عقوبة النفي الدائم، وفقدان جميع الممتلكات سوف تكون مخشية أكـثر من أي شيء آخر، لأنها ـسوف تطبق ليس على فاعلي الحروب بل على آبائهم، وأولادهم، وزوجاتهم،، وإذا كـانت ستزيد من تقديم الرغبـة المقترحة لمعونـة الأرض المقدسة، دعـونا إذن نختار رباط السلام، نظراً لتفـوقه على غيره جميعـاً، وإذا ما وجـد رباط آخر أفضل، ليتم اختياره ،وكان بريسشان Briscian [النحوي ٥٠٠ ق.م] قد قـال:« إنني أفترض أن مـا مـن شيء في النوازع البشرية يمكن أن يكون كاملاً من جميع الجوانب»، وأعلن الفيلسوف العظيم في كتابه«السياسة»، أن هذاالذي ينبغي أن يفعل، وذلك عندمـا قال:«لأن مـا ناله الناس من

معلومات ومن قناعات حول ما هو جيد وما هو عـادل، لم تكن كافية، لقـد وجـد أنـه من الضروري أن يتأسس في الـدول قـوة القسر لدى القـاضي، مـن أجل أن يفعل الناس مـا هو جيـد وعـادل لجيرانهم ولمعاصريهم، والـذي قاله الفيلسـوف نفسه في كتاب الأخـلاق ويتماشى مع هذا هو:«لـو أننا جميعاً أناسـاً عـادلين(شرح: مـن الواضح أنه أراد الشعور الداخلي بالعدالة، الذي هو هبة وكمال العقل المنطقي) لما احتجنا إلى العـدالة،(شرح: من الواضح أن العدالة في العـلاقات الخارجيـة هي إجبارية من خلال القوة العسكرية)».

وهكذا لم تستطع لا أـقوال الكـتابات المـقدسة، ولا وعظ الواعظين المستخـرج من الكتـابات المقـدسـة، ولا النحيـب المتـدفق، ولا صراخ الوعـاظ، ولم تنجح في إيقـاف الحروب المتـواليـة للكاثوليك، مع الموت الروحي والمادي لـعدد كبير من عظماء الرـجال، الناجم عنـها، فلماذا لا يتبرهن أن اقتراح تقديم العـون إلى الأرض المقدسـة في النهاية هو مخرج جديد لاستخـدام القوة العسكرية، وهذه عدالة من الضروري فـرضها، كما هي، حسبما رأينا من الفرضيات الموضحـة، ومما شهدت به الكتابات المقدسة إنها موجودة منذ بداية الخليقة؟.

وهذا طرح مـن المستحيل إجـابتـه، متحـدثين أخـلاقيـاً وأدبيـاً، لأن«المناقشة ينبغي أن تكون متـوافقة مع القضية قيد المناقشـة»، فهذا ما قـاله الفيلسوف، وجـرى عرضـه في القانون المدني، وعلى هذا الأسـاس قـال الفيلسوف:«يخطىء الذي يطلب برهاناً واضحـاً من الكلام المنمق، وحجـة منطقيـة من الهندسـة»، ولدى استخـراج برهان مـا من خـلال الأسبـاب، من الضروري الاستخلاص والوصـول إلى نتيجة، والنتيجـة هي«عَرفَ»، إنما لدى الحديث بأدب مـن خلال فرضيـات منطقية نحن نستخـرج«حـدسـاً» من الماضي والحاضر نحـوالمستقبل، فلقـد قـال الفيلسـوف:«يحدد أي شيء بأنه جميل جداً عنـدما يعطى تحديد الأشيـاء

بشكل متوافـق مع السمات الظاهرة إلى جميع العقول»، ونقـرأ في القانون المدني:«في القضايا غير المؤكدة هناك مكان للحدس»، ويفترض أن ذلك ليس في جميع القضـــايا بشكل مطلـق، بل فقط في القضـــايـا المنطقيـــة والممكنة.

ونحن نرى أنه وفقاً للسبب العادي المتوفـر للطبيعة الناس الفاسدين وميـولهم نحـــو الشر، والانغماس باللذات، والشره هـم دومـــاً بازدياد، وذلك في مقابل أننا نجد أن التقوى، والفصاحة، وتأثير معارف الوعاظ الذين يمقتون الحروب دوماً في نقصـان، وإذا لم تتمكن تقوى، ومواعظ وفصاحـة الآباء المقدسين من وضع حـد للحروب المرعبـة للكاثوليك، كيف يمكن لـلأب الرسـولي أن يفترض أن بـلاغـة ومـــواعظ رجـــال الكنيسة الحاليين والمستقبليين، سـوف تتمكن في المستقبل من وضع حد للـــحروب، وللانغماس باللذات وللشره الذي تسبـــبه الحروب؟ وإذا لم يمكن إيجاد بعض العقـوبات الأخـرى التي من الممكن أن تكون مخيفـة أكثـر، وأعظم نفعـاً، ينبغي تطوير هذه العقـوبة ووضعهـا قيـد التنفيـذ، فبـوساطتهـا سـوف يزودنا ملك السـلام بفضله ورحمتـه برجال عقـلاء ومجربين، وبالقداسات المستمرة، وبالصلوات الدائمة المقدمة من الكنيسة المسكونية، ويمكن للمجمع المقـدس للأساقفـة، والأمراء أن يجتمع من أجل مناقشـة، وإكمال، وتعديل، وتغيير هـذه المقترحات، بشكل مـوائم جداً في طولوز، وذلك تفضيلاً لها على أية أماكن أخرى.

[انتهى هنا جـزء الرسـالـة الذي جـرى توجيههـا إلى أدوارد الأول، وجرى توجيه الجزء التالي إلى فيليب الجميل].

القسم الثاني

استرداد الأرض المقدسة
القسم الثاني

١١٠ : أرسلت الوثيقة المتقدمة إلى السيد ملك إنكلترا، مع رسائل مختومة، تلفت انتباهه باختصار إلى فوائدها في المسائل الروحية، وتحثه على أن يقوم بفحصها باهتمام وبسرية، من قبل رجال حكماء ومخلصين له وللرب، ويمكن أن يكونوا من المبشرين أو من القلة « Minorites »، ومن الممكن حذف كل ما ينبغي حذفه أو إسقاطه،وأن يضاف كل ما يبدو موائماً إلى جلالته الملكية المجربة والحكيمة، وإلى مستشاريه العقلاء، الذين بعقلانية سيطلب منهم —بفضل من الرب — وسيعهد إليهم بمهمة الفحص، والتصحيح، والتقويم، وعليه بعد هذا أن يقوم من دون تأخير بتحويل هذا المشروع، مع مشورة كاملة من قبل سفراء مخلصين، وعقلاء، ومجربين إلى السيد البابا، وأن يكون هؤلاء السفراء سريين، والغاية من هذا الإرسال أن يستفيد منه المجمع الذي سوف يعقد وفق طريقة جرى شرحها بما يكفي في الوثيقة المتقدمة.

١١١[70] : لدى الكاتب موهبة ربانية طبيعية بالميل نحو سرعة الخاطر، التي هي — تبعاً للفيلسوف — البراعة في إيجاد المصطلحات الوسيطة، أي أسباب الأشياء التي ما زلنا نراها عقلياً فقط، ولسوف يذكر فقط وبشكل محدد المنافع التي ينبغي أن تحصل من الاقتراحات المتقدمة الذكر، وترتبط بالمشجعين الرئيسيين لها، وأعني بذلك أصحاب السيادة: البابا، والملك الفرنسي، وأخوانه وأولاده، وملكي صقلية وألمانيا، وفردناند صاحب إسبانيا وأخيه[ألفونسو].

وعندما تنتهي الحروب بالوسائل المقترحة هنا، وعندما من جهة أخرى يعهد — مقابل عطاء سنوي مضمون — بحكومة البابا، وبممتلكاته، وبما يشغله بالأمور الدنيوية، بشكل دائم إلى السيد ملك فرنسا، لتدار من قبل أخوانه وأولاده حسبما يراه مناسباً، وعندما تتوقف المؤامرات المؤذية للرومان واللومبارد، وقتها من الممكن جداً، أن يكون السيد البابا قادراً على أن يتمتع بحياة سليمة طويلة في موطنه الأصيل،

الذي هو مملكة فـرنسـا، وأن يمتلك الـوقت الكافي ليكرس انتبـاهه إلى حكم الأرواح فقط، ويتجنب بهذا أجـواء روما العـاصفة، التي لم يعتـد عليها منذ ولادته، وسوف يكون في هذا منفعـة لا يمكن تقديرها، وهي دائمة، إلى جميع أصدقـاء السيد البابا، وجيرانه وأقربـائه، وبشكل خاص إلى مملكة فـرنسـا كلهـا، بما أن رجـال الدين الطليـان لـن ينالوا دخل المصالح الغنية العائدة إلى الكنائس الفرنسية والألمانية — حسبما كانوا في الماضي — من أجل بناء قـلاع لأنفسهم ولأقـربائهـم، بسلب الكنائس حتى على حساب القداسات الربـانية، كما أنهم لن يتابعوا الاشراف على هذه المصـالح الغنية، التي لن يستحـوذ عليها بعـد الآن رجال الكنيسـة الكبار، عـوضاً عن الفرنسيين، حسبما كـانت العادة من قبل بسبب دهاء الطليـان وبراعتهم الطبيعيـة،وهؤلاء الطليـان راغبـون في تشـامخهم أن يدوسوا على إنسانيـة الفرنسيين، ولقد حاولوا أن يقـوموا بما لم يسمع به قط من قبل، والادعـاء بالحق الدنيـوي لحكم المملكة الفرنسيـة، ولحكم أميرها الأعلى، يريدون من وراء ذلك تعـريـض هذه المملكة التي تعيش في سلام وفي وئام إلى فتنة دائمة، وعصيان مستمر، ولحسن الحظ خمدت العـاصفة التي ثارت مع هذه التطلعـات، لأن ملك السـلام منح وفاقـاً عظيماً، وأخمد هذه الخلافات.

وبما أن البابا الروماني قـد أساء استخدام سلطاته، وفعل ذلك بسبب الرومـان، إنـه لمن الأفضل والأصح، ومما يتـوافق كـذلك ويتماشى مع رغبات ومراسيم الآباء المقدسين، أن يقوم الرومان في سبيل حفظ المجد البـــابوي وزيادتـه بالسماح — ولو مكرهين — بـأن يجري التمتع بهذا الشرف العظيم بشكل دائم من قبل أفـراد لن يكونوا راغبين بالسرقـة، على حســاب الفخـار الأســاسي لأعظم الأمــراء المسيحيين، الذي لن يتجاوز الحدود التي أرساها الآباء المقـدسون، والذي سوف يسمح لأي قيصر أن يحكم في مملكته، ولأن يدير ممتلكـاته وأن يتمتع بها، وقد علمنا

مخلصنا هذا وقال بوجوب فعله، حسبما جاء ذلك موثقاً في الانجيل، فهو قد قام حتى يتجنب الخلاف، بتوجيه بطرس لدفع الضريبة المستحقة عنه شخصياً وعن بطرس، وقد أخبر بطرس بالمثا ل التالي ليبقى إلى خلفائه حيث قال:«أعطوا لقيصر الأشياء التي لقيصر، وللرب الأشياء التي للرب»(متى : ٢٢ / ٢١)، وعندما قام بغسل أقدام حوارييه قال:«لأني أعطيتكم مثالاً حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً»(يو حنا :١٣ / ١٥).

وبسبب انفعالات ما قد طرح، قد يواجه كاتب هذه الكلمات معارضة، وقد توقع هذا عندما تعرض لهذه المسائل في كتابه«حجج لا تدحض»، الذي كتبه في باريس في يوم السبت الذي تقدم على يوم الأحد الذي شهد نشر مرسوم البابا الظالم[Ausculta Fili]، وأرسل في اليوم نفسه إلى صديقه[رتشارد لينيفو] الذي هو الآن أسقف بيزير Bezier [في ذلك الكتاب المذكور] يقول بأن القاضي الأعلى، الخفية قراراته، قد قضى بوسائل مشاحنات الرومان، أن يسند منصب الحبر الأعظم إلى رجل بمثل هذه الأخلاق العالية، حتى يتم من خلاله سحب هذه السلطة التي توجب سحبها منذ زمن طويل من أشخاص أشرار بسبب ذنوبهم وطغيانهم، وأن يبقى مع آخرين ليسوا متشوقين لسرقة حريات الآخرين وانتزاعها، وبعد هذ ا عليهم أن يدركوا أن السلطة التي منحت على الأرض إلى بطرس أمير الرسل، قد سحبت بهذه الطريقة منهم بسبب ذنوبهم البغيضة، لأن الملك شاول عندما جاء تعيينه بأمر الرب، ومسح ملكاً، لم يصغ إلى الرب، ولم يأخذ بأوامره، بل استخدم منطقه، عوضاً عن منطق الرب، أو منطق الكتابات المقدسة، فكان أن تلقى أمراً خاصاً من الرب بفقدانه مملكته.

ويصدر الرب الآن مثل هذه الأوامر من خلال الكتابات المقدسة، ومن خلال تفاسيرها، ففيهم، وبوساطتهم ينبغي أن ننشد الأسباب

المعقولة والممكنة لجميع المحصلات التي ينبغي أن نراعيها، ويتماشى هذا مع ما قاله الرسول:«لأن كل ماسبق فكتب كتب لأجل تعليمنا»[روما : ١٥ / ٤]، فلماذا غالباً ما نقرأ في الكتابات المقدسة نصوصاً تبين كم هي عظيمة ومتنوعة الشرور التي وقعت بسبب مختلف الذنوب، وإذا لم نخف من أمثلة مثل هذه الأحداث، من اقتراف ذنوب فإن الشرور، لا بل الأسوأ منها، سوف يتبع؟، لأنه كما قال الفيلسوف:«إذا كنا جميعاً عادلين(أي بمعنى الشعور الداخلي بالعدل) سوف لن نحتاج إلى العدل(أي بمعنى العدل الخارجي)»، وبسبب الذين لم يمنعهم الخوف من الرب ولاحبه من الشر، والذين لم يرغمهم على الابتعاد عن الشر، العصا الفولاذية مطلوبة لهم أحياناً،وهي التي بعث بها الرب — حسبما جاء في كلماته:«أنت سوف تحكمهم بقضيب من حديد»[المزامير :٢ / ٩]، والذين لا يصغون إلى أسباب مثل هذه القضبان، هم يشبهون فرعون بقسوة قلبه، ولهذا سوف يعاقبون دنيوياً، وفي النهاية أبدياً، وذلك إذا لم يثوبوا إلى رشدهم، ولهذا يتوجب علينا التحري بإخلاص حول جميع الأسباب الممكنة لجميع المحصلات التي نشهد وقوعها، وليكن هذا تماشياً مع القول المشهور الذي حذرنا فيه هوغوتون:«سعيد هو الذي يمكنه فهم أسباب الأشياء».

وقال الفيلسوف:«لأنهم بدأوا يتساءلون، بدأ الكهنة في مصر أولاً يشغلون دور الفيلسوف، فطلبوا الأسباب المعقولة، ومن ثم النتائج المحتملة لما رأوه، ولقد أذنبوا ضد مبادىء ما جاء في الكتابات المقدسة، التي تعزو الشرور إلى الفرص وليس إلى الذنوب، أو لم يقل الرب:«بسبب ذنوب الناس سأجعل الفاجر يملك»[أيوب : ٣٤ / ٣٠ بتصرف كبير]، وكذلك ألم يرد في القانون الأوغسطيني:«بسبب ذنوب الناس أعطيوا أحياناً ملكاً شريراً، وأسقفاً شريراً»، لأن الناس لا يستحقون أميراً جيداً ولا أسقفاً جيداً؟ وللسبب نفسه ينبغي الخوف من

الأمـراء ومن الأسـاقفـة خشيـة من جعل الناس أشراراً بسبب ذنوبهم، ومن ثم يثـورون ضـدهم، فعلى كل إنسـان أن يتهم نفسـه، ولا يسـوغ أعماله.

١١٢ : وإذا بقي السيد البابامدة طويلة في مملكة فرنسا، ربما سيتمكن من إيجاد عـدد كبير من الكرادلة من تلك المملكة، وبذلك سـوف تبقى البابوية معنـا، ونتخلص كلياً من أيدي الرومـان،وسيكون هذا واضحاً، حتى ينتبهـوا في المستقبل ويتجنبوا انتـزاع حقـوق الآخرين والاستيـلاء عليها، خشية أن يحل بهم مصيراً أسوأ.

١١٣ [٧١] : ومن البديهي أن ملك صقليـة سوف يحصل على منافع كبيرة من الترتيبـات المقترحة، ولسـوف تكون مملكة القدس ذات قيمـة أعظم، بالنسبـة له، من جميع مـا يمتلكه الآن، لأن جميع الأراضي يمكن وضعهـا تحت جـزية سنوية، والمملكة سـوف تنـال الدعم من ممتلكات الداوية، والاسبتـارية، والآخـرين الذيـن ورد ذكـرهم مـن قبل، وهو سيسترد أيضاً مملكة صقلية، ومملكة سردينيا سوف تكون من نصيبه بعد تحريرها من فردريك[أوف أراغون]، حسبما ذكرنا من قبل.

١١٤ : ولسـوف يمتلك ملك ألمانيـا الذي هـو الآن ملك مـؤقت وبشكل عـابر، المملكة، ومنصب الامبراطور الشرقي لنفسـه ولورثتـه بشكل دائم.

١١٥ — ويمكن للورد شارل[أوف فـاليوس] عندمـا تنتهي حروب المسيحيين الخاضعين للسيـد البابا، أن يستـولي — بعـون الرب — على امبراطورية القسطنطينية، ووفق الترتيبات المقترحة سيكون لديه مقاتلين لهذه الغاية، ومن المحتمل أنه من دون ذلك لن يكون لديه أحداً.

١١٦ وإذا ما وقعت هذه الأمور كلها هكذا بشكل موائم، هي الآن، وستكون من بعـد أعظم فائـدة لمولانا السـامي، ملك فرنسـا، ولأولاده

ولأخـوانـه،ولازدهاره العـام، وسيكون هذا الازدهـار أعظم مما يمكن كتابته، وإذا مـا جرى تنفيذ هذه الاقتراحات بنجـاح، سيكون قادراً على التحـالف مع جميع الملوك والأمـراء الخاضعين للكنيسـة الرومـانيـة، والتحـالف سيكون معـه شخصيـاً، ومع أخيه، الـذي في ضوء فـرصـة الاستيلاء على امبراطورية الإغريق، مـن دون اضطراب في مملكة فرنسا، عليه أن لا يتأخر في الشروع في الحرب ومواصلتها حتى الموت.

ولسوف يكون مصدراً لكثير من المجـد والمنفعة إلى المولى ملك فرنسا إذا ما تمكن من الحصول على مملكة ألمانيـا وامبراطوريتها لأخيه، ولأبناء أخيـه بشكل دائم، وسيكون مفيـداً تحقيق اتفـاق حـول هذه المسألة مع الملك الحالي، قبل أن يسمع بالخطة الجديدة للسلام.

وحسبما جرى — كما قيل — الاتفـاق من قبل في مكان آخـر، وقتها سيحصل الملك لنفسه ولورثته على جميع المنطقة القائمة على هذا الطرف من الرايـن عند كـولون، أو أن يحصل في جميع الأحـوال على سيـادة مبـاشرة، وإشراف على مناطق بروفـانس، وسـافـوي، مع جميع الحقـوق التي يمارسهـا الامبراطور في لومبـارديا، وفي مـدن ومنـاطق جنوى والبندقيـة، وبهذه الطريقـة سـوف يحصـل السيـد الملك على ممر حـرّ إلى لومبارديا، وينبغي عقـد هذه الاتفاقيـة بشكل سري بين ملك الفرنسيين وملك ألمانيا، مع موافقة البـابا وتأييده، وهكذا عندما يجري الاتفاق على هذه الصورة، ويتأكـد، سوف تتأكد تبعيـة الامبراطورية إلى ملك ألمانيا، وسيكون ذلك لصـالحه ولازدهاره، ومن الممكن تقـديم الأعطيـات إلى نـاخبـي[الامبراطـور] أو على الأقل إلى النـاخبين العلمانيين، مـن أجـل الحصـول على مـوافقتهم ويمكن للبـابـا بنجـاح أن يطلب من الناخبين اللاهوتيين تقـديم الموافقـة، ذلك أنه سيكون لصـالحهم من كثير من الجوانب أن تتوقف الحروب المعتادة للامبراطورية ولرعاياها.

ثم يقوم البـابا، مقابل الحصول على عطـاء سنوي دائم، بتحويل جميع

الميراث الـوقفي للكنـائس إلى المولى الملـك، مع الاشراف الـدنيـــوي القضائي على الأتبـاع الإقطاعيين لهذا الميراث، الذين سيكون بينهم كثير من الملوك، ويمكن أن يشترط ويتـم الاتفـاق على أن يقـوم المولى الملك بتعيين واحـداً من أخـوانه أو أولاده سيناتوراً رومـانيـاً وسيكون هذا الفرد، في أثناء غياب الملك نفسه، هو السلطة القضائية العليا في الميراث، ومن الممكن تقديم استئنافـات ضد قراراته إلى السيد البـابا، الذي يقوم بعـد تفحصه للاجـراءات في القضايـا التي يحق له التدخل فيهـا، بنقض القرارات، أو تأكيدها، أو أن يتولى تعديلها.

وإذا مـا كـان اللومبـارد، والجنويـون، والبنادقـة غير راغبين بتقـديم الطاعـة إلى الملك، وبدفع الجزية والضرائب التـي كـانوا يدفعـونها إلى الامبراطور من قبل، ينبغي على الفور منعهم من التعامل مع الكاثوليك المطيعين إلى المولى البـابا، والذين يـراعـون تطبيق خطة السـلام الجديدة ونظامها، ولسـوف يحظر عليهم أيضاً المتاجـرة بجميع البضائع، ويمكن للملك أن يدخـل بحـريـة إلى لومبـارديا عبر طريق سـافـوي، ويأتي السيناتور، والامبراطور، وملك صقلية من الاتجاهات الأخرى، وبذلك يخضعـونها تمامـاً، وينبغي بعـد هذا إرسـال المتمـردين إلى منفى دائم، وبسبب نظام السلام الجديد، المحظور انتهاك حرمته، والذي تأسس من قبل الحلفـاء، سوف لن تستمـر رعـونتهم المعتـادة، لكنها سـوف تسقط بالضرورة، ومثل ذلك رعـونة الرومـان، والتـوسكان، والشـامبنيين، والأبوليين، والكالبريين، والصقليين، وجميع الممالك الأخرى والمقاطعات المطيعة للبابا.

وبهذه الوسـائل سيكون ملوك إنكلترا، وأراغـون، ومايوركـا طائعين للمـولى الملك، مثلما هو مطلوب منهم الآن طاعـة البـابا في المسـائل الدنيوية، ومن الممكن عقد اتفاق مع الملك المستقبلي لغرناطة، فهو أيضاً ينبغي أن يطيع الملك، وبـالمناسبـة يمكن اتخاذ إجـراءات في المجمع بأن

يقوم المغتصب ظلماً لمملكة كاستيل — مع احتفاظه لنفسه بتاج كاستيل وبمواردها — بالقبول بالالتزام بتحكيم البابا، الذي يمكنه آنذاك صنع بعض الترتيبات من أجل الآخرين،لأن المغتصب قد أذنب ذنباً عظيماً ضد ابن أخيه البكر لأبيهما، باحتفاظه بالمملكة مراغمة للعدالة العامة، لا بل حتى مراغمة للاتفاقيات التي عقدت بين الملك القديس لويس، وبين والد المغتصب المتهور، والأساقفة والبارونات في مملكة كاستيل، وكان قد تقدم عقد اتفاق زواج فيها بين الولد البكر لملك كاستيل، والأميرة بلانشي، ابنة القديس لويس، اشترط فيه أن تكون ولاية العهد في المملكة إلى أولاد الولد البكر، إذا — كما حدث — ما مات أبوهم قبل جدهم.

ثم تترك كاستيل لمتملكها المتهور، الذي يمكنه أن يعطي مملكة غرناطة إلى ابن أخيه الذي خرق الاتفاقية معه، ومملكة أخرى إلى ابن أخيه الآخر، على شرط أن يطيعا الملك الفرنسي من أجل الحصول على مساعدته ضد المسلمين، وبهذه الطريقة سيصبح الملك الفرنسي في وضع يمكّنه من احتلال مملكة كاستيل، وسوف لن يكون غريباً إذا ما سعى ملك فرنسا — مع استثناء السيادة الصحيحة لإسبانيا — نحو الحصول على ولاء وإخلاص بلاد، حصل عليها جده شارلمان لدى طرده المسلمين، والتي تحق له أيضاً بالوراثة من أم القديس لويس، وبالنسبة لهذه القضية سوف يقوم البابا باتخاذ قرار نهائي حول مصير مملكة كاستيل، وذلك بعد تثبيت الترتيبات الأخرى، وسيقوم في الوقت نفسه السيدان فرناند[دي لى سيردا Cerda] وأخوه بالاستيلاء على مملكتيهما بدون عوائق، وسوف يبتهج المولى الملك في تملكه المتبقي من الأراضي المستولى عليها والمتقدم ذكرها.

١١٧ [72]: وفي المجمع ينبغي أن يسعى السيد الملك مع أخيه، بقدر ما هو ممكن في طلب، وفي تأكيد التحالف مع جميع الأمراء الذين

اجتمعوا هناك، من أجل الحصول على معونة الجميع في الحصول على امبراطورية الاغريق، وذلك بعد فتح طريق إلى الأرض المقدسة، وسوف يكون ملك صقلية — أو ينبغي أن يكون — أول من يفعل هذا، وهو راغب تماماً، ومعه جميع قواته، ولا سيما لصالح الذين سوف يقدمون لمساعدته بالشكل الرائع الذي تقدم ذكره، ويمكنه أن يفعل هذا بوساطة الوعد بتقديم العون بجميع قوى سفنه، ورجاله، وإمداداته.

ووقتها سوف يميل الجميع للوعد، ومن ثم لتقديم العون بجاهزية أكبر مما كانوا سيفعلونه لو أن التعهد العام لم يصنع مطلقاً.

وعندما تهدأ الحروب المعتادة بين الكاثوليك وتتوقف، وقتها يمكن بسهولة أكبر إقناع رجال الحرب، الذين بقيوا بالحري بدون عمل في بلادهم، بالاستعداد لتقديم العون الحربي إلى بلاد نائية، وإذا ما جرى تبني الاقتراحات المتقدمة الذكر، من الممكن للذين يعيشون بين الغرب وبين بلاد الاغريق، على هذا الجانب من البحر المتوسط — أو على الأقل الذين قرب الساحل — أن يحشدوا المقاتلين لديهم مع التجهيزات البحرية.

وسيكون مفيداً مهاجمة بلاد الاغريق وامبراطوريتهم من كثير من الاتجاهات براً وبحراً، وذلك باتباع تفاصيل التكتيكات الشاملة التي جرى شرحها مطولاً في الكتاب الصغير الذي عنوانه«حول اختصار الحروب والتكتيكات المتعلقة بها»، فقد جرى إعداده من قبل الكاتب الحالي، وقد بعث به إلى صديق الملك المخلص والمحنك، جين دي فورت، وكان ذلك في طولوز، عندما كان صاحب الجلالة الملك مع أخيه شارل[أوف فاليوس] هناك، وصنع هذا بمقصد إقناع اللورد شارل ومستشاريه وأصدقائه، للقيام بتقدير هذه التكتيكات، والاقتراحات الأخرى المتعلقة بها، بدرجة من الاهتمام، ومن ثم تبنيها.

وبعـد فحص ذلك الكتـاب الصغير، واغتنام الفـرصـة المناسبـة التي يوفـرها، ينبغـي على جـلالة الملك وأخيـه شـارل، ومعهما الأصـدقـاء المتدربين على ممارسـة الحروب والبارعين في فنون القتـال، عليهم توجيه بعـض الرجـــال الحكماء والخبراء والمخلصين لهم لـلاشراف بعنايـة وباستمرار على جميع الترتيبات التي أعدت لهذه الغاية، وواضح مما تقدم من قبل، ومن الكتـاب الصغير المشـار إليـه، أنـه سيكون من الصعب الإقامة في بلاد لغتها الأدبية، وجميع اللهجات المتحدث بها، غير معروفة إلى جميع الفرنسيين، وسيكون من الصعب أيضـاً طلب صداقة وتحالف السكـان المحليين، الـذين بشكـل طبيعـي يكـرهـون اللاتين، ومـن ثـم حكمهم إذا ما خضعوا، والاختلاط بهم، وينبغي على الأمير الجيد أن لا يستهـدف تدمير جميع الناس، وإذا ما كـانت هذه غـايته، فإن قضيتـه لا تستحق النجاح، ثم إنه لن يكون قادراً على تحقيق هدفه والوصول إليه.

فكيف على هذا يمكـن للانســان أن يحصل على حب الـذين بقيــوا أحياء؟ وكيف يمكـن أن يحكموا من قبل الذين لا يفهمـونهم، أكثر من فهمهم لصيـاح الطيـور في الهواء،ولزئير الوحـوش، ولفحيح الأفـاعي، ولن تتحقق الكفـاية بالمترجمين الأجـانب للغـاتهم، بما أنه سيكون خطراً الوثوق بهم، كما أنه لـن تتـوفـر الكفــاية في الأشخــاص إن عـدداً أو حكمة، من أجل إدارة امبراطورية، وسيكون الناس من البـلاد الأجنبية — الذين يعــدون برابرة في أعين الفـرنسيين، مثلهـم في ذلك مثل جميع الناس الذين يفهمـون لغة الإغريق — متـأثرين تماماً، وقـد ارتشوا، من أجل خيانة و خداع الذين أيضاً يعدون من قبلهم برابرة في تلك البلاد.

وقد عـرف بولص المبارك مع الرسل الآخرين — الذين كـانوا جميعاً يهوداً — اللغـة العبرية فقط، التي كـانت اللغـة الأدبيـة، وكـذلك لغـة الحديث في المنطقـة المحيطة بالقدس، فكيف استطاعـوا الوعظ والتبشير بإنجيل الرب بشكل معقـول إلى جميع الشعـوب البربرية، لولا أن الرب

نفسه قد منحهم القدرة على استخدام جميع اللغات؟ حيث لم يكن بإمكانهم التفاهم بوسيلة أخرى مع البرابرة، وينصح بكل سبيل من السبل، لا بل هو أمر ضروري، الحصول مقدماً على أناس يجيدون اللغات وقد نالوا تدريبات جيدة فيها،ولايمكن الحصول على مثل هذا التدريب وابتياعه بالذهب والفضة أو بالأحجار الكريمة، لذلك من المرغوب اتخاذ إجراء قبل أن تتوفر الحاجة، إما وفق الطريقة التي عرضت من قبل، أو وفق طريقة أخرى أسهل وأحسن.

١١٨[73] : وفيما يخص السيد الملك شخصياً، من المؤكد أن كثيرين سوف يعترضون، ويتمتمون، بأنه لا يمكنه بشكل جيد تحمل متاعب القيام بمثل هذا العدد الكبير من أعمال الاستيلاء، ولا إخضاع هذه الكثرة الكثيرة من البلدان المحبة للحروب، ولهذا عليه عدم القيام بمثل هذه المشاريع العملاقة، ويمكن للانسان أن يرد منطقياً ويجيب بأن من المرغوب به للملك أن يكرس الوقت من أجل المسائل الهامة، وأن يقلع بها، آخذين بذلك بالمبدأ الذي أعلنه المشرع جستنيان في بداية كتابه حيث قال:«على الرغم من أننا كنا مشغولين بالعناية بالكومنولث كله، فقد اخترنا عدم عدّ أي شيء ليس هاماً» إلخ، ولو أن كل أمير، كان — كما هو متوجب — سامي التفكير، وشهماً، وكريماً، من المؤكد أن هذا الأمير ينبغي أن يكون هو أكثر من الآخرين بين هذا النوع، وصحيح أنه من الصعب، وقضية خطيرة، بأن يقوم مثل هذا الملك العظيم شخصياً بتجهيز الحملات، وأن يشترك في المعارك العامة، حيث يمكن لواحد من أخوان هذا الأمير، أو أبنائه أو أقربائه، القيام بذلك وفعله بنفقات أقل، ومخاطر أدنى مما لو قام هو بذلك، وبعدد أصغر من المقاتلين — النصف أو الثلث أو ما يقارب ذلك — لكن لن يكون أمراً سليماً ولا ينصح به محاولة القيام بذلك، إلا بالارتباط مع الخطة المقترحة من أجل سلام عالمي شامل.

ومن المستبعد أن يجد العصاة حلفاء، لأن الجميع سوف يعانون من العقوبة ومن الحرمان الكنسي، وسوف يكون قادتهم ومقدميهم مجرمين بالحنث باليمين، وعلى هذا سوف يوصمون بالعار، وبسبب ذلك سوف يسقطون في ازدراء أبدي، وينبغي عدم الاعلان عن الاستيلاء على الأراضي — باستثناء تحويل ميراث المبارك بطرس — قبل تسوية مشكلة الأرض المقدسة، وعليهم الالتزام بروابط السلام العالمي الدائم، الذي أعلن في كل مكان، وذلك بشكل تلقائي، وذلك بسبب الحماس والضغط من أجل الذهاب إلى معونة الأرض المقدسة، ولسوف يقسم على روابط السلام من قبل جميع الأمراء،والأساقفة والنبلاء، وتصبح سارية بموجب وثائق رسمية، بطريقة تربط ورثتهم وترغمهم على أداء أيمان مشابهة، وعندما تجلب هذه الوثائق إلى قاعة الخزينة التابعة للكنيسة الرومانية من أجل حفظها، وتدخل في السجل العام وتدون فيه، وقتها يمكن للحملة إلى الأرض المقدسة أن تبدأ، وأن تلقى بمعونة الرب نهاية ناجحة.

ثم يمكن لأصحاب السيادة البابا والملوك إنذار جميع الرعايا في المناطق المستولى عليها حديثاً بوجوب طاعة الأحكام الملكية، وإلاّ سوف يتعرضون إلى جميع العقوبات التي يمكنهم فرضها، وسوف ينال المتمردون طبقاً لميثاق السلام العقوبة على الفور وبالقسوة الممكنة، وهكذا يتدبر الأمر بأن تلقي العقوبة المفروضة على عدد قليل الرعب في قلوب الكثيرين، وبذلك يصبح جميع الناس جيدين: الذين لديهم الاستعداد الجيد بالترغيب بالجوائز، والأشرار بالخوف من عقوبة دائمة لهم شخصياً ولجميع ذريتهم.

ويتوجب على الأمير المسؤول المباشر إخضاع الذين قاتلوا ميثاق السلام، وإرسالهم إلى الأرض المقدسة للدفاع عنها، والعمل الفوري لهذه الغاية ضروري، حتى لا يتجرأ آخرون، على تقديم المساعدة لهم،

وذلك خوفاً من العقوبة، ويبدو من غير المحتمل أن يقدم عن طواعية جميع الأساقفة والنبلاء العائدين لأي منطقة، على اقتراف مثل هذا الخرق، ومن الممكن — على هذا — أن ينقسموا ضد بعضهم بعضاً بوساطة المعلمين والمستشارين العائدين للملوك الآخذين بالسلام:«فكل مملكة منقسمة على نفسها سوف تتمزق ولن تدوم»، فهذا ما حدث عندما تحالف الامبراطور[فردريك الثاني] مع حزب المعارضة في كل مدينة من مدن لومبارديا رفضت طاعته، ودعا حزبه باسم حزب الغبلينيين، ودعا الحزب الآخر الذي وقف إلى جانب البابا باسم حزب الغولف، ولقد تمكن بمساعدة الحزب الذي تحالف معه، بكل سرعة، من إخضاعهما معاً، ويتضح من هذه الحادثة أن حزب الغبلينيين، الذي تعاون مع السيد الحقيقي،كان أعقل من الحزب الذي أخضع نفسه إلى البابا، وابتعد عن الخضوع وتقديم الطاعة إلى أميره.

وحدث أيضاً، منذ وقت طويل مضى، أن قام اللومبارد بسبب رعونتهم، وثروتهم، والدفاعات المتوفرة في مدخل بلادهم، بالانفصال، وبادروا بتهور إلى إعلان العصيان، وأنكروا الخضوع إلى الامبراطور، دون أن يتمكنوا من الحصول على استثناء قانوني، وبذلك خرقوا بشكل عنيف وجدي قانون السيادة اليولياني، ولقد استحقوا لهذا العدوان هم وذريتهم جميعاً العقوبة بمصادرة جميع ممتلكاتهم، وإذا ما غامر البابا، في ضوء جريمتهم العظمى بالدفاع عنهم ضد الأمير، الذي هو راعيه ومؤسس ومعطي جميع الميراث الوقفي الكنسي، سيبدو البابا وقتها — إذا جاز القول وجازت الكتابة — عاقاً، مقترفاً لجناية ينبغي أن ينال تجاهها عقوبة قانونية.

١١٩[74]: وسوف يكون متماشياً تماماً مع المنطق، أن يبقى السيد الملك بدون نشاط، ليمتلك الوقت من أجل إنجاب الأولاد، ومن ثم القيام بتنشئة أولاده وتعليمهم، وللتفوه بالأحكام، وليتولى شخصياً

فض القضايا الهامة، والتعامل مع المسائل الخطيرة، أو أن يأمر آخرين بالقيام بها، وأن يوجه الحملات من خلال توكيل أقرب القادة العسكريين إليه، وأكثرهم ثقة، وأن يجهز الجند، وأن يوفر الامدادات الضرورية والنافعة لمتابعة الحرب، وهذا واضح مما قاله الفيلسوف في كتابه«السياسة»:«الرجال ذوي الذكاء الوقاد هم بشكل طبيعي الحكام والسادة على الآخرين»، كما قال أيضاً في الكتاب السابع من«الفيزيك Physic »: «يصبح العقل الهادىء منطقياً وحكيماً»، وهكذا مكث القديس داود بدون نشاط، متمتعاً بالوقت من أجل التأمل، وأرسل بالوقت نفسه بني إسرائيل لمباشرة الحملات العسكرية.

ويمكن لقادة الحرب الذين أرسلوا وفق هذه الطريقة أن يقوموا بالحركات العسكرية بسرعة، وأن يبدأوا القتال بشكل مفاجىء، وأن يزحفوا ببراعة، يتنقلون من هنا إلى هناك بالنهار وبالليل لمضايقة العدو، وأن يعتمدوا إلى أبعد الحدود في الانفاق على أنفسهم من أسلاب العدو، ولا يمكن لملك عظيم أو أمير أن يفعل هذا، لأنه لا يليق به أن يذهب إلى الحرب لصالح قلة، فيهمل إدارة عدد كبير لا يقارن من الناس، وسيكون مؤذياً أن يقوم أمير عظيم من هذا القبيل بإهمال واجباته الادارية الهامة والكثيرة جداً، وأن يعرض نفسه للخطر، ولإمكانية الموت من خلال حادث مفاجىء من الحوادث، خشية«أنه عندما يصاب الراعي بتحريض من الشيطان تتفرق شياه القطيع».

ومن المفيد جداً للأمير عندما يرسل جيشاً إلى إحدى المقاطعات بهدف إخماد ثورة ما، أن يأمر، أنه إذا ما صدف ومات القائد، أو جرح، أو وقع مريضاً، أو بات عاجزاً بشكل ما آخر، بقيام آخر بالحلول محله على الفور: بدون شرط أو تراجع إذا ما كان القائد قد مات، لكن إذا كان عاجزاً فقط، يكون ذلك حتى يشفى.

وعلى القائد البديل متابعة النشاط على الفور، وفي الوقت المناسب،

تبعاً لخطة متفق عليها، ولسوف يكون عيباً قاتلاً في الأوضاع التنظيمية لجيش كبير، أن يبقى بدون نشاط ومشلولاً وممزقاً، بسبب عجز فرد واحد.

وقال بيوثيوس Boethius :«في هذا العالم يجري الحديث فقط عن المحاسن التي أمرت بها الطبيعة، والتي تخدمها»، ومثل هذا قال الفيلسوف:«مثلما العالم هو وحدة، من خلال وحدة المطلب الذي يستهدفه الجميع، والذي ندعوه بالمقام الأول باسم الرب، كذلك الجيش هو وحدة بموجب هدفه، الذي هو النصر، الذي يسعى من أجله قائد الحرب، والذي يتوجب على كل رجل في الجيش أن ينشده»، وكان مفيداً للأمير أن يوجه طاقاته نحو هذا الهدف، أي هدف الحصول على سلام دائم، لأنه في وقت السلم يمكن للناس أن يمتلكوا وقتاً كافياً، وحراً، وتاماً، للحصول على الفضائل وعلى العلوم، وقد بين الفيلسوف أن«الذي يطلب الحرب من أجل الحرب فقط هو الغاية في الشر»، والذي ينشد بتواضع النصر والسلام بوساطة قدرة الرب، وليس بوساطة جهوده، سوف يجد السلام في الرب، الذي هو كما قال الرسول:«يفوق كل عقل»[فيلبي: ٤ / ٧].

١٢٠ :إذا لم يمتلك أمير عظيم مثل ملك فرنسا سوى ولد واحد ليخلفه على العرش، لا يجوز أن يعينه قائداً لحرب خطيرة، من دون مواجهة خوف عظيم من إمكانية تعرضه لمكروه، لكن إذا ما جرى تعيين مثل هذا الولد الوحيد، عليه عدم مقاربة رعب الحرب من دون اهتمام وتفكر، وكأن لديه عدة أخوة، ولهذا ينبغي أن يتملك الملك وابنه البكر الوقت لانجاب الأولاد، وأن يجري تعيين الأبناء الآخرين والأخوة قادة للحرب، فقد قال الفيلسوف:«الشجاعة التي تجعل جميع الجنود رائعين وجيدين، وممتازين، هي الاقتراب من رعب الحرب، ومن تهديد الموت، من أجل الصالح العام، وليس من أجل صالح فرد فقط»،

وزاد على هذا فقال في كتاب «السياسة»:«إن أميراً يحكم من أجل منفعته الخاصة وليس من أجل المنفعة العامة ينبغي أن لا يدعى أميراً، بل طاغية»، لكنه إذا ما توجه بتواضع نحو الرب، وأراد من خلال قدرته، الصالح العام، أي سلامة الكومنولث وحده، فإن منافعه الخاصة ومصالحه سوف تتبع، مثلما جاءت جميع الأشياء الجيدة في العالم إلى سليمان، وكذلك الحكمة التي طلبها لوحدها من الرب.

[75] : لقد طرحت هذه المسائل مع وسائل اختزال الحروب في العصور الحديثةوجعلها أقصر مما كانت عليه من قبل، في كتاب«حول اختزال الحروب والدعاوى القضائية في مملكة فرنسا، وإصلاح أوضاع الكومنولث العالمي للمسيحيين»، فهناك كتبت هذه الاقتراحات، ليس بسبب أنني اعتقدت أنها تغطي كل شيء، بل من أجل إعطاء الرجال الحكماء والمجربين الفرصة لإنجاز عمل كامل حول هذه المواضيع والمواضيع المرتبطة بها، وقليلة هي الأشياء في هذا العالم التي صنعت بشكل جيد، حيث لا يمكن أن يخطط ولا ينفذ بكمال أكثر، ولا بطريقة موائمة أحسن مما نفذ، ولسوف يرى المولى الملك هذا، إذا ما توقف عن التفكير كم سيخفف عن نفسه وعن شعبه عندما يشن الحرب، إذا ما اتبع ونفذ الخدمة العسكرية التي هي حق له وفق الطريقة التالية، وليس وفق الطريقة المعتادة.

١٢١[76] : صحيح أن واجب الخدمة العسكرية من أجل الدفاع عن المملكة قد ألقي على عاتق الاقطاعيات الأكبر والأهم، فهذه الخدمة العسكرية هي الواجب الإقطاعي المعتاد، المفروض على كل من لديهم إقطاعات، أو بواسطة أناس آخرين مناسبين، ليس بشكل منتظم كل سنة، بل فقط عندما تتطلب الحاجة، ومسؤولية الدفاع عن المملكة هي مسألة لا تخص فقط المولى الملك، والذين بأيديهم إقطاعات مقابل مثل هذه الخدمة، بل تخص أيضاً الأعداد الكبيرة من الآخرين الذين بأيديهم

إقطاعات حرة غير مثقلة بخدمات خاصة، وهي أيضاً تخص — لكن ليس كثيراً جداً — كل الذين بأيديهم إقطاعات، هي في معظم الأحيان أقل قيمة، وهي أيضاً مثقلة بمبالغ تدفع سنوياً، وهذه المبالغ في كثير من الأحيان تساوي القيمة الإجمالية تقريباً للإقطاع سنوياً، أوتساوي نصف القيمة.

١٢٢: والدفاع عن المملكة هي أيضاً مسألة تخص رجال الدين الأدنى مرتبة بسبب امتيازاتهم المعتبرة روحياً ودنيوياً، وهكذا ينبغي استدعاء جميع المتوجب عليهم أداء خدمات عسكرية لمقصدين ولسببين، لهما وزنهما من أكثر من جانب، والمقصود بذلك هو أن عليهم أداء هذه الخدمة عندما تستدعي حالة الطوارىء، فهم قد نالوا ما بأيديهم من إقطاعات مقابل أداء هذه الخدمة، وكان السيد الملك آنذاك الذي منحهم إقطاعيات، قد منحهم إيّاها وفق هذا الشرط، وهو قد دافع — ومطلوب منه أن يدافع — عن كل واحد منهم، ضد أي واحد قد هاجمهم بقوة السلاح، ولذلك إنه لصالحهم تقديم كل خدمة متوجبة عليهم، لأنهم بدون ذلك لن ينالوا السلام، كما أنهم لن يحظوا بالوقت للتمتع بممتلكاتهم والحصول على محاسن العلوم وفضائلها،ولهذا عندما يقوم تهديد بحالة طوارىء، ينبغي استدعاؤهم أولاً، وإذا كان العون الذي عليهم تقديمه هو — أو يعتقد أنه — كاف، وقام الملك باستدعاء الذين ليس متوجباً عليهم شرف خدمته، يكون بهذا العمل قد سعى بالحري إلى إلحاق الضرر بهم، بدلاً من تقديم العون إلى نفسه، ويتبع هذا، إنه بموجب مواد القانون، يعد ذلك عدواناً لا يغتفر، ويصبح هو مذنباً بجرم عظيم، لأنه استدعى وتحكم بهؤلاء الذين كان من المتوجب عدم استدعائهم، لأنهم ليسوا خاضعين للتكليف.

١٢٣ : وإذا ما عمل السيد الملك وفق أفضل النصائح المتوفرة، عليه أن يقنع أن عون جميع الذين يدينون له بالخدمة العسكرية هي كافية،

ويمكنه أن يقوم بعملية استدعاء Levee en masse ، أي أن تقول العون الأول للذين بأيديهم إقطاعيات حرة، وإذا كان ذلك كافياً عليه أن يقنع، وإذا كان غير كاف، عليه استدعاء عون الشعب، أي جميع الذين يقفون خارج العلاقات الاقطاعية، إلى الحد الذي يرى فيه تقدير أمين أنه قد حصل على حاجته.

[77] : وإذا ما افترض أن موارد السيد الملك والاقطاعيين الآخرين الذين يدينون له بواجب الخدمة، مع الذين ذكروا أعلاه ممن بأيديهم إقطاعات حرة، سواء أكانوا يدينون له بواجب الخدمة أم لا يدينون، افترض أنها غير كافية من أجل الدفاع، وقتها في أحوال الضرورة للدفاع عن المملكة — وخروجاً على القانون — يمكن للملك أن يفرض ضرائب على ممتلكات الكنائس وعلى المؤسسات اللاهوتية، أو الاستيلاء عليها، وذلك بحدود ما يحتاجه من وسائل من أجل الدفاع الكافي، وهذا هو المصدرالنهائي والأخير الذي يمكن للملك أن يلجأ إليه، وكون كفايته واضح من حقيقة أنه نادراً — أو مطلقاً — ما جرى الاستيلاء على مثل هذه المساعدة من الكنائس ومن المؤسسات اللاهوتية، ومرد هذا إلى سبب أنها في أية مرة جرى الاستيلاء عليها، جاء هذا الاستيلاء مضاداً للموقف العام، وموقف القانون الكنسي وموقف القانون المدني، ولهذا يعد هذا العمل جناية عظمى، ما لم يتوفر قانون، يمكن بموجب فضيلته ومنطقه القيام بمثل هذا الاستيلاء، ولا يوجد هنا سوى قانون واحد فقط، وأعني به الضرورة الملحة للدفاع، وهذه الضرورة ليست حتمية، بمعنى أنها ضرورية من أجل أن تشرق الشمس، إنها مشروطة، بمعنى أن التغذية للحيوان شرط ضروري إذا ما أريد إنقاذه، وبقائه حياً، وهذا ما نقرأه في الكتاب الخامس من الـ Analytics في فصل«حول الضروريات».

١٢٤ : وبناء عليه إنه من حق الملك، ومن واجبه أن يطلب

الاستيـلاء على ممتلكات الكنيسـة من أجل الدفـاع عن المملكة، على أن يكون ذلك الملاذ الأخير، عنـدمـا يتبرهن أن مـوارده، ورديفهـا من الضرائب الاقطاعية ومن الـ Levee en Masse غير كافية من أجل المهمة، لكن دعونا نفترض أن مائة ألف مارك فضي كافية من أجل هذا الدفاع، وأن الملك سـوف يستولي على مائتـي ألف مارك، فهل يمكنه أن يفعل ذلـك دون اقتراف لجناية عظمى؟ مـن المؤكـد لا، لأنه عندمـا يتـوقف السبب تتوقـف المؤثرات، فجميع العلوم توافق على هذه النقطة وتضفي عليها الشرعية.

ونتيجة لما تقدم، عندمـا يصبح سبب الاستيلاء هذا غير شرعي، فإنه لا يجوز للملك الاستيلاء على شيء، ما لم يكن راغباً بشكل مكشوف أن يسرق وينهب، وبالمنطق نفسـه، إذا ما كـان بحاجـة إلى مائة ألـف مارك من الفضـة أو من الذهـب، وقام بالاستيـلاء على الأكثر، فإنه يكون قـد مارس النهب والسرقة، بكلمة مزيفـة وبفعل أخرق، عندما ادعي وجود حاجة ضرورية وهي لم تكن مـوجودة، وإذا ما فعل الملك هذا وهو على دراية كـاملة بواقع الحال، يعـدّ كـاذبـاً، وبسبب ذلك الكذب — الذي يحرمـه الرب — تنكر للـرب وصـار ابناً للشيطان، الذي هـو والد الكذب، وجميع الكذابين أولاده: مثلما يدعي الذين يقـولون الصدق — في هذا المجال — أبناء الرب.

وقـد تبرهن هذا في عـدد من نصوص الكتـاب المقـدس، خاصـة في الرسـالة إلى تيطس، ومن ثـم عـدّ ذلك قـانوناً شرعيـاً، وهكذا جـاء في السبب ٩، والسـؤال ٣ والفصل [٧٨]:« يفسـد الحكم بأربعـة طرق» وكـذلك في الفصـول التـاليـة، ومن الواضح إلى جميع المرتبطين بالإيمان الكاثوليكي، أن استخراج الضرائب فوق الحاجة جنايةعظمى، لا يمكن غفـرانها، مـا لم ترد الأموال المستخـرجـة لغير الضرورة، وإذا كـان هذا صحيحـاً بالنسبـة إلى جميع المال المستخـرج، إنه على هذا صحيح أيضـاً

بالنسبة للجزء، لأنه حسبما جاء في تحذير القانون المدني «هناك العلاقة نفسها بين الكل والكل كما هي بالنسبة للجزء إلى الجزء».

[78]: وواضح مما تقدم أنه صعب جداً بالنسبة للسيد الملك أن يحكم بإنصاف في قضية الضرورة هذه، وصعب بالدرجة نفسها بالنسبة لمساعديه ومستشاريه أن ينصحوه بشكل عادل حول هذه القضية، باختيار حل وسط تبعاً لحصص الهندسة الحقيقية وليس تبعاً لحصص الرياضيات.

وإذا ما قضى الملك بشكل صحيح في هذه المسألة، وقدم له مستشاروه نصيحة عادلة وصحيحة، فإنهم بذلك يفعلون خيراً وفضيلة، إذا لم يكن بعض الشّر قد أضرّ بهم من جهة أخرى، وبما أن الخير والشر شيئان متضادان، حسبما قال الفيلسوف، لايمكنهما التعايش والوجود في الموضوع نفسه، وبناء عليه يفسد شر واحد ويدمر جميع الفضائل العائدة للموضوع الذي وجد فيه، ولهذا قدّر الفيلسوف تقديراً عالياً ما قاله هرقل، وعبر عن ذلك بشكل جيد عندما كتب:« تضيء الفضيلة دوما عندما تكون المجريات صعبة جداً»، وأضاف قائلاً:«إنه بالنسبة لنا صعب جداً أن نكون جيدين»، وينبغي بالنسبة لناأن نلتزم بدون انحراف بالطريق الوسط، متجنبين الإسراف الشديد، والعوز، وأيد الفيلسوف هذا بإشارة مشابهة بقوله:«هناك مسلك واحد، هو المسلك المستقيم، الذي يأخذ السهم إلى هدفه، والخطوط التي تتشعب من الخط المستقيم، هي معوجة وهي غير محصورة العدد ،وقال إنه بناء على ذلك، أن يلتزم الانسان بالخط الوسط في ممارسة الفضيلة هو صعب بقدر صعوبة إطلاق سهم، يقوم بخرق الهدف، ولا ينحرف عن الخط المستقيم.

١٢٥ : وبعد لفت الانتباه الدقيق لما تقدم، ربما سيرغب صاحب الجلالة الملكية، لأن يقدّر، ولأن يحكم بعدل، بدون إلحاق ضرر بأي

إنسان، فيما إذا من الممكن إبداع وسائـل أخرى، يمكنه بها بشكل عادل وقانوني أن يستخرج بقوة من النـاس المتمنعين العون العائد لـ Levee en Masse ، وللكنائس.

١٢٦ : ومن البديهي أن السيد الملك، الـذي هو مسؤول بعمق أكثر، وبطرق أيضـاً أكثـر، لا بد له مـن الدفـاع عن مملكتـه، وعليـه أن يكون مستعـداً للدفـاع عنهـا عندمـا يهددها الخطـر، وأن يقـاتل ليس تقـديراً لمملكتــه فقط — كما فعـل أجـداده من قبل — بل كما يليـق برتبتــه، وبتقدمه، وبثروته.

١٢٧ : ومن الممالك، والـدوقيـات، والكـونتيـات، والبـارونيـات، والقـلاع، والاقطاعيـات الأخـرى، التـي استحـوذ عليهـا الملك في هذا الجانب[من الألب] في ماضي مئات السنين، منهـا جميعاً ينبغي أن يطلب على الأقل العـدد المقـرر من العساكـر المتـوجب على أوضـاعهم حسبما تقضي بذلك حقوقـه الاقطاعية، وعلى السيد الملك إجبـار كل واحد من أتبـاعـه الاقطاعيين والدوقـات والكـونتـات، والبـارونات، وأصحـاب القـلاع، والفـرسـان، وبشكل عـام كل واحـد يدين له بخـدمـة ثابتـة، إجبارهم جميعاً على تقديم هذه الخدمات وتأديتها دونما غش أو نقصان، وعليــه أن لا ينقص أو أن يتخلى عن أي جــزء من هذه الخدمــات أو إهمال فرضها، وذلك بغية معاقبة الذين تتوجب دعوتهم فقط من خلال Levee en Masse .

١٢٨ : غير أنه يحكى بأن السيــد الملك غير متفكر بهذا، وقــد أودع نفسه وأحكامـه بأيدي مستشاريه، الذين اعتاد على دعوتهم لمسـاعدته في الحرب، أحيــاناً على حســابه، هذا وينبغـي على هؤلاء الكونتــات، والبارونات، والفـرسان، والأتباع — بحكم وجوب تقديمهـم خدمات عسكرية — أن يقوموا بحملات على حسـابهم، وأن يسددوا تعويضات بخـدمات عسكرية مقـابل إقطاعياتهم فضـلاً عن هذا، يقوم الدوقـات،

والكونتات، والبارونات، والفرسان، والآخرون المتوجب عليهم تقديم خدمات عسكرية، يقومون غير راغبين بأداء الحملات وتقديم الخدمات وحدها، فاعتادوا على أن يأخذوا معهم، وعلى أن يستبقوا بخدمتهم آخرين كثر على حسابهم، في حين أن المتوجب على هؤلاء تقديم خدمات على حسابهم مستحقة عليهم، وفي هذا يتركون بدون عمل آخرين من الشجعان ومن النبلاء الأقوياء يكونون مسرورين بالقيام بحملات على حساب الآخرين لو جرى استدعاؤهم لذلك.

وفي ظل هذه المعطيات حدث مراراً، أن يقوم الفارس الذي عليه أداء خدمة عسكرية، بإرسال واحد من أولاده مع ثلاثة أو أربعة من الرجال، ويبقى هو شخصياً في مسكنه مع خيوله وسلاحه، ويقوم الابن الذي يتولى أداء الخدمة المتوجبة على أبيه، وعلى حساب هذا الأب، باستخراج مال يدفع له من فارس جار لأبيه، ليتولى أيضاً أداء واجباته عنه، وعلى هذا نراه قد عمل عوضاً عن نفسه وعن جاره، ونراه فيما بعد ينجح في وضع نفسه في خدمة مدفوعة لدى واحد من الكونتات أو البارونات، وكذلك على حساب واحد من النبلاء يقوم باستقباله، وعلى هذا تراه يقوم بتأدية واجب خدمة عسكرية مزدوجة عن كل من أبيه وجاره، وبذلك يحصل على أجر مضاعف.

وبمثل هذا التراخي والإهمال في الالتزام بالحقيقة، وفي التهرب من الخدمة العسكرية من قبل عدد كبير ممن يتوجب عليهم ذلك، وقيامهم في كثير من المناسبات باستهلاك نفقات الخدمات المدانين بها إليه، قام السيد الملك بفرض الـ Levee en Masse ، في حالات توجب فيها عدم الدعوة، وعدم الفرض، وبقيام الملك بغض النظر عن الخدمات المتوجبة، وبإيجاب الخدمة على الذين غير متوجبة عليهم، يثقل بذلك نفسه روحياً بشكل رهيب، ويثقلهم دنيوياً، ومثل هذا حدث بالادعاء بوجود ضرورة في قضية الكنائس، فبناء على ذلك الافتراض استخرج

العـون منهم، مع أن الحقيقـة معروفـة، حيث لم تتـوفر الحاجـة، أو على الأقل لم تكن حـالة الطـوارىء عظيمـة بها فيـه الكفـاية، وهكذا اقترف جناية عظمى باستخراجه العون بدون حاجة.

١٢٩ : فكيف على هذا، يمكن لأمير أن يستفيـد من الحرب، وكيف يمكنه الاحتفـاظ بالممتلكات التي صـادرها من أجل حـروبه، في وقت تجاهل فيه أحكام القانون والعادات، بقيـامه بظلم عدد كبير من الناس، وبالتخلي إلى الأثرياء — غير شـاكرين له، لعدم فهـم الأوضاع — عن الجزء الأعظم أو عن كـل الذي استخــرجــه مـن الفقــراء ؟ ومع أن الكنيسـة لم تدرك هذا كله، مع هذا عـدّت نفسهـا متأذية، فتـوقفت عن تقـديم صلواتها المعتادة لصـالح السيـد الملك، ومع أن الملك لم يتبع هذا الطريق برغبة ذاتية منه، بل اقتيد إليـه من قبل مستشاريه، يبدو لي أنه ما كـان له ليفعـل ذلك، بسبب أن عليـه أن ينجح أمــام الرب الذي يرى الجميع، ذلك أنه كان مهملاً، بـالأخذ بنصيحة رديئة، وأخفق في السعي وراء مشـورة صحيحة جيـدة، بالتنازل إلى المدانين له عما استخرجـه من الذين غير مــدانين له، وهكذا يتـوجب طلـب عـون الـ Levee en Masseوعـون الكنيســة، وتسلم ذلك، فقط عندمـا يسمـح مـذهب الاجراءات الموصوف أعلاه ويجري اتباعه.

١٣٠ [79] : وواضح مما تقـدم أن عليـه أن يسير وفق الخطة التـاليـة التي عليه تبنيها، لأن من المتـوجب وجود نظام في كل مكان(باستثناء في جهنم، حيث كما قـال القـــديس : لاترتيب، بل رعـب مقيم دائم — أيوب :١٠ / ٢٢)، فعندمـا توجد حـالة طوارىء، ولكي يتجنب الملك ظلم رعـاياه، عليـه أن يسعى أولاً للحصـول لنفسـه على مـا يكفي من العساكر الاقطاعية والتجهـز بهم، مثلما اعتاد أجداده على تزويد أنفسهم قبل حصولهم على دوقية نورماندي ومـا شابهها من الدوقيات الأخرى، والكونتيات، والبـارونيات، والاقطاعيات التي تم الحصـول عليها قبل

وصـوله إلى العرش، وإلى هؤلاء ينبغـي أن يضاف الضرائب الاقطاعيـة المفـروضة على المناطـق التي حصل هو عليها شخصيـاً في أثناء حكمـه، وعليـه بعـد هذا أن يجهـز من الاقطاعيـات التي سيتم عليهـا الحصـول الآن، مثلما سوف يفعل الدوقـات، والكونتات، والبـارونات، ويجهزون أنفسهم، لو أنها مـا زالت في أيديهم، وعليـه أخيراً ستـدعـاء الذين غير المتوجب عليهم تقـديم الخدمة العسكرية، لكن وفق طريقـة لا يبدو بها مضراً برعيتـه، ولامنزلاً الظلم بها، أي بطلبه عـونها في وقت لا حاجـة لذلـك فيــه، وعلى الانســـان أن لا يخاف من فعل الشر فقط، بـل من التظاهر بفعل الشر، وعنـدمـا يكون قـد استعـد بشكـل وافـر يمكنه أن يستدعي إلى حربه النبلاء، والكونتـات، والبارونات، وأية رجال آخرين مدربين.

١٣١ : وينبغي على الملك أيضاً أن يتنبه إلى جميع رعاياه الذين عليهم تأدية خدمـات مسلحة، أن يظهـروا مع العساكـر كلها من أجل ضرورة تأدية واجب الخدمـة العسكرية الملـزمين به، أي أن يجندوا وفق طريقـة، بحيث مـا من أحد يدخل في الوحـدة التي عليـه تأدية الخدمة فيهـا على حســابه الشخصي، أو أن يكون بدلاً عـن آخـر، وباتبـاع هذا الاجـراء، وباستخـدام كاف فقط لسلطاته العليـا والملكية، سـوف يكون مع الملك جميع — أوتقريباً جميع — نبلائه، ولن يستولي بوسائل الـ Levee en Masseعلى مـا اعتـاد أن يتنازل عنه إلى الذين عليهم تأدية خـدمــات مسلحة، وكذلك لن يثقل كـاهل الكنيسة، ولن يتوقف الناس عن تأدية صلواتهم المكرسة، بفضله وحده — وليس بقـواهم — الذي اعتاد قادة الجيوش على نيل النصر.

١٣٢[80] : وإذا مـا رغب أي إنســان في إدانة هذه الطريقـة في تعبئة جيش من الجيوش — لأن أجـداد السيد الملك لم يعتادوا في الماضي على فرض الخدمة العسكرية بهذه الطريقة — من الممكن أن نجد الجواب في

تحذير القانون المدني بقوله:«على الانسان أن لا يولي الاهتمام لما حدث في روما، بل لما ينبغي أن يحدث»وقوله ثـانية:«على الانسان أن لا يحكم بناء على الأمثلة، بل بمـوجـب الشرائع»، ويتماشى هذا مع مـا قـاله أستـاذ الفلسفـة الكبير، المعلـم سيغـر دي برابنت، الذي كنت تلميـذه آنذاك، وقـرره على قـاعـدة أرسطو في«السيـاسـة»:«إنه لأفضل بكثير أن تحكم الدولة بشرائع عـادلة، من أن تحكـم برجل عـادل مستقيم»، ذلك أنه لم يكن، ولا يمكن أن يكون هناك رجل مستقيم إلى حـد لا يمكن إفساده فيه بالغضب، وبـالكراهية، وبالحب، وبالخوف، وبالجشع، فهـذا ما نبهنا إليه قانون الشريعة في السبب ١١،السؤال ٣، الفصل[٧٨] بقوله:«يفسد الحكم بأربعـة طرق»، وكـذلـك بما قـاله في الفصـول التـاليـة، ووافقـه الفيلسوف عندما قال في كتاب «السيـاسة» المتقدم الذكر أعلاه:«حكمت في البـداية بعض الدول من قبل الملك، أي بإرادة شخص كـان السيـد بينهم، لكن بما أن الملـوك يعـاقبـون أصـدقـائهم بعقـوبات خفيفـة، وأعـداءهم بعقـوبات ثقيلة عندمـا يعتدون، من هنا انبعثـت الشقاقـات والحروب، ولهذا، ومن أجـل إنهاء هذه الشرور بـدأ الناس يحكمـــون بشكل أكثر عمومية بوساطة القوانين والنظم التي لا توفر أحداً.

١٣٣ : ومرة أخرى الناس في هذه الأيام أكثـر شرهاً وسوءاً مما كانوا من قبل، وأكثر دهاء وبراعة في المكر،وقد قـال الفيلسوف في«السياسة»: « يفكر الـرجل الحكيـم الذي استسلـم إلى الشر، بمختلف أنـواع الشر، ويمارسها».

١٣٤: وقال ثانية في الكتاب نفسه:«تبلغ العداوة أسوأ أوضاعها لدى اللجـوء إلى السلاح»، أي سـلاح الحكمـة، وجاء في مـدونة الامبراطور جستنيـان:«لايوجـد أسـوأ من إنسـان حكيم استسلم إلى الشر، فهـو لا يمكن نصيحتـه»، ولهذا من التـدبير الحسن اللجـوء إلى وسـائل معـالجة جـديدة ضد الأعمال الشريرة للناس المتـوجب عليهم القيـام بخدمـات

عسكريـة، لكنهم لا يقـــومـــون بها، مما يلحق الضرر الكبير بـأميرهم الرئيسي وبالعـدد الأكبر من أتباعهم، ثم إن هذه الخطيئة العظيمـة، التي سوف يصدر عنهـا كثيراً من الذنوب، والأخطاء، وأعمال الظلم، سوف تتوقف في المستقبل، وسيتم أيضـاً محق العدوى المهينة لهذه الخطيئة، التي أصابت عدداً كبيراً جداً من الأرواح، بمـوافقة من السيد الملك، ورجال الديـن والشعب، وسيكون هناك بعـض التعـــويض للمظلـومين ، لكن ليس للظالمين.

١٣٥[81]: من إيقـاف الخدمـة العسكرية، عندمـا تبدو الحاجـة أنها قامت لذلك، ومن توفر الحاجة إلى إنقاص عيار العملة في المملكة، التي يتسلم كل إنسان في المملكة بها دخله، فإن الأكرية سوف تفقد في البداية ربع قيمتهـا ودخلهـا، ثم الثلث، وبعــد ذلك النصف، وأخيراً الثلثين، ولقد حسبت أنا كاتب الرسالة الحاليـة، وعرفت من خلال تناقص سعر العملة المستمر، أنني قد فقدت على الأقل خمسمائة ليرة تورية، وكان هذا بعـد الشروع بإنقاص عيـار العملة، وإذا مـا قدرنا كل شيء، أعتقـد أن السيـد الملك قد فقـد، وسـوف يتابع الفقـدان والخسـارة بإنقاص عيـار العملة أكثـر بكثير مما حصله من منـافع أويمكن أن يحصله في المستقبل، وبسبب إنقاص عيـار العملة هذا، ارتفعت أسعـار الحاجيات كثيراً، إلى حـد أن الأسعار ربما لن تنقص وتعـود إلى المستوى القـديم، ومن أجل التعـويض على الناس الذين عـانوا من هذه الشـدائـد العامـة، يتـوجب معاقبـة الذين خططوا، وصنعوا، ونفذوا مثل هذا الحل، وأنقصـوا عيار العملة مراغمة لجميع مبـادىء وقواعد القانون، وأيضاً مـراغمة لعادات مملكة فـرنسـا التي تبرهن أنها ظلت بـلا خـرق منذ مـا قبل مـا يستطيع الناس الأحياء أن يتـذكروه، وسيكون مفيداً لفت انتبـاه صاحب الجلالة إلى هذه المسألة: ذلـك أن التجـاهل بلاهة وغبــاء، ولايمكن مطلقـاً أن يكون تسويغاً مقبولاً للخطيئة، لأن الجريمـة الكبرى موجودة على معيار

مع نية شريرة.

وفي الحقيقة، هناك لـوم عظيم بالبقاء جـاهلاً بما يعرفه الجميـع بلقبه، وذلك حسبما حذرنا القانون المدني، وأنـا لا أعتقد أن إنساناً بعقل سليم يمكنه — أو ينبغي -- أن يعتقـد أن الملك كـان سيقـوم هكذا بتغيير نقوده وإنقـاص عيارها، لو اعتقد أنه سيصـدر عن ذلك مثل هذا القدر من الشرور، ثم لأنه نشأ وسط رفاه عظيم، وثراء كبير، واعتاد دوماً على ذلك، لايمكنه أن يدرك شخصيـاً تمامـاً النقص والحاجة، وأنواع العـوز والفقـر التي لا تحصى، وهـو على هذا مثل الذين عـاشـوا زمناً طويلاً دون المعاناة مـن أي مرض، ولهذا ليس لديهم ميل للخـوف من أسباب المرض ومن مصادره، لأنهم لم يتذوقوا الطعم المرّ للمرض.

ولقـد قـرأنا عن عـدد كبير من الأمـراء الذين حصلوا على الخبرة، بتجريب جميع ألـوان الحياة من أجل ا لوصول إلى معـرفة أحـوال العالم وأوضاعـه، وصحيح ما قاله الفيلسـوف أن«الحكمة الدنيـوية» التي أكد أنها ملكة جميع الفضـائل الخلقيـة، لأنها تتضمنهم جميعـاً«نحصل عليهـا بالتجـربة»، لكن هناك حـاجة إلى وقت مـديد للحصـول على الخبرة في الشؤون الانسانيـة، وعلى هذا خلص إلى القول بأن ما من عقل صحيح يختـار الشبـاب قـادة، بسبـب أنه لم يعـدّهم حكماء، لأنهم لا يمكنهم الحصول على تجربة واسعة ومعرفة كبيرة في وقت قصير.

١٣٦[82]: ولهذا إنـه على الملك أن يـدرك وأن يتـأمـل ميـــــول مستشـاريه، نحـو فـرض الخدمـة العسكرية، وكيف أنهم يقـومـون سراً بشطبهـا عن الذين يتـوجب عليهم القيـام بها، ويستخـرجـون مـا ليس ضرورياً من خلال الـ Levee en masse ومما فرض على الكنيسة، ومن آخرين، مـا كان من المفترض استخراجـه من الذين عليهم واجب أداء الخدمة العسكرية،وعليه أن يبحث عن الذين أغنوا أنفسهم بوساطة هذه الاعفاءات، وعن الذين مع أنه متوجب عليهم القيام بحملات على

حسابهم، وأن يؤدوا خـدمات عسكرية مقابل إقطاعياتهم، قاموا بحملات على حساب جيرانهم الذين بقيوا في مساكنهم، وعن السادة الذين دعوهم لاكمال تعداد مقاتليهم، وبعدما حصلوا على كثير من المال بهذه الطريقة، وبعدما أثروا أنفسهم من أثاث الفقراء، عادوا أخيراً إلى نسائهم، ومن الطبيعي أن أمثال هؤلاء الناس يرغبون بأن يقوم الملك دوماً بحشد جيش كبير، وإذا ما أراد السيد الملك التحري بدقة حول صدق الأمور المتقدمة الذكر، سوف يجد أن هذه الممارسات قد طبقت.

ولا أريد أن يعرف بأنني حرضت على القيام بمثل هذا التحري، بسبب أنني أعتقد أن ذلك إذا ما بات معروفاً فلن أنجو من التآمر ضد حياتي شخصياً، وأنه سوف يجري التأثير بشدة على أصدقائي ليكونوا ضدي، ومع هذا أردت عرض هذه القضايا وإثارتها، آخذا بمذهب الفيلسوف الذي قال:«على الذين يؤمنون بالصدق أن يلتزموا بقوة ويقرب بالصدق، وليكن ذلك أكثر من الصداقة»، وكذلك بمبادىء الانسان العاقل اللذين هما مبدآن: أولهما أن لا يتكلم بشكل زائف عما يعرفه، والثاني أن يكون قادراً على كشف الذي يتكلم بشكل زائف»، وقد قرأنا في القانون:«أن تعاني من الذل في سبيل الصدق أفضل من نيل المنافع عن طريق النفاق».

ومن المؤكد أن جميع الذين يزيفون من أجل ضرر آخرين، يقترفون إثماً عظيماً، وهم أبناء الشيطان، وهم ينكرون الرب بأعمالهم، مثلما قال الرسول وأكد بأنهم مثل الذين يعترفون بأنهم يعرفون الرب، لكن ينكرونه بكل عمل شرير من أعمالهم، وعلى العكس يدعى جميع الذين يقولون الصدق، بأبناء الرب، وبما أنني محامي استئناف لقضايا الملك،ومرتبط به باليمين، سوف أعدّ نفسي مقترفاً لذنب عظيم، لدى سكوتي عن حقيقة ما تقدم بالنسبة للضرر الروحي والدنيوي لمولاي وللعدد الذي لا يحصى من رعاياه، لأنه كما قال

الفيلسـوف:«الشجاعـة»التي هي فضيلة نبيلة، وتليق بشكل خـاص بالأمـراء، وبالفرسـان هي:«الهجوم على الأوضـاع المرعبة، حيث يتـوفر التهديد بـالموت، وذلك من أجل الصالح العـام»، وقد جـاء في الكتاب المقـدس:«حينما يحفظ الـرجل القـوي بلاطه، تكون جميـع الأشيـاء التي يتملكها بسلام»[لوقا : ١١ / ٢١ — بتصرف].

١٣٧ : الذي وقع في الماضي لا يمكـن إعـادته، وذلك حسبما قـال القـانون:«ما أن تتقـرر القضـايا لا يمكن إعادة فتحهـا من أجل خـاطر العـدالة»، وينبغي على كل حـال على السيـد الملك أن يفهم الماضي وأن يتعلم منه، وعليه أن يتبنى سياسة جديدة حتى لا تتكرر المخالفات التي ورد ذكرها أعلاه في المستقبل، وعليه شخصياً، بناء على نصيحة الكنيسة وأعقل مستشـاريه، أن يعـد بتعـويض رجـال الدين والشعب،فبـذلك يقنعهم بعدم متـابعة إيقـافهم تزويده بصلواتهم الحارة، وبذلك سيتمكن من إنهاء غضب الرب، حيـث أننا نقـرأ في القـانون:«الخوف من الاثم دليل على قلب جيـد، حتى حيث لا يوجـد إثم»، وإذا مـا ابتغى أمير الحصول على الحكمـة وسعى من أجلها، في سبيل حب خالقـه، وإذا ما كـرس جميع طاقـاته من أجل تقـديم العـدالة في وقتها، وإذا مـا مـارس الرقابة على قضاته من أجل البت بالقضـايا بسرعة وبعدل، وبذلك يوفر برحمة على رعايـاه الأذى، والاضطرابات والنفقات،وقتهـا سوف يكون مثل سليمان، الذي تلقـى جميع خيرات هذه الدنيـا، مع هبـة الحكمـة الحقيقية والعدل، ولسوف يتحرك الناس نحو غفران جميع الأخطاء التي عانوا منها.

وسيكون مثل هـذا الحل مـرغـوب به كثيراً، لأنـه سيكون من غير الممكن التقـدير تماماً مـدى الضرر الذي عـانى منه كل واحـد من التجاوزات التي ورد ذكرها أعلاه، وأعتقد بشكل أكيد أن رجال الدين والناس بشكل عـام سوف يكونون على استعـداد للمـوافقة على إجـراء

يقوم بموجبه السيد الملك — من أجل خلاصهم — بتكريس جميع ما استخرجه من رعاياه فوق واجباتهم، من أجل مصلحة الأرض المقدسة، وذلك ما يعادل جميع الأضرار التي ألحقها بهم بإتباعه آراء الآخرين، ومن السهل الحصول على موافقتهم بالدعوة إلى حمل الصليب، مع منح الغفران المطلق من السيد البابا.

١٣٨ : ويمكن أيضاً للسيد ملك إنكلترا، والأمراء الآخرين، والأعيان، والذين سوف يعبرون إلى الأرض المقدسة، أو يرسلون آخرين إليها، يمكنهم أن يسعوا من أجل تسوية مماثلة، وأن يضعوها قيد التنفيذ، وليكن ذلك مع جميع الذين لهم ديون عليهم لم تتم تسويتها، والتي هي غامضة، أو غير محددة لأي سبب آخر، ووفقاً لقواعد إيماننا، لايمكن غفران ذنب من الذنوب ما لم تتم إعادة ما سلب، وإذا كان الذين سيذهبون للقتال من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، كانوا مثقلين وموسومين باحتفاظهم بممتلكات الآخرين، ولهذا واقعين في شرك ذنب عظيم، فإن ذنوبهم سوف تعيق أعمال الآخرين الجيدة.

ولهذا يتوجب على التائب الحقيقي والمعترف، أن يقوم قبل كل شيء بالانفاق هناك لصالح المدان لهم، وأن يسدد لهم كل ما يطلبون تسديده، وبهذه الوسيلة يمكن لكل إنسان أن يمتلك الغفران، وبذلك سوف تكون جهود الجميع مؤثرة وقتالهم فعالاً، وسيمكن وقتها إزاحة العدو القديم وطرده، وهو الذي يمسك بيديه بسجلات مثل هذه الآثام ويحتفظ بها، ويؤخر ويعيق محوها بقدر ما يمكنه، وذلك خشية أن تنجو الأرواح من مصائده، وإنني أعتقد بشكل جازم أن كل إنسان سوف يصغي إلى الوعظ المرتبط بالغفران البابوي سوف يغفر للسيد الملك كل ما يدعيه ضده.

وإذا ما وجد هناك أي واحد أراد أن يقلد فرعون بقسوة قلبه،

وسـوف يرفض التخلي عن ادعـاءاته، على أساس أنه يستحـق تعويضـاً أعظم، على القضاء الملكـي المحلي الموجود لهذه الغاية، مـع محاكم أخرى يجري تعيينهـا للقيـام بهذه المهمة، عليهـا القيـام بتسجيل أسماء المدعين، وبمطالبهم، وبالأسباب، وبذلك يمكن القيام بتعويضهم بقدر ما يكون ذلك مرضياً وعادلاً، وينبغي عدم إرغام أحد من الناس على التخلي عن دعواه من أجل تقديم العون إلى الأرض المقدسة.

١٣٩[83]: كـان جند المملكة الفـرنسيـة حتى الآن، ومن المفترض استمـرارهم بأن يكونوا، الحقيقـة الدائمـة في استرداد الأرض المقـدسـة والحفـاظ عليهـا، ولايمكن لهذه القـوات البقـاء هناك إذا — لا سمح الرب — ما مـات الملك، مثلما حدث للقـديس لويس، أو أن ينتقل إلى الرب أثناء الزحف، أو أن يعـود إلى الوطن لسبب مـا، ولهذا ارتأيت أنه سيكون من الأفضل، والمرغـوب به، بقـاء الملـك وابنه البكر في الوطن، لامتـلاك الوقت من أجل إدارة المملكة، ولانجـاب الأولاد، ولتربيتهم وتدريبهم، ومن أجل تجهيز النجدات السنوية لإرسالها عبر البحر، لدى توفر الحاجة لذلك، وبسبب أعمال الاستيلاء التي تمت الإشارة إليها من قبل، وكثـرة وتنوع واجبـاتها الادارية، سوف يكون مفيـداً للسيـد الملك ولابنه البقـاء طويلاً في مملكتهما، والموت فيها، بدلاً من الوفـاة في أرض أجنبية، وينبغي عليهما إنجاب أولادهما في المناطق المجاورة لباريس، من أجل أن يلدوا هناك، وهناك يتربـوا، لأن من المعـروف أن تلك المنطقـة واقعـة في ظل مؤثرات أجسـام سماوية أكثـر فـائدة من أي مكان آخـر، ولهذا السبب، حسبما لوحظ في الماضي، إن الرجـال الذين تمّ الحمل بهم هناك وولدوا كذلك هناك هم أفضل تكويناً، واختصاصـاً، وموهبة، من أي من الذين ولدوا في مناطق أخرى.

١٤٠ : وسـوف تكون خطة جيـدة أيضاً، عندمـا تتـوفر الحاجـة، أن يقوم الملك بتـوجيه حملته، بقيادة الجيش من خـلال شخص أخ آخر له،

أو من خلال ابن أصغر له، من أجل أن يتجنب إمكانية تقصير حياته، وذلك في ضوء الحوادث والأسباب التي سرّعت موت أجداده الثلاثة الأواخر(١)، فعلى مثل هذا الأمير عدم تعريض نفسه لمخاطر الصدف والحظوظ، ولا يمكنه القيام بحملة من دون كتلة كبيرة من العساكر، كما لا يمكنه تحريك قواته والزحف بسرعة مثل الآخرين، الذين يعملون أحياناً ليلاً ونهاراً، ثم إننا لا نمتلك في الأرض المقدسة، لا مدناً ولا حصوناً،ولا أماكن أخرى معدّة، حيث يمكن فيها الإتقاء من أشعة الشمس المحرقة، وأشعة المريخ والنجوم الأخرى، والاحتماء من المناخ المتقلب الذي لن يكون موائماً لهم البتة.

١٤١: وقد يعترض إنسان فيقول :«إنك بهذا تعيق تقدم الأرض المقدسة»، وله أجيب قائلاً: لن تكون هناك إعاقة، ما دام السيد الملك سيكون قادراً، وسوف يطلب إرسال جيش كبير مع أخوانه أومع ابنه الثاني، وكأنه هو شخصياً سيذهب، ويمكنه أن يرتب استلام عدة قادة الإمرة أحدهم بعد الآخر، وذلك إذا ما مات أحدهم، أو أصيب بالعجز لسبب ما، فوقتها يمكن لآخر أن يتسلم الإمرة على الفور، وسيطيعه الجميع وكأنه الملك بذاته، ويبدو أنه لن تكون هناك مخاطرة ظاهرة إذا ما ذهب ملك إنكلترا، أو ملك آخر إلى هناك، خاصة الملوك الشيوخ الذين توقفوا إلى أبعد الحدود عن إنجاب الأولاد، وإذا ما مكث السيد ملك فرنسا في الوطن، يمكنه أن يتولى تجهيز فرق العساكر الموعودة، المكونة من كل من الرجّالة والفرسان، وتقديم السلاح أيضاً وفقاً لطلبات وتقديرات قادة جيشه، ومن الصعب على الملك الذي ولد في قصر فخم، ونشأ في مناخ معتدل، أن يتحمل مشاق الحملات،

---

١ — توفي لويس السابع بالاسهال في سنة ١٢٢٦، أثناء عودته من حملة صليبية ضد الألبينيين Albigensians ، وتوفي لويس التاسع بالطاعون سنة ١٢٧٠، عندما كان محصوراً في معسكره في تونس، وسقط فيليب الثالث نتيجة إصابته بالحمى في سنة ١٢٨٥ أثناء حملته ضد بدرو الثالث صاحب أراغون.

في أراض متغيرة الأنواء، وبذلك يتعرض — من دون حماية كافية — إلى أشعة الشمس المباشرة،وإلى الأجسام الأخرى، ولم أذكر أنني قرأت عن أي أمير قام بحملات في بلدان أجنبية أو نائية غير شارلمان الذي قام بحملات شخصية لمدة مائة عام وأكثر، وبذلك لم يكن له نظير، فبعدما حصل على البراعة في القتال من خلال الخبرة الطويلة، تقدم كثيراً خلال الاثني عشر عاماً التي أمضاها امبراطوراً للامبراطورية الرومانية، وكان ذلك أكثر مما عمله خلال الأربعين سنة المتقدمة، وذلك حسبما تشهد على أفاعيله أكثر من منطقة.

١٤٢ : على الملك أن يقوم بشكل خاص باستعراض الماضي، واستباق الحاضر وتوقعات المستقبل، أي مستقبل أوضاع المملكة، ومعرفة أي السبل يرغب في اختياره، بين جميع السبل النافعة والمتوفرة لديه، من أجل الحملة إلى الأرض المقدسة، ومن أجل مملكته، وذلك وفقاً للخطة التي تم عرضها هنا، وينبغي استكمال هذه الخطة وتعديلها من قبل أكثر مستشاريه وأعيان دولته حكمة وعقلاً، وعليه أن ينتهز الفرصة، التي توفرت بسعادة له وبوساطة الخطة المتقدمة الذكر، وأن يناضل في سبيل سلام ثابت ودائم في جميع أرجاء الكومنولث المسيحي، وذلك وفق الطريقة المقترحة، أو وفق طريقة أخرى أفضل، وعليه القيام — بعد الحصول على موافقة البابا وجميع الأمراء الآخرين — التلطف في السعي الحثيث في أن تكون الارادة الطيبة وسلطة الكومنولث الكاثوليك المطيعين للسيد البابا، موجهة نحو الاسترداد السعيد للأرض المقدسة والحفاظ عليها، وكذلك الاستيلاء على امبراطورية القسطنطينية، وأن يتقرر الوصول إلى الهدف المنشود بكل سرعة تحت قيادة الرب قائد الجيوش كلها.

ملحق

رأي واحد يحث ملك فرنسا للعمل على الاستيلاء على مملكة القدس، وقبرص، من أجل الثاني من أولاده، ومن أجل غزو مملكة مصر.

١: قال الرسول:«كل عمل من أعمال المسيح ينبغي أن يكون من أجل تعليمنا، وكل ما تقدم فكتب كتب لأجل تعليمنا»[روما : ١٥ / ٤، ثيموثاوس : ٣ / ١٦، بدمج وتصرف]، ونقرأ في السفر الأول من أخبار الملوك، أنه عندما طلب شعب إسرائيل — الذي أحبه الرب أكثر من غيره من الشعوب — من الرب أن يعطيهم ملكاً، أعطاهم الرب شاول ليكون ملكاً عليهم، فتشامخ برأسه وكتفيه فوق جميع الشعب،وقد عرف الرب أنه لن يكون مطيعاً له، ولهذا السبب لن يعيش ملكه طويلاً، ويبدو أن الرب قد تحرك لإختياره من أجل أن يعطينا حجة واضحة من أجل توجيهنا، أي عندما يتوجب اختيار ملك، قد نقوم نحن الذين نجهل حوادث المستقبل بين الناس، والذين في أذهاننا، التميز الرائع، والتقوى المفترضة والكامنة في السمات الحسنة، قد نقوم باختيار وتسمية شخص مماثل للملكة العظمى للقاهرة ومصر، التي تدعى مملكة الآشوريين، ونترك الباقي لإرادة الخالق وترتيبه، فهو الذي يعرف جميع الأشياء من البداية، ومثل هذا الشخص هو المولى فيليب، الابن الثاني ولادة للمولى ملك فرنسا، وسيبدو أمراً بعيداً عن السعادة إذا لم يدع لتسلم واحد من المناصب الشرفية لهذا العالم.

وبما أنه كتب في القانون:«ينبغي أن لا يأخذ إنسان الشرف لنفسه، بل ليأخذ ذلك الذي يُدعى من قبل الرب، مثلما كان هرون»، وقد ارتأى واحد من محبي سلامة الكومنولث المسيحي كله، أن فضائل العالم المذكورة أعلاه، وفضائل أخرى كثيرة، ينبغي أن توضع قيد الاستخدام، لأنها تساعد كثيراً، وهي مرئية بشكل طبيعي، فهو قد وضع الصالح العام قبل سلامته، ومربحه، كما سوف يظهر من كتاباته الكثيرة، فبعد التأمل في هذه القضايا، وتقليبها في ذهنه، قد رغب في عرض أفكاره

وتقديمها، بسبب قلقه من أجل الملك المذكور، ومع تجنبه الأطناب، رغب في الوقت الحاضر أن يكتب باختصار، وأن يبرهن بشكل مقنع ضد أي خصوم، بأن السيد الملك يمكنه بسهولة تشريف ابنه الشريف وإغنائه، وجعله أعلى من جميع الناس الأحياء من دون أن يؤذي أحداً من الناس، وأن يتجنب بالوقت نفسه اقتراف ذنب عظيم، كما ينبغي أن يفعل في كل نشاطاته.

٢ — ومن المعروف بشكل جيد أن مملكة عكا شاغرة منذ وقت طويل، ذلك أن كونت دي إيو هو المتوقع، وقد أهمل هذا الكونت وأجداده قد أهملوا الآن ومنذ وقت طويل حكم هذه المملكة، ولذلك السبب يمكن القول بأنهم فقدوا الحق في مواردها، لكن لتجنب أي شك، يمكن للملك أن يسأل الكونت، الذي لن يخيبه، بل إنه سيتنازل لابن الملك عن أي حق من حقوقه، إذا كان لديه أية حقوق، وهو أمر يعتقد بعدم وجوده، ولدى اكتمال التخلي،يمكن للملك أن يتدبر مسح ابنه وتتويجه ملكاً من قبل البابا، ومن الممكن أن يتنازل له سراً عن ملك عكا، والقاهرة، ومصر وآشور، ما لم يكن السلطان على استعداد لإعادة الأرض المقدسة إلى الكنيسة الرومانية والتنازل عنها بشكل سلمي، وأن يشمل التنازل التخلي عن الإشراف القضائي على سكانها، مع ثمن وارداتها ومنتجاتها التي حصل عليها بشكل غير عادل.

ولدى الفراغ من هذه الترتيبات، أو عندما يبدو أنها سوف تترتب بشكل جيد، على السيد الملك أن يسعى، لابل أن يبذل غاية جهده من أجل عقد مجمع يضم الأمراء الكاثوليك والأساقفة، من أجل العمل على استرداد الأرض المقدسة، والمحافظة عليها، وإيجاد حكومة جيدة لها، ولاتخاذ قرار حول هذه الأمور، ولوضعه قيد التنفيذ باتخاذ جميع الاجراءات اللازمة لذلك، وينبغي تبني هذه الإجراءات، ليس فقط حسبما وضعت في الرسالة إلى البابا، والتي أرسلت إلى الملك في شينون

أثناء الاحتفال الأخير بصعود الرب، بل يبقى من الأفضل بكثير ما يراه السيد الملك أنسب للتبني بناء على نصيحة الرجال الحكماء والمجربين.

٣ : بالاضافة إلى المقترحات الواردة في الرسالة المشار إليها، يبدومن الموائم، في ضوء الادعاء الذي يدعيه ملك صقلية بالنسبة لمملكة القدس بحجة شرائه حقوق الأميرة مريم المقدسية، تأمين تعويض كبير يخصص له من قبل المجلس، مقابل ادعائه ونفقاته، وينبغي أن يكون هذا التعويض مناسباً مع أنه قد قيل، بأن بارونات المملكة يرون بأن بيعاً من هذا القبيل كان غير قانوني، وأن الحق بالمملكة يعود إلى ملك قبرص.

ومن أجل الصالح العام للعالم كله، من المفيد دمج طائفة الاسبتارية بالطوائف الأخرى التي وجدت لمصلحة الأرض المقدسة،في طائفة واحدة، باستثناء الداوية ، ومن المتوجب تأجير جميع ممتلكات الداوية في الأرض المقدسة وقبرص إلى المستأجرالذي يدفع أكثر، مقابل أجر دائم، وينبغي إقناع ملك قبرص بالانضمام إلى الطائفة المقترحة، وأن يتخلى لها عن جميع ممتلكاته، ولاسيما ادعائه — إذا كان له أي ادعاء — بالحق في مملكة القدس، وينبغي إحلال طائفة رهبان عسكرية ملكية محل الطوائف المذكورة، وأن يوضع ملك قبرص في القيادة، حسبما ورد في الرسالة المشار إليها، وأن تؤول القيادة من بعده إلى أي ملك كاثوليكي للقدس، هو من أفراد الطائفة، ويتوجب على مثل هذا الملك — بناء على توجيه من البابا ومن ملك فرنسا — أن يستخدم جميع قواته من أجل تقديم العون إلى ملكي القاهرة، وعكا والملوك الكاثوليك الآخرين، في الحروب ضد جميع الكفار والمنشقين، وعليه أن يقدم سنوياً حساباً حول المبالغ المتبقية، أي أية مبالغ زائدة عن نفقات الطائفة الملكية، وبذلك لن يثقل رهبان الطائفة — مثل يهوذا المجنون — الذين لديهم أكياس مال، وكاهل الطائفة، وكذلك من أجل تجنب إلحاق الأذى بكومنولث المسيحيين، والملوك المذكورين، وأيضاً عدم إثقال

الممتلكات الصحيحة المكرسة من أجل حفظ الكومنولث وبقائه.

٤ : وأما بشأن الممتلكات التي قيل بأنها عائدة إلى الداوية، أي بضائعهم القابلة للتحرك، ودخولهم، ومستحقاتهم بالنسبة للسنوات الخمس أو الست المقبلة، فمن الممكن أيضاً تكريسها لمساعدة الطائفة الجديدة، ومن الممكن مضايقة السلطان بوساطة مائة غليون أو أكثر مع قوة مناسبة من الجنود المجهزين بشكل جيد، وأيضاً حماية البحر، ويمكن أيضاً بذلك مضايقة المناطق القريبة من البحر وإفقارها، وهي المناطق التي قيل بأنها تمتد ما يساوي رحلة ثلاثين يوماً، وبهذا العمل لن يتمكن السلطان من مقاومة الحملة العامة التي سوف تأتي، وفي الوقت نفسه، بما أن الأعداء سوف يكونون من دون المساعدات التي تأتيهم عبر البحر، ومن دون البضائع التي اعتادوا على تلقيها بوساطة الماء، وقتها سيكون بالإمكان — بعون الرب — هزيمتهم بكل يسر وقهرهم ، ويقول الفرسان المحنكين والعقلاء من الذين ولدوا في تلك المناطق، والذين هم على دراية بأحوال القاهرة ومصر، وسكانهما، سيقولون بعد تفحص دقيق لهذه الخطة، بأنها خطة ممكنة.

٥ : ويبدو مفيداً — مع نصيحة المجمع — القيام بتدمير طائفة الداوية كلياً، ذلك أن محصلات العدالة تقضي بحلها تماماً، وتكريس ممتلكاتها لصالح الحملة العامة حسبما ورد أعلاه.

٦ : يبدو أنها مسألة صعبة، إحداث ترتيبات دائمة حول تملكات أراضي من هذا النوع بعد الحملة، مع تجنب النزاعات والخلافات بين الأمراء المحليين، ويبدو من المفيد بالنسبة للوقت الحالي، بعد تقرير قيمة مثل هذه المناطق القيام بعرضها للايجار بشكل دائم، وينبغي إيداع ريع الايجار الذي يأتي من هذه الممتلكات في أماكن خاصة، فعندما تهدد حالة طوارىء ملوك مصر، وعكا، والقدس، أوأي ملوك كاثوليك آخرين خاضعين بتقوى للكنيسة الرومانية، ينبغي اختيار عساكر

مناسبين في كل مملكة، ومقاطعة أو إقليم، ويتوجب تزويد هؤلاء الجند من الأموال المذكورة أعلاه بأسلحة جيدة، وبوسائط نقل تتوافق مع رتبهم، وهم في حالة ابتهاج مع الأبواق ومع عتاد مناسب، إرسالهم إلى الأرض المقدسة، أو أية مناطق أخرى عبر البحار، مع تمويل كاف لرحلتهم، وبالنسبة لممتلكات العساكر الذين يموتون أثناء الزحف أو خلال حملة عسكرية، ينبغي أن تكرس كاملة إلى الأحياء، وبذلك يمكن الاستمرار في تحويلها لتستخدم لصالح الحملة.

وسوف يجمع الملوك الشرقيون بوساطة هذه الخطة — إذا ما عاشوا بسلام لسنوات طويلة، ثروات كبيرة جداً على هذا الجانب من البحر، في قبرص وفي أرض الميعاد، فإذا ما قامت حالة طوارىء، وقتها لن يعانوا من قلة المال، بل على العكس سوف يحصلون من كل منطقة للداوية فيها ممتلكات، على نجدات تتكون من حشود كبيرة من المقاتلين الشجعان، ومن كميات هائلة من السلاح، وينبغي أيضاً أن يتم الاتفاق بين الملوك المعينين حديثاً بمساعدة أحدهم الآخر بعدد محدد من المحاربين، وبحصة من أساطيل كل واحد منهم، وعليهم أيضاً إعداد أماكن على طول السواحل حيث تتوفر أخشاب رائعة، وحيث هي ليست متملكة من قبل أحد، وتخصيص هذه الأماكن لبناء الغلايين ومراكب التحميل، ليجلب بها الحديد والمنتجات الوافرة الأخرى من الشمال، والتي هي نادرة وغالية الأسعار في الجنوب، وعلى هذا يمكن جلب هذه المنتجات من هناك، وكذلك الأسلحة غير الجاهزة، لكن من السهل ابتياعها من هناك، مع أشياء أخرى مناسبة للعيش وكذلك للقتال بكفاية، وعلى هذه المراكب حمل العساكر في أوقات السلام، خشية أن يبقوا كسالى، ويمكنها أن تحمل معها في طريق العودة توابل عطرية، وحاجيات أخرى مفيدة لنا.

٧ : وإذا ما اعترض معترض وقال بأنه سوف يكون من الصعب

مهاجمة القـاهرة ومصر، سيجيبه الرجـال الحكماء والمجربين بأن ذلك لن يكون صعبــاً، بما أن الرجـال الذين ولدوا في تلـك البـلاد متخلفين في استخدام السـلاح، ومشهورون بأنهم بلا شجاعـة، وسهل فقط وصول الجيش إلى تلك البـلاد بوساطة البحـر، فمصر التي تمتد مسافـة عشرين يومـاً سفـراً، والتي عـرضهـا على محاذاة النيل أربع مـراحل أو أكثـر في بعض الأمــاكن، هـي مطوقــة بصحـــارى غير مسكونـة، ولا يمكن اجتيـازها، إلا باتجاه أرض الميعاد، وآنذاك سيكون ذلك وسط مصـاعب كبيرة ومخاطرة، لأنه لمدة سفر ستة أيام هناك لا يمكن الحصول على أية أطعمة باستثناء الماء، ولهذا إنـه من الأفضل مهاجمة تلك البلاد بـوساطة البحر وذلـك بجيش كاف، وذلك بعـد أن يكون قد جرى أولاً تـوجيه جيش كبير نحـــو عكا، وبذلك يصبـح من السهل الاستيــلاء على بلاد القـاهرة ومصر، وذلك عندما يجري تجريدها من العسـاكر، ومـا أن يتم الاستيلاء عليهـا حتى ستكون ذات فائدة عظيمة إلى السيـد الملك، أكثر منها لمملكة فرنسا، بما أن جميع سكان الأرياف هم عبيد، والبلاد خصبة جداً.

٨ : ولا يحتـاج السيـد الملك إلى التردد بإصـدار الأمـر بمهـاجمة هذه البــلاد، وذلك خشيــة منه أنه لن يرى ابنه ثـانيـة، ذلك أن هـذا الولد يستطيع أن يعود إلى أرض أبيه، حيث يترك قائد الجيش هناك، لأن تلك البـلاد سيكون من السهل الدفاع عنهـا، لاسيما بعدمـا يكون قد جـرى إخضاع أرض الميعاد، واستولى عليها الكاثوليك.

٩ : وإذا ما تم الاتفـاق على ملاحظات السـلام الدائم، حسبما جرى اقتراحها في الرسالة المشار إليها، سـوف يكون مناسباً للسيد الملك البقاء في مملكتـه، ومع أنه قـد يكون قـد حمل الصليب، فبإمكانه أن يرسل إلى هناك أخاه اللورد لويس، كبديـل عنه، مع جيش كبير، ومعه ابنه المتقدم الذكر(فيليب الذي صار فيليب الخامس، ١٣١٦ — ١٣٢٢)، وسيكون

هذا المنهج مسوغاً لأسباب كثيرة، فالسيد الملك الذي تزوج ثانية، عليه أن يمتلك الوقت، بأسرع وقت ممكن، من أجل إنجـــاب الأولاد، وتربيتهم، وتدريبهم، وعليه البقاء في مملكته من أجل إدارتها، مثل ملك بلاد التتار، الذي لم يغادر بلاده قط، بل عين ملكاً من الجيش، وأعطاه البلاد التي عليه احتلالها، ويمكن للسيد الملك بهذه الطريقة أن يزود أخاه وابنه بالعساكر، لترسل إليهما بين وقت وآخر، وذلك حسبما يجد ذلك ضرورياً.

وبسبب خطر الموت، والمرض، والفوضى في إدارة مملكته، ارتؤي أنه نافع أكثر، وأكثر سلامة إلى الملك، أن يبعث، ولايذهب شخصياً، وفي تلك الحالة من الضروري جداً البقاء في الوطن، وذلك تبعاً للفيلسوف الذي قال:«نحن نحصل على الحكمة في هذا العالم من خلال الخبرة في الشؤون، وتحتاج الخبرة إلى وقت طويل»، ولهذا سوف يكون خطراً جداً بالنسبة لمملكة فرنسا — مثل أي مملكة أخرى — أن تحكم من قبل رجل شاب، ويتوافق هذا مع قول آخر للفيلسوف نفسه:«ما من أحد يختار الشباب قادة، لأنه لا يعدهم حكماء»، وعلى الأبوين الملكيين، اللذان يحبان أولادهما الشباب، أن يسعيا لإطالة عمريهما، خشية أن يتركا إلى الفتيان مخاطر واجب الحكم.

وعلى الملك ما أن يجد الوقت، أن يقوم على الفور بقراءة الرسالة المشار إليها، وأن يأمر بتصحيحها، وبتغييرها، وإتمامها من قبل واحد أو أكثر من اللاهوتيين المتفوقين في ميادين المعرفة، ممن لا يتطلعون إلى مناصب الأسقفية، ويؤيد هذا القانون الأوغسطيني، ذلك أن الشهوة تفسد وتشوه الحكم المنطقي، وإذا ما جرى الأخذ بالمقترحات الواردة في تلك الرسالة، سيكون من الواضح تماماً أن المقترحات المتقدمة يمكن بسهولة وسرعة وضعها موضع التنفيذ، وينبغي أن تكون ذات ديمومة، حتى يكون بإمكان السيد الملك، بهذه الطريقة، تأمين الإمدادات إلى

الأرض المقـدسـة من خـلال ميناء صغير وبنفقـة ضئيلة، ومـا أن يجري تأمين الإمدادات هكذا بشكل جيد، وبأن تدوم — بعون الرب — أبداً دائماً، سيكون ذلك بالنسبـة إلى المستقبل، له فـائـدة أعظم لجميع بني البشر، روحيـاً ودنيوياً، ولكي يعيشـوا بسـلام ووئام، أعظم من كل مـا قرأنا حوله، أو جرى تنفيـذه، أو تصوره منذ بداية الدنيا، ولسوف تدوم ذكـرى ذلك الأمير الـذي أثار، ونفـذ مثل هذا المشروع الـواسع جـداً، وستبقى إلى الأبد من خلال صلوات المؤمنين.

١٠ : وبات من السهـولة بمكان أن يرى كل إنسـان أعطـي تقـديراً للأحداث الممكنة في المستقبل، أن التخلص من الممتلكات التي منحت، إلى الداوية لهدف لم يتحقـق، أمـراً مسـوغـاً، ولهذا السبب إنها منحـة يتوجب إبطالها، ولا يجوز تحويل هذه المنحة إلى استخـدامات مدنية، بل ينبغي أن تستخدم بدون تردد في سبيل غرضها الأصيل، وسيكون هذا له منافعـه إلى الأسـاقفة، وإلى جميع الناس عن طريـق تعويض النفقـات التي تحملوها لدى قيامهم بتنفيذ مشروع إزالة الطائفـة ومعاقبة أفرادها، وإن فحصـاً للعشور وللمسـاعـدات الخيرية، مع القيـام بالتقدير المعتـاد للقيام بحملة صليبية، يري أن مشروع معـونة الأرض المقدسة سيمتلك وقتها الوسـائل لدفع المرتبـات، أوتأمين ما هو ضروري للعسـاكر، ولن يحتاج الأمـراء الكاثوليك من بلدان نائية إلى الارتحال إلى هنـاك، وبالتالي إهمال إدارة أراضيهم، وتقصير حيواتهم، وذلك كما يحدثنا التاريخ، وكما وقع مـراراً، وقـد تحملت مملكـة فـرنسـا نفقـات هـائلة على مثل هذه الحملات، التي أنجزت قليلاً، لأن أعمال احتلالاتهم الجزئية لم تدم، هذا وإن المبـالغ التـي سـوف تجمع من وقت إلى وقـت، من أجل الأرض المقـدسة، في ظل الخطـة المقترحة، سـوف تكون ذات فـائدة إلى الأمـراء المحليين، فإذا مـا كـانوا بحاجـة إلى المال، عندمـا تتفجـر الحرب بشكل مفاجيء، يمكهنم الاعتماد على المبالغ المجموعة والسحب منها، وعليهم

أن يكونوا متيقظين أنـه عندمـا يطلب منهم إعـادة الـدفع، يدفعـون، وسيكون إرســال الجند إلى جيرانهم من دون تكاليـف، وستكون هناك مسـاحات تفـريج ومجالات للشبـاب الذين لم يجدوا مجالاً للقيام بحيـاة شريفة في البلدان التي ولدوا فيها.

وسيكون من الممكن بسهولة، بوساطة الطريقة المقترحة، تحويل أفراد الشعب المصري إلى العقيدة الكاثوليكية، وبـذلك يتحررون من العبودية ويرتقـون إلى الحرية، فمن خلال نشـاط يوسف وبصيرته — الذي جمع الحبوب خلال سبع سنوات خصبة — كان فـرعون قادراً بوساطة خزنه للحبـوب، أن يضع الآباء والأبناء على أرضية متسـاوية، ومن ثم أنزلهم إلى مـرتبـة العبيـد، ولهذا السبب يتسلم الناس كميـة ضئيلة فقط من الأطعمـة والألبسـة، من بين الكميـات الـوافـرة لمنتجـات لتلك البـلاد الخصبـة، وقال الـذين كانوا هنـاك بأن السلطان يتسلم من الشعب، كل سنة أكثر من ستمائـة ألف دينار ذهبي، كل دينار منها يساوي قيمـة ستة فلورينات.

ويعدمـا يجري الاستيلاء على أرض الميعاد من قبـل الكاثوليك، وبعد حكمها بكفاءة من البديهي إمكانية حراسة مصر بعدد قليل من الرجال، وبنفقات معتدلة في غياب صاحبهـا، لأن العدو سوف يكون قادراً فقط على دخول البلاد بوسـاطة البحر قرب القاهرة، نظـراً لحصانة القلاع في الصحراء، وحسبما جرى التبيـان في الرسالة، عندما يجري إقـامة السلام بين الأمـراء الكاثوليك، ويتم تـأمين مسـاعـدات متبـادلة ونجـدات في وقتهـا، ما من أحـد سوف يتجـرأ على شن أية حـرب ضدهم، وإذا مـا فعل أحد ذلك، سوف يحاصر، ويرغم على الفرار بوساطة عدد كبير من الحمـلات من أمـاكن مجاورة له، وسـوف يحصل ملك مصر على العـون من طائفة الرهبـان الملكيين ومن الأمراء الآخرين، ولسوف تتـدفق عليه حشود من العسـاكر الجبارة من أجل الحصول على الثـروة، لأنه بانعدام

الحروب في الوطن سـوف يجلسـون بلاعمل في أراضيهم المحليـة، غير قادرين على العيش بشرف، بدون فقـر، وسوف يتمكن — بعون الرب — من أن يضع تحت إشرافه الشعوب الشرقية، حتى الذين يعيشون فيما وراء البحر المتوسط حتى الغرب، وأن يجذبهم إلى العقيدة المسيحية، هذا وإن إيجاد العلماء الذين تقدم ذكرهم في الرسالة المتقدمة، سوف يكون له فائدة كبيرة في هذا المجال.

وبسبب التأثير الطيب للوئـام السماوي، فإن الذين حمل بهم، وولدوا، ونشأوا في مملكة فـرنسـا، خـاصـة في أحـواز بـاريس، سيكونون بشكل طبيعي متفوقين بالسمات، وبالشجـاعة، وبالقـوة، وبالأخلاق، وبالجمال، على الذين ولدوا في بلدان أخرى، وعلى هذا ينبغي بقاء ابن ملك فرنسا — الموهوب طبيعياً والمتفـوق على جميع الآخرين — في فـرنسـا بشكل دائم، حتى يكون، قبل مماته، قـد ترك عـدداً كبيراً من الأولاد، من أجل تنشئتهم وتدريبهم هناك، وقبـل أن يمـوتوا يكونوا أيضـاً بـدورهم قـد فعلوا مثل متقدميهم، وبهذه الطـريقة من الممكن حمل، وولادة، وتنشئة، وتعليم ملكي عكـا ومصر، وامبراطور القسطنطينيـة — إذا تـوفـرت الرغبة بوجـود خلفاء للامبراطور الحالي — في فرنسـا، ولسوف يحظون بشكل دائم بحصة من الأجواء الرائعة لملك فرنسا، ومن شجاعة وجمال السكان المحليين، ولســوف يحبـون ملك فــرنســا، وأميرها الرئيسي، وأولاده، وجميع الفرنسيين من بارونات وشعب، ولسوف يبذلون أقصى جهودهم لتأمين البضائع الشرقيـة الثمينة وتجهيز المملكة كلها بها، ولهذا قيل يمكن للابـن أن يعـود إلى السيـد الأب، دون التعـرض لمزيد من المخاطر، ويمكن لحفيد أن يخلف أباه في قيادة الجيش، وبناء عليه سوف تحظى شعــوب الشرق بأن يكون حـاكمهـا في ريعـان شبـابه وجماله الطبيعي، وسيرغبون فوق كل شيء برؤيتـه، ولسوف يخافون منه عندما يرون الشاب المتألق يقوم بحملة شجاعة مثل رجل بالغ تماماً.

١١ : وإذا مـا قـال إنسـان :« ربما سيرفـض ملك قبرص الأخـذ بالمقترحات المتقدمة أعلاه»، يمكن إجـابته بأن هذا مستبعد تماماً، بما أن ليس لديه لا زوجـة ولا ولد،وهو يعيش مثل راهب في بيته، وقـد اعتاد على ممارسـة حياة التـأمل،وأخوه وخليفتـه المتـوقع إذا مـا مات ملفـوظ وليس له وصية، لأنه سرقه، ونهب الثـروات التي جمعها ذلك الملك من أجل استرداد الأرض المقدسـة، وقد بذل دومـاً أقصى جهوده من أجل غزو تلك المملكة ومن أجل انتزاعها وسرقتهـا، جاعلاً بذلك نفسه آثماً، وغير مؤهـل شرعياً لخلافة أخيـه، فقد تآمـر مراراً من أجل إمـاتة ذلك الملك، وحاول أن يتـدبر اغتياله، وبنـاء عليه سوف يكون مفيـداً أن يتم الاتصـال بملـك قبرص هذا، بسرعـة وبسرية لصـالح السيـد البـابا، بوسـاطة رجل عـاقل مع وكيل الملـك الموجـود داخل هيئـة الكرادلة الرومـان، الذي اسمـه الفـارس بومندوس Bomundus الذي يدعى بونين Bonin ، وهكذا من الممكن صنع كل شيء باتفاق عام، مع تجنب كـامل للخـلاف، وبعـد دخـول الملك في الطائفـة والتخلي عن ملكه، سيكون مفيداً منح أخـو الملك منطقة جيـدة في أرض الميعاد أو في مكان آخـر، حتى يبقـى هادئـاً، وإذا مـا رفض ملك قبرص الـدخـول في هذا المشروع، يمكن وقتهـا لملك صقليـة أن يمارس حقـه، أو أن يحوّله إلى إنسان آخر، أو أن يقوم كونت أوف بريين بالسعي وراء حقه الذي قيل بأنه يمتلكه في مملكة قبرص، إذا كان ما يزال موجوداً، ففي ذاكرة الناس منذ وقـت طويـل أن مملكة قبرص حـق لهذا الكونـت لو أنـه ذهب إلى هناك، وبعـدَ الاستيـلاء على مملكة القـدس من قبل ملكهـا والكاثوليك الآخـرين — إن شـاء الرب — وبمعـونة ملك صقليـة، يمكن لملك صقلية هذا، بالإضافة لنيله ثمن مملكة القدس، أن ينال وعداً بنيل مملكة تونس، القائمة على مقربة كبيرة من صقلية، إلى حد أنه لا بد لواحد من هذين البلدين من الاستيلاء على الآخر.

وبعد وضوح ردة وكفر الداوية، الأمر الذي كان ظاهراً منذ تأسيس هذه الطائفة، ولهذا يبدو أنه سيكون عملاً مشرفاً جداً، وله فوائد دائمة وعظيمة لمملكة فرنسا ولملكها — الذي برهن بنفسه وبأعماله أنه أكثر المسيحيين دعماً للكنيسة — أن يقوم بشكل شرعي وقانوني بإزالة الهرطقة الفاسقة للبابا بونيفيس، ولايمكن لخليفة بونيفيس أن يعلن بوضوح بأن بونيفيس هذا كان مهرطقاً، إلاّ من خلال مجمع عام، وبناء على نصيحة ذلك المجلس وموافقته، ويبدو أن هذا الإجراء لا يمكن اتخاذه قانونياً بطريقة أخرى، لذلك يبدومن المناسب عقد مجمع لهذه الغاية، وسيكون في الوقت نفسه مفيداً إعدادا الشهود، ومواد الشكوى التي ينبغي برهنتها، لأنه بذلك عندما يكون كل شيء قد جرى تحضيره بشكل جيد وبات جاهزاً، من الممكن التوصل إلى محصلة بكل سرعة، وسيغدو مثل هذا الظلم مرعوباً من قبل الجميع، أما المحرض على تدمير الهرطقة فسيكون محموداً في كل مكان، ومن قبل كل إنسان، ويمكن بسهولة أكبر تحقيق مطالبه، مهما كانت نوعية هذه المطالب.

وقد قيل أنه بينما كان بونيفيس المذكور يلفظ أنفاسه، كان هناك أربعة رهبان يتولون رعايته، وقد قال أحدهم له على مسمع من الآخرين:«أبانا المقدس، أودع روحك في أيدي العذراء مريم المباركة»، فأجابه:«الزم الصمت أيها الشقي، نحن لا نثق بتلك الأتان ولابفلوها».

ويحكى أنه تلقى خمسين ألف فلورين حتى يلزم الصمت تجاه خطيئة الداوية، التي كان على دراية بها، ولذلك ينبغي قبل أن يموت الداوية، أن يجري إحضارهم واتخاذهم شهود عيان على ذلك، خشية أن يختفي البرهان معهم، أي مع الذين على دراية بهذه المسألة وبمسائل أخرى.

ولأن البابا[كليمنت الخامس] يقترح الانسحاب من السيد الملك، لعله يرضي ذلك السيد الملك أن يجعل نفسه على الفور عارفاً بالحقائق المقدمة هنا، وهكذا إذا ما رأى مناسباً يمكنه أن يتحاور مع البابا

ويتشاور حول هذه القضـايا، وليكن ذلك بينهما على انفراد، وعلى شكل معلن، تماشيـاً مع كلمـة ربنا يسـوع الـذي قـال:«سيروا مـا دام لكم النور»[يوحنا : ١٢ / ٣٥].

جريدة المصادر المعتمدة

List of Works Cited

I. THE WRITINGS OF PIERRE DUBOIS

[1300] *Summaria brevis et compendiosa doctrina felicis expedicionis et abreviacionis guerrarum ac litium regni Francorum.*
From the Cod. Lat. No. 6222C, fols. 1–34, in the Bibliothèque nationale. Edited by Hellmut Kämpf. Leipzig and Berlin: Teubner, 1936. 'Quellen zur Geistesgeschichte des Mittelalters und der Renaissance,' ed. W. Goetz, Vol. IV.

Summary: The first part deals with the art of war, to which the author's attention was attracted by the disastrous expedition of Philip III against Aragon in 1285. After suggesting improved war tactics, he points out the advantages of his new method to the king and people of France. By following the precedent of Charlemagne the king might make himself master of Italy, assume the temporal power now wielded by the pope, and then go on to make himself master of Germany, eastern Europe, and the Greek Empire.

The second and longer part is devoted to a discussion of various reforms. Ecclesiastical infringements on civil jurisdiction should be halted; specific suggestions are made for accomplishing this. Considerable space is devoted to improved and shorter methods of court procedure. These reforms may readily be effected by royal decree, models for which are included. Ecclesiastics are scolded for their hypocrisy; their lives are in sharp contrast to their moral preaching. If the king will only enforce the suggested reforms, the French people will enjoy peace and prosperity.

[1302] *Raciones inconvincibiles.* Lost.

Known only through a brief summary in chapter 111 of the *De recuperatione.* Written at Paris 'on the Sabbath day preceding the Sunday of the publication of the papal iniquity [the bull *Ausculta fili*],'[1] and entrusted to Richard Leneveu, bishop of Béziers, for transmission to the king.

Summary: The Supreme Judge, because of the wickedness and avarice of the Romans, will withdraw the papacy from them and grant it to a man of high character who will not emulate his predecessor (Boniface VIII) by snatching at others' liberties. For similar disobedience to divine precepts King Saul was punished by the loss of his kingdom.

[1] The bull *Ausculta fili* was dated December 5, 1301, but did not reach France for formal publication there until 1302. Its bearer, the archdeacon of Narbonne, sought to present it formally to Philip IV on February 10, but was interrupted. From this chronology of events it seems fair to assign the composition of the tract to 1302.

The title appears in the manuscript, but in another ink and another hand. Lizerand entitled it *Populi Franciae ad regem supplicatio*.[3]

Summary: A difference has arisen between the king and the pope in the matter of punishing the Templars. Certain laws have been cited in support of the papal position, but these laws apply only to those who with some show of reason are separated from the Roman Church, such as the Greeks, and not to manifest heretics. Moses followed the proper procedure when, without the consent of the high priest Aaron, he put to death twenty-two thousand for worshiping the golden calf. The king should follow his example. The Templars are all homicides, guilty of consorting with apostates and assassins; by apostolic example all should be punished so that the punishment of one may rouse fear in others. Moses was a lawgiver, not a priest, for a priest would not have put the people to death. The Lord forbade David to build the temple, because he was a man of blood. One should not listen to those who pervert Scripture for their argument; one should rather apply to the most Christian king the beatitude, 'Blessed are they that keep judgment and do justice at all times' (Ps. 105:3).

[1308] [A revised version of the *De recuperatione*.] Lost.

It was addressed to the pope and forwarded to Philip IV during his stay at Chinon. Dubois referred to it briefly in chapters 2 and 9 in the document translated as an Appendix in the present volume, and also in the *Pro facto Terre Sancte*.

Summary: Repeats the suggestions in the *De recuperatione* for the recovery and maintenance of the Holy Land, the establishment of peace among Christians, and the foundation of schools for the training of prospective colonists. The only new point is the recommendation for the unification of the military orders under the headship of the king of Cyprus.

[1308] [*Pro facto Terre Sancte*].

From the MS Lat. 10919, fol. 109*v*, in the Bibliothèque nationale. Edited

[3] There is some question about the tracts against the Templars. Langlois, in his Introduction, p. xii, refers to *three* tracts of 1308 against the Templars, citing Boutaric's article in *Notices et extraits*, XX, 175–81, as his source. But these pages contain only *two* tracts, the *Remontrance* and the *De facto Templariorum*. *Pro facto Terre Sancte* (pp. 186–89, Document No. XXX), the third tract which Boutaric attributed directly to Dubois, makes no mention of the Templars. These three tracts are found in the MS Lat. 10919. Boutaric also edited another tract of 1308 against the Templars (pp. 182–86, Document No. XXIX), which he entitled *Quaedam proposita pape a rege super facto Templariorum*. This is not found in the MS Lat. 10919, but in a manuscript which Boutaric identified as Or. Arch. de l'emp. J 413, No. 34. It purports to be a letter addressed by Philip IV to the pope, but is obviously not by Philip, for it speaks of the king in the third person, and does not close with the date and provenance as a genuine letter would. Renan (*Histoire littéraire*, XXVI, 483 f.) ascribed it to Dubois; Boutaric is noncommittal. In my opinion it is not by Dubois, despite the fact that it includes Dubois' favorite reference to *Leviathan testiculi*. The style is terse and direct, well organized, unlike the diffuse style characteristic of Dubois. I have therefore concluded to reject it.

by Boutaric in *Notices et extraits*, XX (1862), Part II, 186–89, Document No. XXX.

Written during the interregnum between the death of Emperor Albert I (May 1, 1308) and the election of Henry VII (October 28, 1308).

Summary: The king of France, with the support of the pope and the cardinals, might readily gain the Empire for himself and his heirs. The pope could suspend the power of the electors; they should be punished for having elected emperors hostile to the Church, just as the imperium was taken from Constantinople and given to Charlemagne. The archbishops can be coerced by the pope, who has the right to withdraw the elective power from the other electors; their goodwill may be secured by the grant of lands and money from the tithes of German churches. The electors would probably not refuse such terms; the new Emperor could recover any losses from Lombardy, Genoa, and Venice. This would give him a land route to the Holy Land, necessary because of the shipping shortage. The establishment of universal peace through the means suggested elsewhere by the author would make it possible for the French king to govern both France and the Empire. He ought also to take over the papal patrimony, thereby gaining suzerainty over the pope's vassals. The proud Italians would be humbled. Germany, teeming with people, would populate the Holy Land and Greece with loyal citizens. If conquered, the Holy Land can be maintained only by a large influx of people; for such an influx the land route through Germany, Hungary, and Greece is necessary.

[1308] [*Oppinio cujusdam suadentis regi Franciae ut regnum Jerosolimitanum et Cipri acquireret pro altero filiorum suorum, ac de invasione Egipti.*]

From the MS Lat. 10919, fols 82*r* to 86*r*, in the Bibliothèque nationale. First published, with an omission, by Baluze, *Vitae paparum Avenionensium* (Paris, 1693), II, 186–95, from which Langlois republished it, with further omissions, as an Appendix to the *De recuperatione*. It is given complete in Mollat's edition of Baluze (Paris, 1914–27), III, 154–62.

The title is in a fifteenth-century hand and is therefore not contemporaneous with the manuscript. The tract is translated in its complete form as an Appendix to the present volume.

[1313] *De torneamentis et justis.*

From the MS Reg. Lat. 1642, fols. 41*v* to 42*v*, in the Vatican Library. Analyzed and edited in part by C. V. Langlois, 'Un Mémoire inédit de Pierre Du Bois, 1313: *De torneamentis et justis*,' *Revue historique*, XLI (1889), 84–91.

Summary: A bull has recently been issued prohibiting tournaments under pain of excommunication. The royal family and the nobility ask for its temporary suspension. If not suspended, grave scandal will arise, for the French knights will ignore the prohibition and others will follow their example. The projected crusade will fail if led by men under

Works Cited

the ban. Of two evils, choose the lesser. Tournaments should be permitted, just as excessive eating is permitted on the approach of Lent. Ecclesiastical discipline should aim to chastise and heal rather than to precipitate into error; those who have concubines are not required to abjure them lest they may, at the devil's instigation, return to fornication and thus become perjurers. The Church should make exceptions; kings are not to be treated like other men. If an unbearable burden is placed on a youth's shoulders, he either drops it or breaks under the strain. The prayers of a king should be listened to, for the wrath of a king is the messenger of death. Tournaments are not *per se* illicit, and the prohibition is not founded on canon law. Tournaments prepare the knights to fight the infidel; why not reserve the privilege for prospective crusaders? Let the penalties remain in force as a caution against killing men or injuring souls. The pope need not fear to change his mind; God changed much in the New Testament which He had commanded in the Old. Even St. Paul changed his mind on circumcision of the Jews.

II. WORKS ON DUBOIS AND HIS TIMES

Adamson, John William. 'The Illiterate Anglo-Saxon' and Other Essays on Education, Medieval and Modern. New York: Macmillan, 1947.
A sprightly summary of Dubois' ideas, pp. 77–91.

Aegidius Romanus. De ecclesiastica potestate. Ed. Richard Scholz. Weimar: H. Böhlaus Nachfolger, 1929.

—— De regimine principum. Ed. Jerome Samartanius. Rome: Bartholomaeus Zannettus, 1607.
A thirteenth-century French version has been edited by Samuel P. Molenaer (New York and London: Macmillan, 1899).

Alexander de Villa-Dei. Das *Doctrinale* des Alexander de Villa-Dei. Kritisch-exegetische Ausgabe, mit Einleitung, Verzeichnis der Handschriften und Drucke nebst Registern. Ed. Dietrich Reichling. Berlin: Hofmann, 1893. 'Monumenta Germaniae paedagogica,' Vol. XII.
One of the textbooks recommended by Dubois.

Andrieu-Guitrancourt, Pierre. Eudes Rigaud et la vie de l'église au XIIIe siècle, d'après le *Registrum visitationum*. Paris: Librairie du Recueil Sirey, 1938.

Atiya, Aziz S. The Crusade in the Later Middle Ages. London: Methuen, 1938.
A significant contribution to the history of the later crusades and of the theorists who proposed new crusades.

Bacon, Roger. Opera quaedam hactenus inedita. Ed. John S. Brewer. London: Longman, Green, Longman & Roberts, 1859. 'Rolls Series,' No. 15.
Includes the *Opus tertium*, the *Opus minus*, and the *Compendium studii philosophiae*.

Works Cited

—— The *Opus majus* of Roger Bacon. Ed. John H. Bridges. New ed. 3 vols. London: Williams & Norgate, 1900.

Vol. III of the new edition contains a revised text of the first three parts as they appeared in the Oxford edition of 1897, with corrections, emendations, and additional notes. The English translation by Robert Belle Burke (2 vols.; Philadelphia: University of Pennsylvania Press; London: Humphrey Milford, Oxford University Press, 1928) is based on the revised text. My citations are to the edition of 1900 and to Burke's translation.

Baeumker, Clemens: *see* Siger de Brabant.

Baluze, Etienne. Vitae paparum Avenionensium; hoc est, Historia pontificum Romanorum qui in Gallia sederunt ab anno Christi MCCCV usque ad annum MCCCXCIV. Ed. Guillaume Mollat. 4 vols. Paris: Letouzey et Ané, 1914–27.

Originally published in 1693. Mollat consulted the original manuscripts, which enabled him to rectify certain errors and omissions in the original edition.

Baudouin, Adolphe: *see* Philip IV.

Beazley, Charles Raymond. The Dawn of Modern Geography: A History of Exploration and Geographical Science. 2d ed. 3 vols. London: H. Froude; Oxford: Clarendon Press, 1905–6.

Originally published in two volumes (London: J. Murray, 1897–1901). Volumes I and II of the second edition were published by Froude; Volume III was published by the Clarendon Press.

Beck, Henry J. G. 'William Hundleby's Account of the Anagni Outrage,' *Catholic Historical Review*, XXXII (1946), 190–220.

William of Hundleby served as procurator at the Roman *curia* for John Dalderby, bishop of Lincoln, 1300–20. He wrote this letter September 27, 1303. Latin text with English translation.

Berthier, André. 'Les Ecoles de langues orientales fondées au XIIIe siècle par les Dominicains en Espagne et en Afrique,' *Revue africaine*, LXXIII (1932), 84–103.

Beugnot, Arthur A., Comte, ed. Les Olim, ou registres des arrêts rendus par la cour du roi sous les règnes de saint Louis, de Philippe le Hardi, de Philippe le Bel, de Louis le Hutin, et de Philippe le Long. 3 vols. Paris: Imprimerie royale, 1839–48. 'Collection de documents inédits sur l'histoire de France,' No. 65.

Bientinesi, Giuseppina. 'Vincenzo di Beauvais e Pietro Dubois considerati come pedagogisti,' *Atti della reale accademia delle scienze di Torino*, LI (1915–16), 1411–30; LII (1916), 191–207.

Bigwood, Georges. 'La Politique de la laine en France sous les règnes de Philippe le Bel et de ses fils,' *Revue belge de philologie et d'histoire*, Brussels, XV (1936), 79–102, 429–57; XVI (1937), 95–129.

A thorough study of export dues, a chapter in the financial history of the reign of Philip IV.

Works Cited

Boase, Thomas S. R. Boniface VIII. London: Constable, [1933]. 'Makers of the Middle Ages.'

Bongars, Jacques. Gesta Dei per Francos sive orientalium expeditionum et regni Francorum Hierosolimitani historia, a variis, sed illius aeui, scriptoribus, litteris commendata. 2 vols. in 1. Hanover: John Aubrius, 1611.

Although almost wholly superseded by the magnificent *Recueil des historiens des croisades*, there are still a few writers whose works are not available in any edition later than that of Bongars. Copy in the New York Public Library.

Borrelli de Serres, Léon. Les Variations monétaires sous Philippe le Bel et les sources de leur histoire. Paris: Picard, 1902.

Boutaric, Edgard Paul. La France sous Philippe le Bel: étude sur les institutions politiques et administratives du moyen âge. Paris: H. Plon, 1861.

—— 'Les Idées modernes chez un politique du XIVe siècle: Pierre Du Bois,' *Revue contemporaine*, sér. 2, XXXVIII (1864), 417–47. (Whole number, Vol. LXXIII.)

A reprint of his paper read before the Académie des inscriptions et belles-lettres on February 5, March 4 and 11, 1864, which appeared under a different title in the Academy's *Comptes rendus*, VIII (1864), 84–106. Dubois' ideas are discussed in the light of contemporary events in Italy and the Near East.

—— Institutions militaires de la France avant les armées permanentes, suivies d'un aperçu des principaux changements survenus jusqu'à nos jours dans la formation de l'armée. Paris: H. Plon, 1863.

—— 'Mémoire sur la vie, les œuvres et les doctrines politiques de Pierre Dubois, légiste du quatorzième siècle,' *Comptes rendus de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, VIII (1864), 84–106.

An analysis, with historical background, of the *De recuperatione*.

—— 'Notices et extraits de documents inédits relatifs à l'histoire de France sous Philippe le Bel,' *Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothèque nationale et autres bibliothèques*, XX (1862), Part II, 83–237.

Includes the earliest, and sometimes the only, edition of certain minor pamphlets by Dubois.

Brandt, Walther I. 'Pierre Dubois: Modern or Medieval?,' *American Historical Review*, XXXV (1930), 507–21.

Contends that nearly all of Dubois' ideas may be found in the writings of his contemporaries or near predecessors.

Bréhier, Louis. L'Eglise et l'Orient au moyen âge: les croisades. 4th ed. Paris: Lecoffre, 1921. 'Bibliothèque de l'enseignement de l'histoire ecclésiastique.'

Useful for an account of the later crusading efforts. The edition of 1928 was not available.

Brocard. Directorium ad passagium faciendum per Philippum [VI]

regem Franciae in Terram sanctam anno 1332. Ed. Kohler, in *Recueil des historiens des croisades, documents arméniens*, II, 367–517.

Callery, Alphonse. 'Les Premiers États Généraux: origine, pouvoirs et attributions,' *Revue des questions historiques*, XXIX (1881), 62–119.

Holds that summoning the estates was a recognition of feudalism, not a denial of it.

Capitanovici, Georgius J. Die Eroberung von Alexandria durch Peter I von Lusignan, König von Cypern, 1365. Berlin: R. Heinrich, 1894.

Carlyle, Sir Robert W., and Alexander J. Carlyle. A History of Mediaeval Political Theory in the West. 6 vols. Edinburgh and London: Blackwood & Sons, 1903–36.

Carter, Thomas F. The Invention of Printing in China and Its Spread Westward. Rev. ed. New York: Columbia University Press, 1931.

Cato. The Distichs of Cato: A Famous Medieval Textbook. Translated from the Latin by Wayland W. Chase. Madison, Wis.: University of Wisconsin Press, 1922. 'University of Wisconsin Studies in the Social Sciences and History,' No. 7.

One of the textbooks recommended by Dubois.

Chartularium universitatis Parisiensis. Ed. H. Denifle and E. Chatelain. 4 vols. Paris: Delalain, 1889–97.

The standard collection of source material on the medieval University of Paris.

Chénon, Emile. Histoire générale du droit français public et privé, des origines à 1815. 2 vols. Paris: Recueil Sirey, 1926–29.

Relies heavily upon the earlier work of Tardif.

Christensen, Heinrich. Das *Alexanderlied* Walters von Châtillon. Halle: Buchhandlung des Waisenhauses, 1905.

Chronicles and Memorials of the Reign of Richard I. Ed. John S. Brewer. 2 vols. London: Longman, Green, Longman & Roberts, 1864–65. 'Rolls Series,' No. 38.

Chronicles of the Crusades, Being Contemporary Narratives of the Crusades of Richard Cœur de Lion, by Richard of Devizes and Geoffrey de Vinsauf, and of the Crusade of St. Louis, by Lord John de Joinville. London: H. G. Bohn, 1848.

Colonna, Egidio: *see* Aegidius Romanus.

Corpus chronicorum Flandriae. Ed. J. J. de Smet. 4 vols. Brussels: M. Hayez, 1837–65. 'Collection de chroniques belges inédites,' ed. J. H. Borgnet *et al.*, No. 3.

Corpus juris canonici. Editio Lipsiensis secunda post Aemilii Ludouici Richteri curas ad librorum manu scriptorum et editionis Romanae fidem. Ed. Aemilius Friedberg. 2 vols. Leipzig: Tauchnitz, 1879–81.

My citations are from the 1928 reprint.

Corpus juris civilis. Ed. P. Krüger, T. Mommsen, *et al.* 3 vols. Berlin: Weidmann, 1872–95.

This standard edition of Roman civil law comprises the *Institutiones*,

the *Digesta*, the *Codex*, and the *Novellae*. It has frequently been reissued in whole or in part.

Coulton, George G. Five Centuries of Religion. 4 vols. Cambridge: Cambridge University Press, 1923–50.

Crowley, Theodore. Roger Bacon: The Problem of the Soul in His Philosophical Commentaries. Louvain: Institut supérieure de philosophie, 1950.

Written in 1939. See especially chap. i, 'Roger Bacon's Life and Works,' pp. 17–78.

Curley, Sister Mary Mildred. The Conflict Between Pope Boniface VIII and King Philip IV, the Fair. Washington, D.C.: Catholic University of America, 1927.

A useful feature is the English translation of a number of documents not otherwise readily accessible.

Delaville le Roulx, Joseph M. La France en Orient au XIVe siècle: expéditions du maréchal Boucicaut. 2 vols. Paris: E. Thorin, 1886. 'Bibliothèque des Ecoles françaises d'Athènes et de Rome,' fasc. 44–45.

Valuable for the later crusading movement. Based in part on manuscript materials as yet unedited.

Delhaye, Philippe: *see* Siger de Brabant.

Delisle, Léopold Victor. 'Le Clergé normand au XIIIe siècle, d'après le *Registrum visitationum archiepiscopi Rothomagensis*; Journal des visites pastorales d'Eude Rigaud, archevêque de Rouen, 1248–1269,' *Bibliothèque de l'Ecole des chartes*, sér. 2, III (1846), 479–99. (Whole number, Vol VIII.)

—— 'Mémoire sur les opérations financières des Templiers,' *Mémoires de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, XXXIII (1889), Part II, 1–246.

Pages 95–246 comprise documents, with brief explanatory notes. Sets forth the important role played by the order in the public finances of France in the thirteenth century.

Della Vigna, Piero: *see* Piero della Vigna.

Devic, Claude, and Jean J. Vaissete. Histoire générale de Languedoc. Ed. Edouard Dulaurier *et al.* 16 vols. Toulouse: E. Privat, 1872–1904.

Digard, Georges A. L. Philippe le Bel et le Saint-Siège de 1285 à 1304. Ouvrage posthume publié par Françoise Lehoux. 2 vols. Paris: Recueil Sirey, 1936.

Sums up the results of a generation of research.

Documents historiques inédits tirés des collections manuscrits de la Bibliothèque royale et des archives ou des bibliothèques des départements. Ed. [J. J.] Champollion-Figeac *et al.* 4 vols. Paris: Firmin Didot frères, 1841–48. 'Collection de documents inédits publiés par ordre du roi et par les soins du ministre de l'instruction publique. Mélanges historiques.'

Donatus. The *Ars minor* of Donatus: For One Thousand Years the Leading

Works Cited

Textbook of Grammar. Translated from the Latin by Wayland J. Chase. Madison, Wis.: University of Wisconsin Press, 1926. 'University of Wisconsin Studies in the Social Sciences and History,' No. 11.
One of the textbooks recommmended by Dubois.

Dupuy, Pierre. Histoire de la condamnation des Templiers, celle du schisme des papes tenans le siège en Avignon et quelques procès criminels. Ed. M. Gurtler. 2 vols. Brussels: Foppens, 1713.
Copy in the Library of Congress.

[——]. Histoire du différend d'entre le pape Boniface VIII et Philippes [*sic*] le Bel, roy de France, où l'on voit ce qui passa touchant cette affaire, depuis l'an 1296 iusques en l'an 1311 sous les pontificats de Boniface VIII, Benoist XI & Clement V; ensemble le proces criminel fait a Bernard evesque de Pamiez l'an MCCXCV; le tout iustifié par les Actes et mémoires pris sur les originaux qui sont au Tresor des chartes du Roy. Paris: Sebastien Cramoisy, 1655.
This compilation is not readily accessible, but it is nevertheless indispensable for a study of the period. It includes the only edition of two of Dubois' pamphlets. The pagination is confusing. It begins with a narrative account of the affair in French and in Latin, each paged separately. This is followed by an elaborate table of contents, of ten unnumbered pages. The all-important Actes et preuves' begins with a third separate numbering, which extends through the sources for Boniface VIII, Benedict XI, and Clement V, and continues unbroken through the sources for the trial of Bishop Guichard and the *Quaestio de potestate papae*, at one time attributed to Dubois. It is generally catalogued under 'Dupuy,' although his name does not appear on the title page. Copy in the Harvard Library.

—— Traitéz concernant l'histoire de France; sçavoir la condamnation des Templiers, avec quelques actes; l'histoire du schisme; les papes tenans le siège en Avignon; et quelques procez criminels. Paris: Dupuy, 1654.
Copy in the New York Public Library.

Duval, Frédéric Victor. De la paix de dieu à la paix de fer. Paris: Paillard, 1923. 'Gesta pacis. Etudes historiques sur la question de la paix.'

Easton, Stewart C. Roger Bacon and His Search for a Universal Science: A Reconsideration of the Life and Work of Roger Bacon in the Light of His Own Stated Purposes. Oxford: Basil Blackwell; New York: Columbia University Press, 1952.

Eberhard of Béthune. Eberhardi Bethuniensis Graecismus. Ad fidem librorum manu scriptorum recensuit lectionum uarietatem adiecit indices locupletissimos et imaginem codicis Melicersis photolithographicam. Ed. Joh. Wrobel. Breslau: Koebner, 1887. 'Corpus grammaticorum medii aeui,' Vol. I (no more published).
One of the textbooks recommended by Dubois. Copy in the Columbia University Library.

Works Cited

Ehrle, Franz. 'Ein Bruchstück der Acten des Concils von Vienne,' *Archiv für Literatur- und Kirchengeschichte des Mittelalters*, hrsg. von H. Denifle und F. Ehrle, IV (1888), 361–470.

Includes a number of pertinent documents illustrating the jurisdictional strife between the secular and ecclesiastical authorities.

Esmein, Adhémar. A History of Continental Legal Criminal Procedure, With Special Reference to France. Trans. John Simpson. Boston: Little, Brown, 1913. 'Continental Legal History Series,' [Vol. V].

—— Le Mariage en droit canonique. Ed. Robert Génestal and Jean Dauvillier. 2 vols. Paris: Recueil Sirey, 1929–35.

Originally published in 1891.

Fawtier, Robert. 'L'Attentat d'Anagni,' *Mélanges d'archéologie et d'histoire* (Ecole française de Rome), LX (1948), 153–79.

Contends that Nogaret was not responsible for the violence at Anagni. Fawtier's position is challenged by M. Melville, 'Guillaume de Nogaret et Philippe le Bel.'

—— Les Capétiens et la France: leur rôle dans sa construction. Paris: Presses universitaires de France, 1942.

—— L'Europe occidentale de 1270 à 1380: première partie, de 1270 à 1328. Paris: Presses universitaires de France, 1940. 'Histoire générale, publ. G. Glotz; Histoire du moyen âge,' Vol. VI, No. 1.

Integrates English, French, and Spanish history. Criticizes the chief theories as to the origins of national assemblies. Contends that Philip himself was the directing force in French policy, that Philip actually considered Boniface VIII to be a usurper, and that the Templars were guilty as charged.

Figgis, John N. 'A Forgotten Radical [Pierre Dubois],' *Cambridge Review*, XXI (1900), 373–74.

Finke, Heinrich. Acta Aragonensia: Quellen zur deutschen, italienischen, französischen, spanischen, zur Kirchen- und Kulturgeschichte, aus der diplomatischen Korrespondenz Jaymes II, 1291–1327. 3 vols. Berlin: W. Rothschild, 1908–22.

An invaluable collection of documents, mostly from the archives of Barcelona. Vols. I and II are paged continuously, Vol. III separately.

—— Aus den Tagen Bonifaz VIII: Funde und Forschungen. Münster: Aschendorff, 1902. 'Vorreformationsgeschichtliche Forschungen,' Vol. II.

Useful for the number of documents printed in full.

—— Die Frau im Mittelalter; mit einem Kapitel, 'Die heiligen Frauen im Mittelalter,' von Dr. Lenné. Kempten: J. Kösel, 1913.

—— Papsttum und Untergang des Templerordens. 2 vols. Münster: Aschendorff, 1907.

Hans Prutz took issue with some of Finke's conclusions, and a lively

literary controversy ensued. Bibliography in E. Zeck, *Der Publizist Pierre Dubois*, pp. xi–xvi.
—— 'Die Stellung der Frau in Mittelalter,' *Internationale Wochenschrift für Wissenschaft, Kunst und Technik*, IV (1910), 1243–58, 1285–1302.
Based on lectures delivered by the author in Freiburg-im-Breisgau during the winter of 1909–10.
—— 'Zur Charakteristik Philipps des Schönen,' *Mitteilungen des Instituts für österreichische Geschichtsforschung*, XXVI (1905), 201–24.
Fliche, Augustin. Etudes sur la polémique religieuse à l'époque de Grégoire VII: les prégrégoriens. Paris: Société française d'imprimerie et de librairie, 1916.
Fournier, Paul. 'Guillaume du Breuil, juriste.' In *Histoire littéraire*, XXXVII (1938), 120–46.
—— Le Royaume d'Arles et de Vienne (1138–1378): étude sur la formation territoriale de la France dans l'est et le sud-est. Paris: Picard, 1891.
Funck-Brentano, Frantz. 'Mémoire sur la bataille de Courtrai (1302, 11 Juillet) et les chroniqueurs qui en ont traité, pour servir à l'historiographie du règne de Philippe le Bel,' *Mémoires présentés par divers savants à l'Académie des inscriptions et belles-lettres de l'Institut de France*, sér. 1, X (1893), 235–325.
—— Les Origines de la guerre de cent ans: Philippe le Bel en Flandre. Paris: Champion, 1897.
Extensive bibliography, pp. xi–xxii.
Funke, Paul. Papst Benedikt XI. Münster: H. Schöningh, 1891. 'Kirchengeschichtliche Studien,' hrsg. von Knöpfler *et al.*, Vol. I.
Gautier de Châtillon. Alexandreis. Ed. Friedrich A. W. Müldener. Leipzig: Teubner, 1863.
An older edition is reprinted in Migne, *Pat. Lat.*, CCIX, 463–572. From this poem Dubois derived much of his knowledge of ancient history.
Gewirth, Alan. Marsilius of Padua: The Defender of Peace. Vol. I. New York: Columbia University Press, 1951. 'Records of Civilization, Sources and Studies,' No. XLVI.
A detailed analysis of Marsilius' ideas in the light of medieval philosophy; a supplementary volume will comprise the translation of the *Defensor pacis*.
Gilles de Rome: *see* Aegidius Romanus.
Giordano, Carlo. *Alexandreis*, poema di Gauthier de Châtillon. Naples: Federico & Ardia, 1917.
Gmelin, Julius. Schuld oder Unschuld des Tempelordens. Kritischer Versuch zur Lösung der Frage. Stuttgart: Kohlhammer, 1893.
Goldast, Melchior, ed. Monarchia s. Romani imperii. 3 vols. Hanover and Frankfort: Conrad Biermann, 1611–14.
This excessively rare publication is still the only source for editions

of a number of treatises illustrative of late medieval political thought. Copy in the Columbia University Library.
Gottron, Adam. Ramon Lulls Kreuzzugsideen. Berlin and Leipzig: W. Rothschild, 1912. 'Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte,' Vol. XXXIX.
Grabmann, Martin. 'Neu aufgefundene *Quaestionen* Sigers von Brabant zu den Werken des Aristoteles (Clm. 9559).' In *Miscellanea Francesco Cardinale Ehrle*, I, 103–47.
—— 'Neu aufgefundene Werke des Siger von Brabant und Boetius von Dacien,' *Sitzungsberichte der bayerischen Akademie der Wissenschaften, philosophisch-philologische und historische Klasse*,' Jahrgang 1924, Part II, 1–48.
Graefe, Friedrich. Die Publizistik in der letzten Epoche Kaiser Friedrichs II: ein Beitrag zur Geschichte der Jahre 1239–1250. Heidelberg: C. Winter, 1909. 'Heidelberger Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte,' Vol. XXIV.
Grauert, Hermann. 'Aus der kirchenpolitischen Traktatenliteratur des 14. Jahrhunderts,' *Historisches Jahrbuch*, XXIX (1908), 497–536.
A detailed discussion of the anonymous *Tractatus de iurisdictione imperatoris et imperii*, also known as *Determinatio compendiosa de iurisdictione imperii.*
—— 'Dante und die Idee des Weltfriedens,' *Historisch-politische Blätter für das katholische Deutschland*, CXLI (1908), 112–38.
Originally a 'Festrede' delivered before the Academy on December 14, 1907. Also issued separately in revised form: Munich: K. b. Akademie der Wissenschaften, 1909.
—— [A lengthy critical review of Langlois' edition of the *De recuperatione*], *Historisches Jahrbuch*, XII (1891), 807–15.
Grosseteste, Robert. Roberti Grosseteste episcopi quondam Lincolniensis epistolae. Ed. Henry R. Luard. London: Longman, Green, Longman & Roberts, 1861. 'Rolls Series,' No. 25.
Grundmann, Herbert. Alexander von Roes, *De translatione imperii*, und Jordanus von Osnabrück, *De prerogativa Romani imperii*. Leipzig: Teubner, 1930. 'Quellen zur Geistesgeschichte des Mittelalters und der Renaissance,' Ed. W. Goetz, Vol. II.
Jordanus von Osnabrück expressed a German patriotism quite as blatant as the French chauvinism of Dubois.
Gualterus ab Insulis: *see* Gautier de Châtillon.
Guilhiermoz, Paul E. 'De la persistance du caractère oral dans la procédure civile française,' *Nouvelle revue historique du droit français et étranger*, XIII (1889), 21–65.
—— Enquêtes et procès: étude sur la procédure et le fonctionnement du Parlement au XIVe siècle. Paris: Picard, 1892.
Guillaume le Maire. Livre de Guillaume le Maire. Ed. Célestin Port. In *Mélanges historiques*, II, 189–537. 'Collection de documents inédits sur l'histoire de France,' No. 52.

Works Cited

Guillaume le Maire, bishop of Angers, died in 1314. The volume includes his *De reformandis in ecclesia.*

Guillaume de Nangis. Chronicon, et continuator prior. In *Recueil des historiens des Gaules et de la France*, ed. Bouquet, XX, 544–646.

Habel, Edwin. 'Johannes de Garlandia, ein Schulmann des 13. Jahrhunderts,' *Mitteilungen der Gesellschaft für deutsche Erziehungs- und Schulgeschichte*, XIX (1909), 1–34, 118–30.

Haller, Johannes. Papsttum und Kirchenreform: vier Kapitel zur Geschichte des ausgehenden Mittelalters. Berlin: Weidmann, 1903.

Planned as a longer work, but only Vol. I appeared.

Hamilton, George L. 'Theodulus, a Medieval Textbook,' *Modern Philology*, VII (1910), 169–85.

Haskins, Charles H. Studies in the History of Mediaeval Science. Cambridge: Harvard University Press, 1924.

Hauréau, Jean B. '*De recuperatione Terrae Sanctae:* traité de politique générale par Pierre Dubois, publié par Ch. V. Langlois, 1891,' *Journal des savants*, 1894, 117–23.

A lengthy review of Langlois' edition of the *De recuperatione.*

—— 'Richard Leneveu, évêque de Béziers.' In *Histoire littéraire*, XXVI, 539–51.

Hearnshaw, Fossey J. C.: *see* Power, Eileen.

Heber, Max. Gutachten und Reformvorschläge für das Vienner Generalconcil, 1311–1312. Leipzig: Fischer & Wittig, 1896.

Hefele, Karl Joseph von. Conciliengeschichte: nach den Quellen bearbeitet. 2d ed. 9 vols. Freiburg-im-Breisgau: Herder, 1873–90. Vols V and VI edited by A. Knöpfler; Vols. VIII and IX by Cardinal Hergenröther.

Heidelberger, Franz. Kreuzzugsversuche um die Wende des 13. Jahrhunderts. Berlin and Leipzig: W. Rothschild, 1911. 'Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte,' Vol. XXXI.

Henri d'Andeli. Battle of the Seven Arts. Ed. and trans. Louis J. Paetow. Berkeley: University of California Press, 1914. 'Memoirs of the University of California,' Vol. IV, No. 1.

This thirteenth-century trouvère lists a number of the textbooks which Dubois recommended for his 'modern' curriculum.

Henry, Abel. 'Guillaume de Plaisians, ministre de Philippe le Bel,' *Moyen Age*, V (1892), 32–38.

Hervieu, Henri. Recherches sur les premiers états généraux et les assemblées représentatives pendant la première moitié du XIVe siècle. Paris: Thorin, 1879.

Heyck, Eduard. 'Moderne Gedanken im Mittelalter,' *Die Grenzboten*, LI (1892), Part II, 18–27.

A popular and superficial analysis of the *De recuperatione.*

Heyd, Wilhelm von. Histoire du commerce du Levant au moyen-âge. Edition française refondue et considérablement augmentée par l'au-

teur, publiée sous le patronage de la Société de l'Orient latin, par Fourcy Raynaud. 2 vols. Leipzig: Harrassowitz, 1885–86.
Reprinted in 1923.

Hill, Sir George: A History of Cyprus. 3 vols. Cambridge: Cambridge University Press, 1948.

Histoire littéraire de la France. Paris: Imprimerie nationale, 1733—.
Vol. XXXVIII appeared in 1949. Title and imprint vary.

Höfler, Constantin R. von, 'Die romanische Welt und ihr Verhältnis zu den Reformideen des Mittelalters,' *Sitzungsberichte der kaiserlichen [Wiener] Akademie der Wissenschaften, philosophisch-historische Klasse* XCI (1878), 257–538.
A brief summary of Dubois' ideas, pp. 318–22.

Holtzmann, Robert. Französische Verfassungsgeschichte von der Mitte des neunten Jahrhunderts bis zur Revolution. Munich and Berlin: R. Oldenbourg, 1910. 'Handbuch der mittelalterlichen und neueren Geschichte,' Vol. III.

—— 'Philipp der Schöne von Frankreich und die Bulle *Ausculta fili*,' *Deutsche Zeitschrift für Geschichtswissenschaft*, Neue Folge, II (1897), 16–38.
Contends that the bull was publicly burned.

—— Wilhelm von Nogaret: Rat und Grosssiegelbewahrer Philipps des Schönen von Frankreich. Freiburg-im-Breisgau: J. C. B. Mohr, 1898.
A detailed and well documented account of the part played by Nogaret in his royal master's struggle with the papacy.

Huberti, Ludwig. Studien zur Rechtsgeschichte der Gottesfrieden und Landfrieden. Ansbach: C. Brügel & Sohn, 1892.
One of the best treatments of the general subject.

Humbertus de Romanis: *see* Michel, Karl.

Jacobus de Voragine. The Golden Legend of Jacobus de Voragine. Trans. and adapted from the Latin by Granger Ryan and Helmut Ripperger. 2 vols. New York and London: Longmans, Green, 1941.
This late thirteenth-century author was recommended by Dubois for study in his proposed schools.

Jarrett, Bede. Social Theories of the Middle Ages, 1200–1500. London: Benn, 1926. 'The Library of European Political Thought,' ed. Harold J. Laski.
Reprint: Westminster, Md.: Newman Book Shop, 1942.

John of Garland. *Morale scolarium* of John of Garland (Johannes de Garlandia), a Professor in the Universities of Paris and Toulouse in the Thirteenth Century. Ed. Louis J. Paetow. Berkeley: University of California Press, 1927. 'Memoirs of the University of California,' Vol. IV, No. 2.
Includes a prose paraphrase in English, which is virtually a translation. The Introduction and wealth of footnotes provide much information about schools and textbooks of the thirteenth century.

Works Cited

John of Paris. Tractatus de potestate regia et papali: Interdum contingit. In M. Goldast, ed., *Monarchia s. Romani imperii*, II, 108–47.

Brief selections from this pamphlet by a contemporary of Dubois are translated in Carlyle, *Mediaeval Political Theory*, V, 428*n*, 434*n*.

Jordanus von Osnabrück. 'Des Jordanus von Osnabrück Buch [*De prerogativa Romani imperii*] über das römische Reich, herausgegeben von G. Waitz,' *Abhandlungen der königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen, historisch-philologischen Klasse*, XIV (1869), 1–91.

Text and Introduction.

Jourdain, Charles. 'Un Collège oriental à Paris au treizième siècle,' *Revue des sociétés savantes des départements*, sér. 2, VI (1861), 66–73.

—— 'Mémoire sur les commencements de la marine militaire sous Philippe le Bel,' *Mémoires de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, XXX (1881), Part I, 377–418.

—— 'Mémoire sur l'éducation des femmes au moyen âge,' *Mémoires de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, XXVIII (1874), 79–133.

Reprinted in his *Excursions historiques et philosophiques à travers le moyen âge* (Paris, 1888), pp. 463–509.

Kämpf, Hellmut. Pierre Dubois und die geistigen Grundlagen des französischen Nationalbewusstseins um 1300. Leipzig: Teubner, 1935. 'Beiträge zur Kulturgeschichte des Mittelalters und der Renaissance,' hrsg. von W. Goetz, Vol. LIV.

The title is a misnomer. Actually, it is a study of the rise of French national consciousness, illustrated by numerous citations from contemporary writers, among them Dubois.

Keil, Heinrich G. T.: *see* Priscian.

Kelsen, Hans. Die Staatslehre des Dante Alighieri. Vienna and Leipzig: F. Deuticke, 1905. 'Wiener staatswissenschaftliche Studien,' Vol. VI, No. 3.

Kern, Fritz, ed. Acta Imperii, Angliae et Franciae ab anno 1267 ad annum 1313: Dokumente vornehmlich zur Geschichte der auswärtigen Beziehungen Deutschlands, in ausländischen Archiven gesammelt. Tübingen: J. C. B. Mohr, 1910.

—— Die Anfänge der französischen Ausdehnungspolitik bis zum Jahr 1308. Tübingen: J. C. B. Mohr, 1910.

—— Grundlagen der französischen Ausdehnungspolitik. Leipzig: Hirschfeld, 1910.

Kervyn de Lettenhove, Joseph B. M. C. 'Etudes sur l'histoire du XIIIe siècle,' *Mémoires de l'Académie royale des sciences, des lettres et des beaux-arts de Belgique, classe des lettres*, XXVIII (1854), 1–105.

A lengthy footnote on p. 84 comprises the text of the false bull *Quia nonnulli*, in which Boniface VIII is supposed to have abolished the principle of clerical celibacy.

—— Histoire de Flandre. 6 vols. Brussels: Vandale, 1847–50.

There is a fifth edition: 4 vols. Bruges: Ch. Beyaert, 1898.

Works Cited

Memoirs of the Crusades, by Villehardouin and Joinville. Trans. Sir Frank Marzials. London and Toronto: J. M. Dent; New York: E. P. Dutton, 1908. 'Everyman's Library,' No. 333.

Merriman, Roger Bigelow. The Rise of the Spanish Empire in the Old World and in the New. 4 vols. New York: Macmillan, 1918–34.

Meulen, Jacob ter. Der Gedanke der internationalen Organisation in seiner Entwicklung. 2 vols. in 3. The Hague: Nijhoff, 1917–40.

I, 101–07 on Dubois. Cites a few passages of the *De recuperatione* in German translation.

Meyer, Emil H. Die staats- und völkerrechtlichen Ideen von Peter Dubois. Marburg: Adolf Ebel, 1908. 'Arbeiten aus dem juristisch-staatswissenschaftlichen Seminar der königlichen Universität Marburg,' hrsg. von Walter Schücking, Vol VII.

Despite its title, of minor importance.

Meyer, Hermann. Lupold von Bebenburg; Studien zu seinen Schriften: ein Beitrag zur Geschichte der staatsrechtlichen und kirchenpolitischen Ideen und Publizistik im 14. Jahrhundert. Freiburg-im-Breisgau: Herder, 1909. 'Studien und Darstellungen aus dem Gebiet der Geschichte,' Vol. VII, Nos. 1, 2.

—— Textkritische Studien zu den Schriften von Lupold von Bebenburg. Munich and Freiburg-im-Breisgau: Herder, 1908.

Lupold von Bebenburg was a doctor of canon law, who became bishop of Bebenburg in 1353; died 1363.

MGH: *see* Monumenta Germaniae historica.

Michel, Karl. Das *Opus tripartitum* des Humbertus de Romanis, O.P.: Beitrag zur Geschichte d. Kreuzzugsidee und d. kirchliche Unionsbewegung. 2d ed. Graz: Universitätsbuchdruckerei, 1926.

This is the *Libellus* written for the use of the council of Lyons (1274).

Migne, J. P., ed. Patrologiae cursus completus. Series latina. 221 vols. Paris: J. P. Migne, 1844–64. Cited as Migne, *Pat. Lat.*

Mirbt, Carl. Die Publizistik im Zeitalter Gregors VII. Leipzig: Hinrichs, 1894.

One of the earliest studies of pamphleteering during the Middle Ages.

Miscellanea Francesco Ehrle: scritti di storia e paleografia pubblicati sotto gli auspici di S. S. Pio XI in occasione dell'ottantesimo natalizio dell' e.mo Cardinale Francesco Ehrle. 5 vols. Rome: Biblioteca apostolica Vaticana, 1924.

Möller, Richard. Ludwig der Bayer und die Kurie im Kampf um das Reich; Forschungen. Berlin: E. Ebering, 1914. 'Historische Studien,' Vol. CXVI.

Mohler, Ludwig. Die Kardinäle Jacob und Peter Colonna: ein Beitrag zur Geschichte des Zeitalter Bonifaz' VIII. Paderborn: F. Schöningh, 1914. 'Quellen und Forschungen aus dem Gebiete der Geschichte,' Vol. XVII.

Works Cited

Mollat, Guillaume. 'Guichard de Troyes et les révélations de la sorcière de Bourdenay,' *Moyen Age*, sér. 2, XII (1908), 310–16 (whole number, Vol. XXI).

—— Les Papes d'Avignon, 1305–1379. 2d ed. Paris: Lecoffre, 1912. 'Bibliothèque de l'enseignement de l'histoire ecclésiastique.'
A ninth edition appeared in 1950.

Monumenta Germaniae historica. Deutsche Chroniken, 1877—; Leges, 1835—; Scriptores, 1826—; Scriptores rerum Germanicarum, nova series, 1922—.

Moranvillé, Henri. 'Les Projets de Charles de Valois sur l'empire de Constantinople,' *Bibliothèque de l'Ecole des chartes*, LI (1890), 63–86.
A group of documents bearing on the subject.

Moser, Max. 'Der Brief *Realis est veritas* aus dem Jahre 1304,' *Mitteilungen des Instituts für österreichische Geschichtsforschung*, XXIX (1908), 64–87.
Material on Richard Leneveu, pp. 84–87.

Müller, Eugen. Beiträge zur Kenntnis der öffentlichen Meinung während des Interregnums. Heidelberg: C. Winter, 1912.
Part of his longer work on Peter of Prezza, below.

—— Peter von Prezza, ein Publizist der Zeit des Interregnums. Heidelberg: C. Winter, 1913. 'Heidelberger Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte,' Vol. XXXVII.

Müller, Ewald. Das Konzil von Vienne, 1311–1312: seine Quellen und seine Geschichte. Münster: Aschendorff, 1934. 'Vorreformationsgeschichtliche Forschungen,' Vol. XII.

Müller, Karl. [Review of Francesco Scaduto, *Stato e chiesa negli scritti politici dalla fine della lotta per le investiture sino alla morte di Ludovico il Bavaro, 1122–1347*, and of Baldassare Labanca, *Marsilio da Padova*], *Göttingische gelehrte Anzeigen*, 1883, Part II, 901–26.
Discusses the authorship of certain pamphlets attributed to Dubois.

Mullally, Joseph P.; *see* Peter of Spain.

Neumann, Wilhelm A. Ueber die orientalischen Sprachstudien seit dem 13. Jahrhunderte, mit besonderer Rücksicht auf Wien. Vienna: A. Hölder, 1899.

Norden, Walter. Das Papsttum und Byzanz: die Trennung der beiden Mächte und das Problem ihrer Wiedervereinigung bis zum Untergange des byzantinischen Reichs, 1453. Berlin: B. Behr, 1903.

Notices et extraits des manuscrits: *see* Boutaric.

Oman, Charles W. C. A History of the Art of War in the Middle Ages. 2d ed. 2 vols. Boston: Houghton Mifflin, 1924.

Palestine Pilgrims Text Society. The Library. 13 vols. London: Committee of the Palestine Exploration Fund, 1897 [1890–97].
English translations of accounts by western travelers to Palestine during the Middle Ages.

Works Cited

Pasolini, Pier Desiderio. I tiranni di Romagna e i papi nel medio evo. Imola: Galeati, 1888.

Peers, Edgar Allison, trans. A Life of Ramón Lull, Written by an Unknown Hand About 1311. Translated from the Catalan with Notes and an Appendix. London: Burns, Oates & Washbourne, [1927].

—— Ramon Lull: A Biography. London: Society for the Promotion of Christian Knowledge, 1929.

Peter of Spain [Pope John XXI]. The *Summulae logicales* of Peter of Spain. Ed. J. P. Mullally. Notre Dame, Ind.: University of Notre Dame, 1945. 'Publications in Mediaeval Studies,' Vol. VIII.

Edition and translation of the seventh and final tract.

Petit, Joseph. Charles de Valois (1270–1325). Paris: Picard, 1900.

Philip IV (the Fair). Lettres inédites de Philippe le Bel. Publiées par l'Académie des sciences, inscriptions et belles-lettres de Toulouse. Ed. Adolphe Baudouin. Paris: Champion, 1887.

Picot, Georges M. R., ed. Documents relatifs aux états généraux et assemblées réunis sous Philippe le Bel. Paris: Imprimerie nationale, 1901, 'Collection de documents inédits sur l'histoire de France,' No. 35.

Piero della Vigna. Petri de Vineis judicis aulici et cancellarii Friderici II imperatoris epistolarum, quibus res gestae ejusdem imperatoris aliaque multa ad historiam ac jurisprudentiam spectantia continentur libri VI. Ed. Joh. Rudolphus Iselius. 2 vols. Basle: Joh. Christ, 1740.

This collection of letters left by the chancellor of Frederick II was available in the French royal archives in Dubois' day, and may possibly have offered hints to Philip's propagandists. Copy in the Columbia University Library.

Pirenne, Henri. 'La Version flamande et la version française de la bataille de Courtrai,' *Bulletins de la Commission royale d'histoire de Belgique*, sér. 4, XVII (1890), Part I, 11–50.

Also printed separately. Brussels: Hayez, 1890.

Poole, Reginald Lane. Illustrations of the History of Mediaeval Thought. 2d ed. New York: Macmillan, 1920.

First published in 1884.

Portable Medieval Reader, The. Ed. James B. Ross and Mary M. McLaughlin. New York: Viking Press, 1949.

Includes English translation of chapters 1–4, 13, 27, 101, 104–07, 111, of the *De recuperatione*. Confuses Edward I with Philip IV by ignoring the fact that the work is in two parts.

Potthast, August, ed. Regesta pontificum Romanorum inde ab anno post Christum natum 1198 ad annum 1304. 2 vols. Berlin: R. de Decker, 1874–75.

Power, Eileen. 'Pierre Du Bois and the Domination of France.' In F. J. C. Hearnshaw, ed., *The Social and Political Ideas of Some Great Mediaeval Thinkers* (London: G. Harrap, 1923), pp. 139–66.

Works Cited

An otherwise excellent essay, marred by the contention that Dubois' ideas were 'modern' and not in harmony with his age.

Powicke, Frederick M. 'Pierre Dubois, a Medieval Radical.' In Thomas F. Tout and James Tait, eds., *Historical Essays* (Manchester: Manchester University Press, 1907), pp. 169–91.

An excellent essay, conceding that many of Dubois' ideas were not original with him.

Priscian. Institutiones grammaticae. In H. Keil, ed., *Grammatici latini* (Leipzig: Teubner, 1857–80), Vols. II and III.

Prutz, Hans Georg. Entwicklung und Untergang des Tempelherrenordens. Berlin: G. Grote, 1888.

—— Die geistlichen Ritterorden: ihre Stellung zur kirchlichen, politischen, gesellschaftlichen und wirtschaftlichen Entwicklung des Mittelalters. Berlin: Mittler & Sohn, 1908.

—— 'Zur Genesis des Templerprozesses,' *Sitzungsberichte der Bayerische Akademie der Wissenschaften zu München, Philosophisch-philologischen und der historischen Klasse*, [XXIV] Jahrgang 1907, 5–67.

Raoul Glaber: *see* Rodulphus Glaber.

Rashdall, Hastings. The Universities of Europe in the Middle Ages. Ed. F. M. Powicke and A. B. Emden. 3 vols. Oxford: Clarendon Press, 1936.

Originally published in 1895. Powicke and Emden preserved the original organization, making their revisions and corrections principally by means of footnotes.

Recueil des historiens des croisades. Documents arméniens. 2 vols. in 3. Paris: Imprimerie impériale, 1869–1906.

Recueil des historiens des Gaules et de la France. Ed. Dom Martin Bouquet *et al.* 24 vols. Paris: Aux dépens des librairies associés, 1738–1904.

Some volumes have been reprinted from time to time. Publisher varies. The work is sometimes cited by its Latin title, *Rerum Gallicarum et Francicarum scriptores.*

Registres de Boniface VIII, Les: Recueil des bulles de ce pape publiées ou analysées d'après les manuscrits originaux des Archives du Vatican. Ed. Georges Digard *et al.* 4 vols. Paris: Boccard, 1904–39. 'Bibliothèque des Ecoles françaises d'Athènes et de Rome,' 2 sér., Vol. IV.

Issued in 16 fascicles. Fasc. No. 1 of Vol. I was issued in 1884. Publisher varies.

Reinach, Salomon. 'L'Enigme de Siger,' *Revue historique*, CLI (1926), 34–46.

Renan, Ernest. 'De divers pièces relatives aux différends de Philippe le Bel avec la papauté.' In *Histoire littéraire*, XXVII, 371–81.

Some of this material is on Pierre Flotte.

—— Etudes sur la politique religieuse du règne de Philippe le Bel. Paris: C. Lévy, 1899.

Works Cited

A reprint of the author's articles on William of Nogaret, Pierre Dubois, and Bertrand de Got, in *Histoire littéraire*, Vols. XXVI, XXVII, and XXVIII.

—— 'Guillaume de Nogaret, légiste.' In *Histoire littéraire*, XXVII, 233–371.

— — 'Pierre Du Bois, légiste.' In *Histoire littéraire*, XXVI, 471–536.

A long and brilliant study, with detailed summaries of several of Dubois' pamphlets. Dubois' authorship of a few of the treatises here attributed to him has been repudiated by later scholars.

—— 'Un Publiciste du temps de Philippe le Bel, 1300–1308 [Pierre Dubois],' *Revue des deux mondes*, XCI (1871), 620–46; XCII (1871), 87–115.

A reprint, without citation of authorities, of the article in *Histoire littéraire*, XXVI.

Ribbeck, Walter. 'Gerhoh von Reichersberg und seine Ideen über das Verhältniss zwischen Staat und Kirche,' *Forschungen zur deutschen Geschichte*, XXIV (1884), 3–80.

—— 'Noch einmal Gerhoh von Reichersberg,' *Forschungen zur deutschen Geschichte*, XXV (1885), 556–61.

Gerhoh von Reichersberg, who lived *ca.* 1150, had ideas on the confiscation of ecclesiastical property which resemble those of Dubois.

Richard, Jules M. Une Petite-Nièce de saint Louis, Mahaut, comtesse d'Artois et de Bourgogne (1302–1329): étude sur la vie privée, les arts et l'industrie en Artois et à Paris au commencement du XIVe siècle. Paris: Champion, 1887.

Dubois spent his last years in the service of the countess.

Rigaud, Eudes. Registrum visitationum archiepiscopi Rothomagensis [1248–69]: Journal des visites pastorales d'Eude Rigaud, archevêque de Rouen. Ed. Th. Bonnin. Rouen: A. le Brument, 1852.

Presents a picture of monastic life in the thirteenth century which affords some justification for the criticisms leveled against monasticism by Dubois.

Rigault, Abel. Le Procès de Guichard, évêque de Troyes, 1308–1313. Paris: Picard, 1896. 'Société de l'Ecole des chartes, mémoires et documents,' Vol. I.

Rivière, Jean. Le Problème de l'église et de l'état au temps de Philippe le Bel: étude de théologie positive. Louvain: Spicilegium sacrum Lovaniense bureaux, 1926. 'Spicilegium sacrum Lovaniense; études et documents,' fasc. 8.

Rocquain, Félix. La Cour de Rome et l'esprit de réforme avant Luther. 3 vols. Paris: Thorin & fils, 1893–97.

—— 'Philippe le Bel et la bulle *Ausculta fili*,' *Bibliothèque de l'Ecole des chartes*, XLIV (1883), 393–418.

Contends that the story of the burning of the bull lacks adequate documentary evidence.

Works Cited

Rodulphus Glaber. Raoul Glaber: Les cinq livres de ses histoires, 900–1044. Ed. Maurice Prou. Paris: Picard, 1886. 'Collection de textes pour servir à l'étude et à l'enseignement de l'histoire.'

An account of the Peace of God in France in 1034 is found in IV. iv, v.

Ross, J. B., and M. M. McLaughlin: *see* Portable Medieval Reader.

Rymer, Thomas, ed. Foedera, conventiones, litterae, et cujuscunque generis acta publica inter reges Angliae et alios quosvis imperatores, reges, pontifices, principes, vel communitates: ab ingressu Guilelmi I in Angliam A. D. 1066 ad nostra usque tempora habita aut tractata. Ed. Adam Clarke and Fred. Holbrooke. 4 vols. in 7. London: G. Eyre & E. Strahan, 1816–69.

Sandys, John Edwin. A History of Classical Scholarship. 3 vols. Cambridge: Cambridge University Press, 1903–8.

Vol. I, which covers the Middle Ages, is in a third edition (1921).

Sanudo, Marino, senior. Secreta fidelium crucis super Terrae Sanctae recuperatione et conservatione. In J. Bongars, *Gesta Dei per Francos*, II, 1–288.

Part XIV of Book III is translated in Palestine Pilgrims Text Society, *The Library*, XII, 2–70.

Sarti, Mauro, and Mauro Fattorini. De claris archigymnasii Bononiensis professoribus a saeculo XI usque ad saeculum XIV. Ed. C. Albicinius and C. Malagola. 2 vols. Bologna: Merlani fratres, 1888–96.

Originally published 1769–72.

Sarton, George. Introduction to the History of Science. 3 vols. Baltimore: Williams & Wilkins, 1927–48.

Schlauch, Margaret. Medieval Narrative: A Book of Translations. New York: Prentice-Hall, 1928.

Includes a version of the Alexander legend, pp. 281–331.

Schnürer, Gustav. 'Das Projekt eines internationalen Schiedsgerichts aus den Jahren 1307/8,' *Historisch-politische Blätter für das katholische Deutschland*, CXLI (1908), 279–84.

Quotes chap. 12 of the *De recuperatione* in German translation.

Scholz, Richard. Die Publizistik zur Zeit Philipps des Schönen und Bonifaz, VIII. Stuttgart: F. Enke, 1903. 'Kirchenrechtliche Abhandlungen,' Vols. VI–VIII.

The outstanding study of pamphleteering during the reign of Philip IV. Pp. 32–129 were published separately under the title *Aegidius von Rom* (Stuttgart, 1902).

'Studien über die politischen Streitschriften des 14. und 15. Jahrhunderts,' *Quellen und Forschungen aus italienischen Archiven und Bibliotheken*, XII (1909), 112–31.

Includes some unedited material on William of Ockham.

Unbekannte kirchenpolitische Streitschriften aus der Zeit Ludwigs des Bayern (1327–1354). 2 vols. in 1. Rome: Loescher, 1911–14. 'Bib-

liothek des kgl. preuss. historischen Instituts in Rom,' Vols. IX–X.

Schottmüller, Konrad. Der Untergang des Templer-Ordens. Mit urkundlichen und kritischen Beiträgen. 2 vols. Berlin: Mittler & Sohn, 1887.

Schraub, Wilhelm. Jordan von Osnabrück und der *Tractatus de praerogativa Romani imperii*. Heidelberg: C. Winter, 1909.

An extract from his longer work, published in 1910.

—— Jordan von Osnabrück und Alexander von Roes: ein Beitrag zur Geschichte der Publizistik im 13. Jahrhundert. Heidelberg: C. Winter, 1910. 'Heidelberger Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte,' Vol. XXVI.

Schücking, Walther. Die Organisation der Welt. Leipzig: Alfred Körner, 1909.

Chap. iii deals with Pierre Dubois and George Podiebrad as forerunners of pacifism.

Schulte, Johann Friedrich von. Die Geschichte der Quellen und Literatur des canonischen Rechts von Gratian bis auf die Gegenwart. 3 vols. Stuttgart: F. Enke, 1875–80.

A work of fundamental importance.

[Scott, Samuel P.]. The Civil Law, Including the Twelve Tables, the Institutes of Gaius, the Rules of Ulpian, the Opinions of Paulus, the Enactments of Justinian, and the Constitutions of Leo. Translated from the Original Latin, Edited and Compared with All Accessible Systems of Jurisprudence, Ancient and Modern. 17 vols. in 7. Cincinnati: Central Trust Co., [1932].

Siger de Brabant. Die *Impossibilia* des Siger von Brabant: eine philosophische Streitschrift aus dem 13. Jahrhundert. Ed. Clemens Baeumker. Münster: Aschendorff, 1898. 'Beiträge zur Geschichte der Philosophie des Mittelalters; Texte und Untersuchungen,' Vol. II, No. 6.

—— Questions sur la Physique d'Aristote, texte inédit, par Philippe Delhaye. Louvain: Edition de l'Institut supérieure de philosophie, 1941.

The complete commentary on Books I–IV and VIII of the *Physics*. Comprises a total of 141 questions.

Souchon, Martin. Die Papstwahlen von Bonifaz VIII bis Urban VI und die Entstehung des Schismas 1378. Brunswick: Goeritz, 1888.

Useful for lists of the promotion of cardinals.

Steenberghen, Fernand van. Siger de Brabant d'après ses œuvres inédites. 2 vols. Louvain: Editions de l'Institut supérieur de philosophie, 1931–42.

Based on the materials discovered by Grabmann in 1923.

Strayer, Joseph R. 'The Laicization of French and English Society in the Thirteenth Century,' *Speculum*, XV (1940), 76–91.

Strayer, Joseph R., and Charles H. Taylor. Studies in Early French Taxation. Cambridge: Harvard University Press, 1939. 'Harvard Historical Monographs,' Vol. XII.

'Consent to taxation under Philip the Fair,' pp. 3–105, discusses the various financial expedients adopted by the crown.

Stubbs, William. The Constitutional History of England in Its Origin and Development. 3 vols. Oxford: Clarendon Press, [1926–29].

A new impression of a work originally published 1874–78. Each volume has gone through several editions.

Tardif, Adolphe. Histoire des sources du droit français: origines romaines. Paris: Picard, 1890.

—— La Procédure civile et criminelle aux XIIIe et XIVe siècles, ou procédure de transition. Paris: Picard, 1885.

These studies by Tardif are useful in judging the significance of Dubois' proposed legal reforms.

Taylor, Charles Holt. 'Some New Texts on the Assembly of 1302,' *Speculum*, XI (1936), 38–42.

Taylor, Henry Osborn. The Mediaeval Mind: A History of the Development of Thought and Emotion in the Middle Ages. 3d (American) ed. 2 vols. New York: Macmillan, 1919.

Theodulus. Theoduli Ecloga. Ed. Joannes Osternacher. Urfahr: Verlag des bischöflichen Privatgymnasiums am Kollegium Petrinum, 1902. 'Jahresbericht des bischöflichen Privat-Gymnasiums am Kollegium Petrinum in Urfahr,' Vol. XV.

One of the textbooks recommended by Dubois. Theodulus wrote in the ninth century.

Thorndike, Lynn. A History of Magic and Experimental Science. 6 vols. New York: Macmillan, (Vols. I-IV), Columbia University Preco (Vols. V-VI), 1923–41.

—— University Records and Life in the Middle Ages. New York: Columbia University Press, 1944. 'Records of Civilization, Sources and Studies,' No. XXXVIII.

Includes English translation of chapters 60–63, 71–76, 79, 83–88, of the *De recuperatione*, which deal with education.

Throop, Palmer A. Criticism of the Crusade: A Study of Public Opinion and Crusade Propaganda. Amsterdam: Swets & Zeitlinger, 1940.

A study of the loss of papal prestige from the failure of the crusades. Limited to the thirteenth century. Has neither bibliography nor index.

Tosti, Luigi, conte. History of Pope Boniface and His Times, with Notes and Documentary Evidence, in Six Books. Trans. Eugene J. Donnelly. New York: Christian Press Association Publishing Co., [1911].

Originally published in 2 vols. (Paris, 1854). The translator has made no attempt to bring the scholarship up to date.

Tout, Thomas F. The History of England from the Accession of Henry III to the Death of Edward III (1216–1377). London: Longmans, Green, 1905. 'The Political History of England,' ed. William Hunt and Reginald L. Poole, Vol. III.

Tout, Thomas F., and James Tait,: *see* Powicke, Frederick M.

Works Cited

Vehse, Otto. Die amtliche Propaganda in der Staatskunst Kaiser Friedrichs II. Munich: Verlag der Münchner Drucke, 1929. 'Forschungen zur mittelalterlichen und neueren Geschichte,' Vol. I.

Verdier, Fernand. 'Origine et influence des légistes,' *Mémoires de l'Académie de Nîmes*, sér. 7, XVIII (1895), 179–201.

Traces the origin and rise of the lawyer class to the time of Louis IX.

Vesnitch, Milenko Radomir. 'Deux précurseurs français du pacifisme et de l'arbitrage internationale,' *Revue d'histoire diplomatique*, XXV (1911), 23–78.

Compares Pierre Dubois with Emeric Crucé, author of *The New Cyneas*, published 1623.

Vigne, Pietro delle: *see* Piero della Vigna.

Villani, Giovanni. La cronica di Giovanni Villani annotata ad uso della gioventú. Ed. Celestino Durando. 5 vols. Turin: Libr. Salesiana, 1879.

Selections from the first nine books have been translated by Rose E. Selfe (2d ed. London: Constable, 1906).

Vinogradoff, Sir Paul. Roman Law in Mediaeval Europe. London and New York: Harper, 1909. 'Harper's Library of Living Thought.'

Wailly, Joseph Natalis de. 'Mémoire sur un opuscule anonyme intitulé *Summaria brevis et compendiosa doctrina felicis expeditionis et abbreviationis guerrarum ac litium regni Francorum*,' *Bibliothèque de l'Ecole des chartes*, sér. 2, III (1846), 273–315 (whole number, Vol. VIII).

A paper read before the Academy at the séances of February 5 and 12, 1847. The same paper also appeared in *Mémoires de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, XVIII (1849), Part I, 435–94. Marks the nineteenth-century 'discovery' of Dubois.

Walter of Châtillon: *see* Gautier de Châtillon.

Wenck, Karl Robert. Clemens V und Heinrich VII; die Anfänge des französischen Papstthums: ein Beitrag zur Geschichte des XIV Jahrhunderts. Halle: Niemeyer, 1882.

—— 'Französische Werbungen um die deutsche Königskrone zur Zeit Philipps des Schönen und Clemens' V,' *Historische Zeitschrift*, LXXXVI (1901), 253–69.

—— Philipp der Schöne von Frankreich: seine Persönlichkeit und das Urteil der Zeitgenossen; im Anhang, urkundliche Beiträge zur Geschichte der Erwerbung Lyons für Frankreich. Marburg: Elwert, 1905.

—— [Review and comment on Langlois' edition of the *De recuperatione*], *Historische Zeitschrift*, LXXI (1893), 151–56.

—— 'Staat und Kirche am Ausgang des Mittelalters,' *Zeitschrift für allgemeine Geschichte*, I (1884), 592–606.

Wieruszowski, Helene. Vom Imperium zum nationalen Königtum: vergleichende Studien über die publizistischen Kämpfe Kaiser Friedrichs II und König Philipps des Schönen mit der Kurie. Munich and Berlin: R. Oldenbourg, 1933. 'Beiheft der Historischen Zeitschrift,' No. 30.

المحتوى

